

طه حسين

حديث الأربعاء

٢

دار المعارف

طه حسين

حديث الأربعاء

٢

الطبعة الرابعة عشرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

القدماء والمحدثون[1]

الجهاد بين القديم والجديد — مصدره ونتائجه فى فروع الحياة المختلفة — مظهره فى الحياة الأدبية — آثاره العظيمة فى الأدب اليونانى ، وآثاره الضئيلة فى الأدب العربى .

لم يخل عصر أدبى فى حياة الأمم ، التى كان لها نصيب من الأدب وحظ فى إتقان القول وإجادته ، من هذه المسألة «مسألة القدماء والمحدثين» ولم تظهر هذه المسألة فى عصر من العصور أو عند أمة من الأمم ، إلا أحدثت خلافاً عظيماً وجدالا عنيفاً ، وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه ، وقسم يظاهر المحدَثين مظاهرة لا تعرف اللين ، وقسم يتوسط بين أولئك وهؤلاء ، ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها ، وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ، ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقى ، وأثمرها تغير الأحوال وتبدل الظروف .

كذلك كانت الحال قديماً ، وكذلك كانت الحال فى هذا العصر الذى نعيش فيه . وفى الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدَث ليس مقصوراً على الأدب وحده ، وإنما هو يتناول كل شىء ، يتناول الفن والعلم ، ويتناول الفلسفة ، ويتناول الحياة نفسها فى فروعها المختلفة المادية ، والسياسية والاجتماعية ؛ وذلك معقول ، لأن الحياة الإنسانية كما قلنا غير مرة ، تقوم على أصلين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية أخرى .

فنحن بحكم البقاء وحاجتنا إليه ، مضطرون إلى أن نصل بين أمس واليوم والغد ، مضطرون إلى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون إلى أن نشعر بأن حياتنا الآن هى إن لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهى أثر قوى من آثارها ، ونتيجة لازمة من نتائجها .

---

(١) نشرت بجريدة السياسة فى ١٧ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ هـ ، ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢ م .

ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغاير أمسنا ، وبأن حياتنا الآن إن أشبهت حياتنا أمس من وجه أو وجهين فهى تغاير من وجوه .

وإذن فنحن بين الشعور بالبقاء والحاجة إليه ، وبين الشعور بالتطور والحاجة إليه ، مترددون فى ميولنا وأهوائنا وآرائنا . فمنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شىء فى نفسه ، حتى تصبح غايته الحقيقة ألا يكون إلا ابن أمسه ، وإلا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التى لا نعرف لها أولا ولا آخراً، وهى سلسلة الحياة . ومنا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة، فيكلف بالجديد ويرغب فيه ، ويندفع فى هذه الرغبة وذلك الكلف، فلا يفكر إلا فى شىء واحد : هو أن يعدو ، وأن يعدو ما استطاع إلى الأمام، دون أن يقف فيفكر فى حاضره ، أو أن يلتفت فينظر إلى ماضيه .

ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار القديم المسرفين فى نصره ، وأشياع الجديد الغلاة فى التشيع له : يشتد هذا الخلاف ويعظم ، حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التى تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولابقاء ، وإنما هى محققة لهذين الأصلين تحقيقاً طبيعياً غير متكلف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم ، فتتوسط بينهما ، ويظهر منها هذا القسم الثالث الذى هو خلاصة الأمة ، والذى هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج ، والذى هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث .

نجد هذه النظرية فى كل ضرب من ضروب الحياة العامة ، عقلية كانت أو شعورية ، سياسية كانت أو اجتماعية ، وهى منتجة نتائج تختلف قوة وضعفاً باختلاف موضوعاتها . فأما نتائجها فى الحياة الأدبية فهينة سهلة محتملة لا تتجاوز الخصومات اللفظية إلاقليلا ، وكذلك الحال فى الحياة العقلية الفلسفية . فأما فى العلم فانتصار الجديد يسير محقق ، لا خوف عليه ولا شك فيه ، لأن العلم قد أصبح أقل الأشياء الإنسانية استعداداً للخلاف والمناقضات .

ولكن هذه النظرية إذا ظهرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية أنتجت فى أكثر الأحيان أقبح الآثار وأسوأها ، لأن الحياة الاجتماعية والسياسية هما

أشد ضروب الحياة مسيساً بالمنافع على اختلافها والمصالح على تباينها ، والإنسان بطبيعته عبد لمنفعته ، يبذل فيها حياته طيب النفس قرير العين . ومن هنا لم نعلم أن خلافاً أدبيًّا فى أسلوب الشعر والنثر ، أو أن خلافاً فى نظرية من نظريات الفلسفة ، أو أصل من أصول العلم ، أحدث ثورة سفكت فيها الدماء ، وأزهقت فيها النفوس ، واختل لها نظام الأمن ، فى حين كان الاختلاف فى تقسيم الثروة ، أو فى نظام الحكم — وسيظل دائماً — مصدر هذه الثورات التى أشرنا إليها .

وما لنا نذهب بعيداً ، ونحن لا نعلم أن شاعراً قتل شاعراً آخر لأنه يخالفه فى الوجهة الشعرية ، أو أن فيلسوفاً قتل فيلسوفاً آخر لأنه يخالفه فى أصل من أصول الفلسفة ، لا نعلم شيئاً من هذا ، ولكنا نعلم أن الفرد قد يقتل الفرد ، وأن الجماعة قد تعلن الحرب على الجماعة ، لخلاف مصدره السياسة أو مصدره المال .

لا تذكر لى الخلافات الدينية التى أحدثت الثورات وضروب الاضطهاد ، فما أحدثت هذه الثورات من حيث إنها اختلافات فى الحياة العقلية أو الأدبية أو الفنية الخالصة ، وإنما أحدثتها من حيث إنها اختلافات فى ضروب الحياة الاجتماعية والسياسية نفسها .

ستقول لى : ولكن الاختلاف فى السياسة والاقتصاد وما إليهما من نظم الحكم وتقسيم الثروة ، إنما هو أثر من آثار هذه الحياة العقلية والأدبية والفنية . وليس فى هذا شك . فإن سلسلة الحياة متصلة على اختلاف حلقاتها . ولسنا نزعم أن الحياة الأدبية مصدر الخير الخالص . وإنما نزعم أن هذه الحياة أشد ضروب الحياة الإنسانية براءة من العنف والظلم والشر ، لأنها تكاد تنحصر فى الكلام دون أن تمس الحكم ودون أن تمس المال .

إذن فالخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة ، يشتد الجهاد بين أولئك وهؤلاء حتى يتم انتصار الجديد فيصبح هذا الجديد قديماً ويظهر جديد آخر يحاربه .

ولعل من ألذ أنواع الجهاد بين القديم والجديد ، وأحبها إلى النفس ، هذا الجهاد الذى يقع بين الشعراء والكتاب فى عصورهم المختلفة . هذا الجهاد لذيذ

لأنه برىء ، ولذيذ لأنه يمثل الاختلاف بين لونين من ألوان الحياة العقلية والشعورية ، أحدهما قد أخذ يضمحل وينمحى ، والآخر قد أخذ يظهر ويقوى . ولقد قلنا فى أول هذا الفصل إن الأمم التى لها حظ من الحياة الأدبية قد عرفت كلها هذا الخلاف بين القدماء والمحدثين ، ولكنا مضطرون إلى أن نلاحظ أن نفس هذا الخلاف بين القدماء والمحدثين يتفاوت تفاوتاً عظيماً باختلاف الأمم والأجيال ، فهو منتج جدًّا فى أمة من الأمم ، عقيم جدًّا فى أمة أخرى ، معتدل الإنتاج فى أمة ثالثة . ثم إن نوعه نفسه يختلف باختلاف هذه الأمم والأجيال ، فقد يختلف القدماء والمحدثون فى الألفاظ ، وقد يختلفون فى المعانى ، وقد يختلفون فى الألفاظ والمعانى ، وقد يختلفون فى الأنواع الفنية نفسها ، فتظهر الحياة الأدبية فى هذا العصر فى صور ومظاهر جديدة لم تألفها العصور الأولى ولم تعرف من أمرها شيئاً .

انظر إلى الأمة اليونانية مثلا وإلى الشعر ، تجد أن تطورها لم يستتبع تطور الشعر فى لفظه ومعناه فحسب ، وإنما استتبع تطوره فى نوعه أيضاً . فكان الشعر القصصى مظهر الشعور اليونانى أيام بداوة الأمة اليونانية وبدء تحضرها ، فلما عظم حظها من الحضارة المادية ، وأخذ عقلها فى التفكير ، وذاقت لذة الترف والثروة ، كان الشعر الغنائى مظهر شعورها ، فلما قوى نصيبها من الحضارة ، وتأسست فيها المدن المختلفة ذات النظم السياسية والاجتماعية المعقدة ، وأخذت الفلسفة تظهر وتبسط سلطانها ، كان الشعر التمثيلى مظهر شعورها .

فالخلاف بين القدماء والمحدثين عند الأمة اليونانية كان عظيماً معقداً مختلف المناحى ، لأنه كان يتناول اللفظ والمعنى والأسلوب والصورة والنوع والموضوع ، فى حين كان عند الأمة العربية ضيقاً محصوراً لا يكاد ينتج شيئاً ، لأنه لا يتناول إلا اللفظ ، وقد يتناول المعانى فى عصر من العصور ، هو أول العصر العباسى ، ذلك أن الخلاف قد وقع بالفعل فى أواخر القرن الأول ، وأوائل القرن الثانى للهجرة بين أنصار الجاهليين والإسلاميين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يروى كارهاً شعر جرير ، لأن هذا « المولد » كان مجيداً . ثم ظهر الخلاف فى منتصف القرن الثانى بين أنصار العرب جاهليين وإسلاميين

وأنصار المحدثين ، أى ظهر الخلاف بين بشار وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من الأدباء ، وبين امرئ القيس وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من أئمة اللغة ورواة الشعر. ثم ظهر الخلاف فى القرن الثالث بين الذين كانوا ينتصرون للبحترى وأبى تمام ، والذين كانوا ينتصرون لأبى نواس ومسلم . ثم ظهر الخلاف فى القرن الرابع بين الذين كانوا ينتصرون للمتنبى ، والذين كانوا ينتصرون لأبى تمام .

فأنت ترى أن كل هذا العصر الأدبى الذهبى عند العرب كان مملوءاً بالاختلاف بين القدماء والمحدثين ، وليس عليك إلا أن تنظر فى كتب الأدب على اختلافها ، لترى هذا المقدار الموفور من الكلام الكثير الذى قيل وقيل فى الانتصار للشعراء ، وتفضيل بعضهم على بعض ، سواء منهم أبناء الجيل الواحد والذين اختلفوا جيلا وعصراً . ولكن أريد أن أعلم فيم كان الاختلاف عند العرب بين القدماء والمحدثين ؛ وما نتائجه الكبرى ؟

الحق أنى أكاد أعلم ذلك ، فقد كان الخلاف قبل كل شىء فى اللفظ ، ثم فى المعنى ، ثم لم يتجاوز هذين الأمرين .

كان القدماء والمحدثون أيام بنى أمية يختلفون فى اللفظ اختلافاً ظاهراً ، وكانوا يتخذون اللفظ مقياساً لجودة الشعر ، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة ، وكلما كان رصيناً يملأ الفم ويهز السمع كان الشعر جيداً ، أى إن جزالة اللفظ ، وشدة القرب بينه وبين ألفاظ البادية فى العصر الجاهلى كانت هى المزية الأولى للشاعر ، ثم تأتى بعد ذلك جودة المعنى والتعمق فيه .

ثم ظهر هذا الخلاف بعينه فى أول العصر العباسى ، فاختلف الشعراء العباسيون ، واختلف معهم الأدباء واللغويون فى أى الشعرين أجمل وأرقى وأحسن : الشعر الذى يحتذى شعراء الجاهلية والإسلام فى متانة اللفظ ورصانته وبداوته ، أم الشعر الذى يتخير الألفاظ السهلة العذبة التى ألفها الناس عامة ، لا علماء اللغة خاصة ؟

وظهر إلى جانب هذا خلاف آخر فى المعنى فاختلف الشعراء فى معانى الشعر : أتبقى كما كانت بدوية أعرابية ، أم تتحضر كما تحضر الناس ؟ أتصف الأطلال والخيام والصحراء والإبل والخيل والسلاح ، أم تعدل عن هذا كله إلى القصور والأنهار والرياض والمدن ؟ ثم أتتناول الشعور الإنسانى فتصفه

لا كما يشعر به الناس فى بغداد ودمشق والبصرة والكوفة ومصر ، بل كما كان يشعر به الأعراب فى باديتهم وصحرائهم ، أم تتناول هذه المستحدثات الحضرية والمستطرفات التى لم يعهدها الأعراب ؟ وعلى الجملة أيعيش الشعراء عصرهم الذى هم فيه ، أم يعيشون عصور الآباء والأجداد ؟

ظهر هذا الخلاف ، وكان أشد أنواع الخلاف إنتاجاً وأكثرها خصباً ، لأن أنصار الجديد — وعلى رأسهم أبو نواس — أقدموا غير خائفين ولا وجلين ، فوصفوا لنا الحياة الجديدة دقيقها وجليلها ، مفصلها ومجملها ، فجددوا الشعر من ناحية ، ونفعوا التاريخ من ناحية أخرى . وكان هذا كل ما عرف العرب من اختلاف فى الشعر بين القدماء والمحدثين :

اختلاف فى اللفظ نشأت عنه مدرسة مسلم بن الوليد التى أخرجت أبا تمام والمتنبى وأمثالهما من أصحاب البديع ، واختلاف فى المعنى نشأت عنه مدرسة أبى نواس التى أخرجت البحترى وغيره من أولئك الشعراء الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد ، ولم يتكلفوا بديعاً ولا استعارة ولا جناساً .

هذا كل ما عرف أهل الشرق العربى من اختلاف بين القدماء والمحدثين وهذا كل ما أنتجه الخلاف ، وهو على خطره ليس بالشىء الكثير ، فلم يتغير الشعر العربى فى موضوعه ولا فى صورته ولا فى نوعه ، ولم يتغير فى لفظه ومعناه إلا تغيراً قليلا جداً . بقيت القصيدة كما كانت معتمدة على وحدة القافية والوزن غير معنية بوحدة المعنى ، وبقى موضوع الشعر كما كان مدحاً وهجاء ورثاء ووصفاً وغزلا ، وإنما تجددت هذه الموضوعات دون أن تتغير ، ولم يكن تجددها جوهرياً ولا مطرداً ، وإنما هو التجدد الذى يكفى ليشعرك بالفرق بين العصر القديم والعصر الجديد ، وقد مضت القرون وتعاقبت ، والشعر العربى فى لفظه ومعناه وصورته وموضوعه كما كان قديماً ، لم ينله من التغير والتطور إلا هذا المقدار الضئيل الذى أشرنا إليه .

ولقد يكون من الخير أن نعرف العلة ، وأن نتبين الأسباب القوية التى أكرهت الشعر العربى المحافظ على أن يتطور قليلا ، ولعلنا نستطيع أن نحدثك عن ذلك فى الأسبوع الآتى .

القدماء والمحدثون (١)

رأينا فى الأسبوع الماضى أن الآداب العربية ، قد أخذت بحظها من هذه الظاهرة العامة التى تشترك فيها الآداب الحية جميعاً : ظاهرة الخلاف بين القدماء والمحدثين ، ورأينا أن حظ الآداب العربية من هذا الخلاف على عظمه وكثرة الكلام فيه ، لم ينتج لهذه الآداب شيئاً كثيراً فى الشعر على أقل تقدير ، وسنعرض للنثر فى غير هذا الفصل .

لم ينتج شيئاً كثيراً ، فظل موضوع الشعر كما كان ، لا يكاد يتجاوز المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف وما يتصل بهذه الموضوعات ، وظل شكل الشعر كما كان ، لم يخترع فيه شكل جديد ، ولم تضف إليه صورة طريفة ، وإنما بقيت القصيدة مظهراً للشعر محتفظة بأوزانها وقوافيها .

وإذن فلم يحدث تطور الأمة العربية ولا اشتداد الخلاف بين القدماء والمحدثين شيئاً ذا خطر فى موضوع الشعر أو شكله كما يقول أهل القانون ، وإنما أحدث شيئاً جديداً فى لفظ الشعر ومعناه كما قلنا فى الفصل الماضى ، وربما اضطررنا إلى أن نقول اليوم أيضاً إن هذا الشىء الجديد كان أقل جداً مما كنا ننتظر ؛ فإن الحياة العربية تطورت فى القرن الأول والثانى للهجرة تطوراً يوشك أن يكون كاملا ، بل قد لا نخشى الغلو إن قلنا إن هذه الحياة العربية تبدلت فى هذين القرنين تبدلا تاماً ؛ فكان من المعقول أن يتحقق التناسب الصحيح بين هذه الحياة الجديدة وبين الآداب ، فتتجدد هذه الآداب كما تجددت الحياة نفسها .

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فبينما كانت الحياة فى بغداد أبعد ما تكون عن الحياة فى صحراء جزيرة العرب من كل وجه ، كان الشعر الذى ينشد فى بغداد شديد القرب جداً من الشعر الذى كان ينشد فى تلك الصحراء .

وإذن فنحن بإزاء ظاهرتين لا بد من تفسيرهما : الأولى أن الحياة العربية

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ — ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٢ .

قد تطورت تطوراً كاملا ، وأن الشعر العربى قد تطور معها تطوراً ما ؛ والأخرى أن تطور الشعر لم يكن مناسباً لتطور الحياة فى جميع فروعها .

وربما لم يكن من العسير جداً تفسير هاتين الظاهرتين ، ذلك أن الأمة العربية قد خضعت خصوعاً تامًّا لمؤثرين مختلفين اختلافاً تامًّا ، فبينما كان أحدهما يدفعها دفعاً قويًّا إلى الأمام فتندفع ، كان الآخر يجذبها جذباً قويًّا إلى الوراء فتنجذب . كانت تندفع إلى الأمام اندفاعاً قويًّا فى الحضارة المادية ، يمثل قوته هذا الفرق الظاهر بين قصور بغداد وحدائقها ورياضها ، وما تشتمل عليه هذه القصور والحدائق والرياض من مظاهر الحضارة وأدواتها وبين خيام الصحراء وما كانت تتحوى من مظاهر العيش الخشن والحياة الساذجة . وكانت تنجذب إلى الوراء بحكم الدين وبحكم اللغة التى لم تكن كغيرها من اللغات وإنما كانت لغة دينية ، فالاحتفاظ بأصولها وقواعدها والاحتياط فى صيانتها من التطور وآثاره السيئة ، واجب دينى لا سبيل إلى جحوده أو التقصير فيه .

إذن فقد كانت الحضارة المادية تدفع العرب إلى الأمام ، وكانت حياة الدين تجذبهم إلى الوراء ، وكان العقل العربى بطبيعة الحال موضوع الجهاد بين هذين المؤثرين المختلفين فكان يتقدم سريعاً إلى حيث لا يكون تقدمه مصدر شر على الدين أو لغة الدين ، وكان يبطىء فى حركته حين يكون التقدم خطراً على هذه أو ذاك .

ومن هنا كان التناقض ظاهراً بين حياة العرب المادية فى تفصيلها وبين حياتهم الأدبية فى إجمالها ، فكانوا أحراراً فى الحياة المادية ، محافظين فى الحياة الأدبيـــة .

وكان الشعراء الذين يجرءون على أن ينكروا هذه المحافظة ، ويحاولون تحرير الشعر قليلا أو كثيراً ، موضع سخط شديد من طائفة من الناس ليست قليلة الخطر ، ولا ضئيلة الأثر فى الحياة العامة ؛ كان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء من رجال الدين ، لأن هؤلاء الأئمة والعلماء بطبيعة منازلهم الدينية حراص على القديم ، أعداء لكل جديد ، وكان هؤلاء الشعراء

يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء لأنهم بحكم منزلتهم اللغوية ، مضطرون إلى أن يحتفظوا لا بقواعد اللغة وأصولها فحسب ، بل بألفاظها وأساليبها أيضاً ، فكانوا يكرهون كل لفظ دخيل ، وينفرون من كل أسلوب مستطرف . وكانت طائفة غير قليلة من عامة الناس وسوادهم تخضع لأولئك وهؤلاء فيما لا يضرها ولا يؤذيها ، فتستمتع بالحياة المادية ما استطاعت غير سامعة لنهى الفقهاء والوعاظ ، ولكنها تحرص على الاحتفاظ بالسنن الموروثة والعادات القديمة فيما لا يمس الأكل والشرب واللباس والزينة وما إلى هذا من ضروب الحضارة ؛ أضف إلى هذا كله ، أن الأمة العربية بفطرتها حريصة على سنتها القديمة ، محتفظة بما ورثت عن آبائها من مظاهر الحياة العقلية والشعورية، وأن الآداب العربية القديمة فى نفسها جذابة خلابة محببة إلى النفوس مستأثرة بالقلوب ، فكان من المعقول أن يتأثر الشعر بهذا كله ، وأن يكون موقف الشعراء المجددين ، كموقف الفلاسفة المجددين ، ثقيلا شديد الحرج ، وأن يتعرض أولئك وهؤلاء للحبس والضرب والنفى وغير ذلك من ضروب الاضطهاد وألوان العذاب .

ومن الغريب أن هؤلاء الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقون فى العصر العباسى ضروباً من المحن تختلف قوة وضعفاً باختلاف الخلفاء والوزراء ، كانوا محببين إلى هؤلاء الخلفاء والوزراء ، فكثير من هؤلاء الخلفاء ، والوزراء كان يحب شعر بشار ويلذ لشعر أبى نواس ، ومع ذلك فقد ضرب بشار ، حتى مات ، وحبس أبو نواس فى عصر الرشيد كما حبس فى عصر الأمين ، ولو أدركه المأمون لقتله ، مع أن إعجاب المأمون بأبى نواس شديداً جداً .

ومصدر هذا التناقض فى سيرة الخلفاء والوزراء مع الشعراء والفلاسفة أن هؤلاء الخلفاء ومشيريهم كانوا يحيون حياتين مختلفتين : حياة للشعب يحتفظون فيها بجلال الدين ومجده وعظمة الخلافة وقوتها السياسية ، فهم من هذه الناحية محافظون ؛ وحياة لأنفسهم ، ولخلصائهم فى القصور ومن وراء الحجب ، يتركون فيها لأنفسهم حريتها الفطرية ، فيلهون ويلعبون وينادمون ويشربون ويقترفون ضروباً من الآثام .

أضف إلى هذين المظهرين المتناقضين من حياة الخلفاء وكبار الدولة ، أن حياة الشعراء والمفكرين لم تكن حياة شعر وتفكير فحسب ، وإنما كانت تختلط بالمشاكل السياسية وما تستلزمه هذه المشاكل من الكيد والدسائس ؛ فكان الشاعر أو المفكر لا يُفْتَتَنُ لأنه شاعر أو مفكر فحسب ، بل قد يفتن أيضاً لأنه يرى رأياً سياسيًّا لا يراه السلطان ، لأنه من أنصار البرامكة أو من أنصار الفضل بن سهل أو الفضل بن الربيع ، لأنه يرى رأى العلويين ، لأنه يؤثر الفرس على العرب ، إلى آخر هذه المسائل الكثيرة التى نشأت عنها ضروب من المحن أصابت الشعراء والفقهاء والفلاسفة والمفكرين .

كل هذه الأسباب جعلت تطور الأدب عامة — والشعر خاصة — بطيئاً قليل الإنتاج ؛ ولكن هناك سبباً نعتقد أنه هو السبب الأساسى الذى حال بين الشعر العربى وبين ما كان ينتظر له من التجدد ، هذا السبب هو أن الأمة العربية لم تعرف من آداب الأمم الأخرى شيئاً يذكر ، ولم تخالط هذه الأمم الأجنبية من الوجهة الأدبية والعقلية إلا مخالطة ضيقة جدًّا ، فلم تعرف من آثارها إلا شيئاً من العلم والفلسفة ، ونتفاً من الحكم والأمثال ، فجهلت الأمة العربية جهلا تامًّا ، أو جهلا يوشك أن يكون تامًّا ، آداب الأمة اليونانية مع أنها قد أخذت من علم اليونان وفلسفتهم بالنصيب الموفور ، ولم تكد تأخذ عن الفرس إلا الحضارة المادية ، وروايات مشوهة فى الحكم والأمثال ، وسياسة الملوك ، ولم تكد تعلم من أمر الهند إلا شيئاً من النجوم ، وقليلاً من المواعظ والوصايا .

ومن هنا لم يكن أمام الشعراء مثال أدبى جديد يحتذونه ويسعون فى تقليده ومحاكاته ، فظلوا على ما كانوا عليه ، يرددون ما ألفوا من الشعر القديم بأوزانه وقوافيه وبألفاظه ومعانيه ، لا يجددون من هذا كله إلا ما يضطرهم إلى تجديده نوع الحياة الجديدة الذى هم فيه ، وهم فى هذا التجديد القليل نفسه ، مقيدون بما قدمنا من حكم المحافظة الدينية واللغوية والسياسية . وقد علمنا تاريخ الأدب فى جميع العصور وعند جميع الأمم ، أن الحضارة المادية وحدها لا تكفى لترقية الشعر ودفعه فى سبيل التطور المنتج ، وإنما يجب أن تضاف إلى هذه الحضارة

المادية أشياء أخرى أهمها المخالطة الأدبية للشعوب الأجنبية ، فلولا أن الصلات اشتدت بين اليونان وبين غيرهم من الأمم المعاصرة ، لما تطور شعرهم هذه الأنواع من التطور . وكذلك قل إن الرومان مدينون لليونان بتطور آدابهم ، وقل إن الأمم الأوربية مدينة بتطور آدابها لهذه الحركة التي حدثت في عصر النهضة ، فأظهرت الإيطاليين وغير الإيطاليين على آداب اليونان والرومان .

ويطول القول إذ أردنا أن نذكر أثر الاختلاط بين الأمم الأوربية نفسها في الآداب الأوربية الحديثة ، وقد حرم العرب هذا الاختلاط ، فحرم الأدب العربي نتيجته ، وهي التجدد المنتج ، ولهذا لم يعرف العرب من الشعر إلا ما ورثوا عن أهل البادية ، فجهلوا الشعر القصصي ، والشعر التمثيلي ، وجهلوا من الشعر الغنائي نفسه فنوناً كثيرة وضروباً مختلفة ، ومع هذا كله فقد تطور الشعر العربي ، وتجدد تجدداً ما ، فيجب علينا أن نعرف ما حقيقة هذا التجدد وما قيمته ، وأين يوجد الفرق الواضح القوى بين الشعر العربي الجديد والشعر العربي القديم ، وموعدنا بهذا الفصل الآتي .

القدماء والمحدثون [1]

تجدد الشعر فى العصر الأموى — الغزل الإباحى —
الغزل العفيف — الشعراء المتوسطون بين هذين الفنين .

نظلم العصر الأموى ، ونظلم معه تاريخ الأدب العربى ، إن زعمنا أن التجديد الذى تناول لفظ الشعر ومعناه ، إنما حدث فى العصر العباسى خاصة ، فإن العصر الأموى قد كان عصر تجديد أيضاً ، بل قد كان عصر تجديد قوى ظاهر فى اللفظ والمعنى .

وربما كان عصر الأمويين من هذه الناحية أخصب وأكثر إنتاجاً من عصر العباسيين ، فقد حاول الشعر فى هذا العصر أن يتجدد لا فى لفظه ومعناه فحسب ، بل فيهما وفى الموضوع أيضاً ، ولكن هذه المحاولة لم توفق توفيقاً تامًّا ، لأن عصر الأمويين لم يطل ، ولأنه لم يكن عصر ثبات واطمئنان ، وإنما كان عصر تحول وانتقال ، وكان من الممكن أن يتمم العصر العباسى ما بدأه العصر الأموى من تجديد موضوع الشعر ، ولكنا سنرى فى غير هذا الفصل أن هذا لم يتح للشعر العربى ، لأن العصر العباسى سلك بالأمة العربية طريقاً جديدة ، مغايرة مغايرة شديدة للطريق التى سلكها العصر الأموى .

لم يكد يمعن المسلمون فى الفتح وبسط سلطانهم على أرض الفرس من جهة ، والروم من جهة أخرى ، حتى تغير كل شىء فى حياة الطبقة العليا من الأمة العربية ، وكان مصدر هذا التغير شيئين : أحدهما مادى ، وهو كثرة ما أفاء الله على المسلمين ، فى هذا الفتح والتغلب ، من المال والغنائم الموفورة ، التى بدلت حياة هؤلاء الناس ، فجعلتها يسيرة بعد عسر ، سهلة بعد صعوبة ، لينة ناعمة بعد شدة وخشونة . والآخر معنوى ؛ فقد رأى العرب فى هذه البلاد المفتوحة نظماً للحكم والسياسة لم يألفوها ، وطرقاً للإدارة وتدبير الأمور

(١) نشرت بالسياسة فى ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ — ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢ م .

العامة لم يعهدوها من قبل ، فتأثروا بما رأوا من ضروب الحياة السياسية أيضاً ، ونتج عن هذا التأثر المزدوج ، أن استبدل العرب بالخيام دوراً وقصوراً فيها ضروب الترف واللذة ، وحاولوا أن يستبدلوا بالخلافة التى كانت بدوية فى كل شىء ملكاً حضرياً فى كل شىء ، وما لبثوا أن وفقوا إلى الأمرين جميعاً .

ولم يكن بد من أن يترك هذان الأمران آثاراً ظاهرة قوية فى حياة العقل والشعور ، فإن الحضرى يشعر ويفكر بطريقة تخالف طريقة البدوى فى شعوره وتفكيره . وكذلك يشعر الرجل الغنى المنعم الذى لا تشرق عليه الشمس إلا اشتد طمعه فى اللذة والنعيم ، بغير ما يشعر به الرجل الفقير المعدم الذى أخذ نفسه بضروب الصبر والقناعة واحتمال الشدة والمشقة .

ثم إن الأمة العربية كانت أمة ذات عصبية شديدة ، فلم تكن تنقاد بطبيعتها لزعيم ، أو تذعن لسلطان ثابت الملك ، وإنما كانت قبائل وشعوباً ، ترى كل قبيلة من نفسها السيادة والسلطان ، وكان هناك دين جديد يحاول أن يمحو هذه العصبية أو أن ينظمها فيؤسس الخلافة ، وكانت هناك فكرة جديدة تحاول أن تمحو هذه العصبية أو تنظمها فتؤسس الملك مكان الخلافة .

ومن هنا كان تجدد الشعر ملائماً كل الملاءمة لتجدد الحياة ، فنشأ عند العرب فى عصر بنى أمية نوعان من الشعر لم يكن قد ألفهما الجاهليون ، أو على أقل تقدير لم يكن هؤلاء الجاهليون قد أحسنوا فهمها والعناية بهما: الأول نشأ عن حياة الترف والغنى والثروة ، وهو « الغزل » وليس ينبغى أن يقال إن الغزل فن قديم عند العرب ، فنحن نعلم ذلك ولا نشك فى أن الشعراء الجاهليين جميعاً قد تغزلوا وشببوا ووصفوا النساء ، وإنما نريد أن فناً جديداً قد نشأ فى هذا العصر لم يكن موجوداً من قبل ، وهذا الفن هو الغزل يقصد لنفسه ، لا ليتخذ وسيلة لشىء آخر ، هو فن الحب من حيث هو حب ، هو الفن الذى يعنى به شاعر قد فرغ من كل شىء ، فحياته المادية ميسرة ولذاته موفورة عليه ، فكل ما يعنيه هو أن ينعم بهذه اللذات ، وأن يفنيها فى شعره ، لا أكثر ولا أقل .

ومن الظاهر أن الجاهليين لم يعرفوا هذا الفن ولم يتذوقوه ، فلسنا نعرف في العصر الجاهلي شاعراً قصر شعره على الغزل ، وحياته على الحب والغرام ، وإنما كان الغزل كغيره من فنون الشعر ، أو بعبارة أصح : كان وسيلة إلى غيره من فنون الشعر ، كان العرب يبدءون قصائدهم — مهما يختلف موضوعها — بوصف الطلول والنساء ، كما كان اليونان يستهلون قصائدهم بمناجاة آلهة الشعر . وقلما كان الشاعر العربي قبل الإسلام يقصر قصيدة بأسرها على الغزل .

وليس الأمر كذلك في عصر بني أمية ؛ فقد نرى في هذا العصر شعراء يتخذون الغزل لنفسه صناعة وفنًّا مختاراً ، لا يتكلفون غيره ولا يعنون بسواه ، فهم لا يمدحون ولا يهجون ، وإنما حياتهم وصف النساء وما تبعث النساء في أنفسهم من عواطف وأهواء وميول ، فإن طلبت إليهم القول في شيء غير هذا أعرضوا أو عجزوا .

وفي الحق أن هذا الفن الجديد كان مختلفاً متنوعاً في هذا العصر باختلاف الشعراء ، واختلاف ضروب الحياة التي كانوا يحيونها ، فكان هناك شعراء يتخذون الغزل صناعة يصفون به لذاتهم وأهواءهم وافتنانهم فيما يتذوقون من نعيم الحياة ، وزعيم هؤلاء الشعراء « عمر بن أبي ربيعة » ذلك الذي أقام بمكة فاتخذ كل شيء وسيلة إلى وصف المرأة والتغزل بها ، ولم يكتف بالوصف والقول ، وإنما أضاف إليهما حياة عملية فيها شيء من اللذة والترف كثير ، وكان هناك شعراء آخرون لا يقصدون إلى وصف اللذات وما تستتبعه ، وإنما يقصدون إلى شيء آخر ، يقصدون إلى وصف العواطف الحارة الصادقة ، التي تعذب صاحبها وتعنيه دون أن تتيح له لذة مادية ما ، وإنما اللذة الوحيدة التي يجدها ، والتي هو بها كلف وعليها حريص ، هي لذة الألم بأنه يحب ، ويحب من لا سبيل إلى وصله أو التقرب إليه ، وزعيم هؤلاء الشعراء « جميل » الذي أمضى حياته ، وقصر شعره على حب « بثينة » ، لا يطمع من هذا كله بشيء إلا الشعور بأنه يحب وبأن حبه لا حد له ، وبأن هذا الحب يضنيه ويعنيه ، وبأنه يجد في هذا الألم والعذاب لذة لا تعدلها لذة بل

كان يطمع فى شىء آخر ، وهو أن تحس صاحبته ما يدخر لها من حب وما يلقى فى سبيلها من ألم .

كان « عمر بن أبى ربيعة » زعيم المتغزلين الإباحيين ، وكان « جميل » زعيم المتغزلين العذريين ، وكان بين هذين الرجلين المتناقضين ، شعراء يتوسطون فى الأمر فيبيحون أحياناً ويعفّون أحياناً أخرى ، وربما كان كلفهم بالفن الشعرى والإجادة فيه ، أشد من كلفهم باللذة لأنها لذة ، أو بالعفة لأنها عفة ، فلم يكن أحدهم يعنيه أن يقال إنه ماهر فى تذوق لذات الحياة أو إنه عفيف حقّاً مثال للعفة وطهارة القلب ، وإنما كان يعنيه أن يقال : لقد تغزل فأجاد الغزل ، وشبب فأحسن التشبيب ، وهؤلاء الشعراء كثيرون ، ولكن جمهورهم لم يقصر حياته الفنية على الغزل وحده ، وإنما تناول مع الغزل فنوناً أخرى . ومن هؤلاء الشعراء « كثيِّر » الذى تغزل فأكثر الغزل ، واتخذ لنفسه صاحبة كانت هى مصدر حبه الغرامى وهى « عزة » ، ولكنه مدح وارتزق من شعره . ولست أشك — والرواة لاينكرون ذلك — أن كثيِّراً لم يكن صادق الحب ولا عفيفه ، وإنما كان يتخذ الغزل صنعة ، ويقفو فيه أثر أستاذه جميل .

ولقد راج هذا الفن الجديد فى عصر بنى أمية رواجاً ظاهراً جدّاً ، نشأ عنه أن كلف به الشعب ، فأضاف إلى حياة جميل وكثير وعمر ما ليس منها ، واخترع شعراء ربما لم يكونوا قط ، وألف لهم فصولا من الحياة الغرامية ربما لم يعرفها التاريخ ، ونظم على لسان هؤلاء الشعراء الخياليين قصائد ومقطعات ربما لم يثق بصحتها الرواة ، فمن ذلك حياة « قيس بن الملوح » « وليلاه » ومن ذلك هذه الأخبار الكثيرة المسرفة التى تضاف إلى « قيس بن ذريح » و « لبناه » .

ثم تكلف الشعراء الحقيقيون المبالغة فى هذا الفن ، واختراع المواقف الحرجة المعضلة التى ليس لها حل وليس منها مخلص ، ولعل أحسن مثال لهذا التكلف هذان البيتان اللذان يضافان إلى ليلى الأخيلية :

وَذِى حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لاَ تَبُحْ بِها   فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيِيتَ سَبِيلُ

لَنَا صَاحِبٌ لاَ يَنْبَغِى أَنْ نَخُونَه   وأَنْتَ لِأُخْرَى صَاحِب وحَلِيلُ

فانظر إليها كيف اخترعت هذا الموقف العسير ، موقف عاشقين كلفين ، ليس إلى وصالهما سبيل ، لأن كليهما متزوج ، ولأن كليهما وفيٌّ عفيف .

لا أشك فى أنك ستقول ليس فى هذا الموقف شىء من الغرابة ، فقد كانت ليلى متزوجة وكان « توبة » متزوجاً ، وليس غريباً أن يكون كلاهما وفيًّا عفيفاً ، لا أشك فى أنك ستقول هذا ، وقد أقوله أنا أيضاً ، ولكنى لا أدرى لماذا أميل ميلا قويًّا جدًّا إلى اعتقاد أن هذا الموقف موقف فنى اخترعته الشاعرة لتجيد فى الفن ، فهو إلى الشعر أقرب منه إلى الحياة الواقعة .

ومهما يكن من شىء ، فقد نرى أن هذا الفن الجديد قد عظم شأنه عند العرب فى هذا العصر ، واختلفت مذاهب الشعراء فيه ، فذهب بعضهم فيه مذهب اللذة ، وذهب الآخرون فيه مذهب العفة .

وربما كان من الخير أن نلاحظ أن الذين ذهبوا مذهب اللذة فى هذا الفن كانوا المترفين من أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار ، الذين ورثوا الثروة الطائلة الضخمة عن آبائهم ، وحيل بينهم وبين العمل السياسى لأمر ما .

ومن هنا كانت مكة والمدينة — فى هذا العصر — أقرب إلى اللهو والمجون والافتتان فى اللذة ، وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل ، من دمشق عاصمة الملك ومستقر الخليفة ؛ وإن الذين ذهبوا مذهب العفة وأسرفوا فى هذا المذهب كانوا من أهل البادية ، بل إن الشعراء الذين اخترعوا — ولم يعرفهم التاريخ — كانوا أيضاً يخترعون فى البادية ، وكانت عشيقاتهم من نساء البادية أيضاً ، ولقد يكون من العسير تعليل هذا فنحن نعلم من أخلاق العرب البادين أنهم إلى المادة والإباحة ، أقرب منهم إلى هذه الحياة العذرية .

وإذن فقد يحسن أن نفترض أن شعوراً جديداً قد أخذ فى هذا العصر يستأثر بالنفوس العربية ، وأن هذه النفوس قد خضعت فى هذا العهد الجديد لنزعة جديدة هى الطموح إلى المثل الأعلى والسمو إلى حياة عقلية وشعورية جديدة راقية لم تكن معروفة من قبل ، ولكن هذا افتراض لم أوفق إلى تحقيقه بعـــد .

على أن الشعراء الآخرين الذين كانوا يمثلون السنّة الموروثة ، ويذهبون مذهب الجاهليين فيمدحون ويهجون ويصفون ، قد تأثروا بهذا الفن الجديد ، فمع أن حياتهم الشعرية لم تكن مقصورة على الغزل ، فإن هذا الغزل نفسه قد رق ولطف فى شعر الفرزدق وجرير والأخطل حتى أصبح الفرق بينة وبين غزل الجاهليين ظاهراً بيناً ، فقليلا ما تجد فى شعر الجاهليين غزلا يقارب فى عذوبة اللفظ وسحره ، وفى لطف المعنى ودقته . وقول جرير :

إنَّ الذِينَ غَدَوْا بِلبِّكَ غَادَرُوا وَشَلا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
غَيَّضْنَ من عَبَرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا

فانظر إلى هذا الشطر الأخير « ماذا لقيت من الهوى ولقينا » . انظر إلى جمال لفظه وسهولته وخفته على السمع ، وحسن موقعه من النفس ، وانظر إلى دقة معناه ولطفه ، وإلى سعة هذا المعنى التى لا حد لها ، والتى عجز الشاعر عن أن يستقصيها ، وأراد أن يشعرك بهذا العجز ، فعمد إلى الاستفهام « ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟ » شىء ليس إلى وصفه ولا إلى تحديده من سبيل ، فهذا هو الفن الأول الذى استحدث فى الشعر العربى أيام بنى أمية ولنختصر . . . .

نشأ عند العرب فن جديد هو الغزل ، ذهب فيه الشعراء مذهبين مختلفين « مذهب اللذة » ورافع لوائه « عمر بن أبى ربيعة » ومذهب العفة ، ورافع لوائه « جميل بن معمر » . ومضى بين هذين المذهبين الشعراء الآخرون ، فمنهم من اتخذ الغزل صنعة وفنًّا فحذا حذو أولئك أو هؤلاء ، ومنهم من سلك مسلك الشعراء الجاهليين فتناول فنون الشعر كافة ، ولكن غزله تأثر بمذهب الفن الجديد فرق لفظه وسهل . ودق معناه ولطف .

أما الفن الآخر الذى استحدث أيام بنى أميه فهو « الشعر السياسى » ، وقد نشأ عن استحالة الخلافة إلى ملك ، وعما كان من حرب بين العصبيات من جهة ، ومن حرب بين العصبية والدين من جهة أخرى ، ولعل من الخير أن نرجىء بحث هذا الموضوع إلى حديث الأسبوع الآتى . . .

القدماء والمحدثون [1]

تطور الشعر فى العصر العباسى – أسبابه
العامة – نموذج من نماذج هذا التطور .

رأينا أن تطور الشعر فى عصر بنى أمية كان قوياً منتجاً من بعض الوجوه ؛ فقد تناول اللفظ والمعنى وأحدث فنين جديدين : فن الغزل وفن الشعر السياسى وقلنا فى آخر الفصل الماضى : إن تغير الحياة العربية أيام بنى العباس أثر فى حياة الشعر تأثيراً ظاهراً ، فمحا الفن السياسى محواً ، وحوّل الغزل عن طريقته الأموية .

وفى الحق أن الشعر قد سلك فى أيام بنى العباس طريقاً تكاد تخالف كل المخالفة طريقة أيام بنى أمية . فنشأت معان جديدة . وذهب الشعراء مذاهب مختلفة فى وصف هذه المعانى والتعبير عنها ، ونشأ عن هذه المذاهب المختلفة ضروب من التصرف فى فنون القول والاختيار بين ألوان الكلام . ذلك أن الحياة فى عصر بنى العباس كانت جديدة من كل وجه ، فانقطعت الصلة شيئاً فشيئاً أو كادت تنقطع ، بين هذه الحضارة البديعة التى كانت تزدهر فى بغداد وضواحى بغداد ، وبين هذه البداوة القاسية الخشنة التى كانت تبسط سلطانها على بلاد العرب ، فبينما كانت دمشق ، على حضارتها أيام الأمويين ، ملتقى للجديد والقديم ، وبينما كان الحضرى الخالص يستطيع أن يعيش فيها عيشة راضية مطمئنة ، وكان البدوى المغرق فى البداوة يستطيع أيضاً أن يعيش هذه العيشة وكان كلاهما يستطيع أن يفهم صاحبه بدون مشقة أو عناء . وبينما كان الخلفاء من الأمويين على ضخامة ملكهم وسلطانهم ، وعلى كثرة ثروتهم وغناهم ، وعلى تذوقهم أنواع الترف واللذة ، بادين فى لغتهم وسيرتهم الظاهرة ، بينما كانت دمشق وأهلها على هذه الحال ، كانت بغداد على حال تخالفها كل المخالفة ، فهى مدينة بنتها الحضارة الجديدة ، وبنتها فى أرض قد بعد عهدها

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ – ٢ يناير سنة ١٩٢٣ .

بالبداوة ، واختلفت عليها الحضارات الكثيرة ، وأتاحت لها الطبيعة من خصب الأرض وثرائها واعتدال الإقليم وصفاء الجو ، ما يجعل الحضارة سهلة ميسورة مستعدة للرقى والنمو فى وقت سريع ؛ فليس عجيباً أن يأنس إليها أهل الحضر وينفر منها الأعراب ومن يشبه الأعراب من الذين لم تصقلهم الحضارة ، ولم يبعد عهدهم بالنعيم .

كان الحضرى يأنس إلى بغداد ، وكان البدوى ينفر منها وينكر نفسه فيها ، ولم يكن خلفاء بنى العباس يحبون البادية ولا يحنّون إليها ولا يتكلفون فى قصورهم عيشة أهلها ، وإنما قطعوا بينهم وبين هذه العيشة كل صلة ، واتخذوا لأنفسهم من ملوك الفرس مُثُلا يحتذونها فى ضروب الحياة ، ولم يحيطوا أنفسهم بالقواد والمشيرين من زعماء العرب ورؤساء القبائل كما كان يفعل الخلفاء من بنى أمية ، وإنما استوزروا الفرس واستشاروهم ، وقصروا أو كادوا يقصرون عليهم قيادة الجيش ومناصب الدولة ؛ فليس غريباً أن تكون بغداد غير دمشق والعراق غير الشام ، وليس غريباً أن ينشد فى بغداد والعراق شعر يخالف ما كان ينشد فى دمشق والشأم .

على أن الحياة السياسية نفسها تغيرت فى هذا العصر تغيراً شديداً مختلفاً ؛ فكان السلطان الفعلى للفرس كما قدمنا ، وكانت الحكومة المركزية فى بغداد قوية شديدة البطش ممتدته فى الأمصار والأقاليم ، ومن قوة الحكومة المركزية وامتدادها نشأ شىء من ضيق الحرية قضى على النزعات الحزبية القديمة ، وأكره الشعراء على أن يتركوا السياسة لأهل السياسة ، فانمحى هذا الفن الذى أزهر أيام بنى أمية ولم يخلفه فى الشعر فن جديد .

وهنـــاك تغير آخر شديد الخطر وهو تغير الحياة العقلية ، فقـــد اشتد الاختلاط بين الأمة العربية وغيرها من الأمم الأخرى التى سبقتها إلى الحضارة ، فلم يقف هذا الاختلاط عند المحاورة والمعاشرة والحديث والتقليـــد ، وإنما تجاوز هذا كله إلى ما هو أشد منه وأقوى أثراً فى الحياة المادية والمعنوية : تجاوزه إلى الإصهار والتوالد من جهة ، وإلى الاختلاط العقلى الخالص من جهة أخرى ؛ فنشأت أجيال ورثت إلى المزاج العربى المزاج الفارسى أو غير

الفارسى ، ونقلت إلى هذه الأجيال آثار الفرس والهند واليونان فى الحكمة والموعظة ، وفى الفلك والنجوم ، وفى السياسة والأخلاق وفى العلم والفلسفة. فلا جرم ، كان هذا كله مصدر تغير قوى شديد فى حياة النفس العربية ، أنتج أدباً لم تنتجه تلك الحياة البدوية الخالصة فى الجاهلية وصدر الإسلام ، أو تلك الحياة البدوية المتحضرة فى أيام بنى أمية أنتج أدباً حضرياً خالصاً يعبر عن شعور حضرى خالص ولولا قوة الآداب العربية القديمة وشدة سلطانها على النفوس وقدرتها على المقاومة من جهة ، ولولا أن هذه الأجيال الجديدة لم تقرأ شيئاً من آداب هذه الأمم ، وإنما قرأت آثارها العلمية والفلسفية من جهة أخرى — نقول : لولا هذان الشيئان لاستحال الشعر العربى استحالة أشد وأعظم أثراً وأكثر إنتاجاً من هذه الاستحالة التى نريد أن نتبين حقيقتها ومقدارها فى هذه الفصول : ومهما يكن من شىء فقد كان ما وصفنا من تغير الحياة المادية والسياسية والعقلية فى القرن الثانى للهجرة ، تغيراً للحياة الشعرية ليس إلى إنكاره من سبيل .

ادرس هذا العصر درساً جيداً ، واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجرى فى مجامعهم من حديث ، تدهشك ظاهرة غريبة هى ظاهرة الإباحة والإسراف فى حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم ، ديناً كان هذا القديم أم خلقاً أم سياسة أم أدباً .

فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً ، اضطر الخلفاء من بنى العباس إلى أن يبطشوا بالشعراء والكتاب ، لأنهم اتهموا بهذه الزندقة ، وظهر ازدراء الأدب العربى القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة ، بل ظهر ازدراء الأمة العربية نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله .

وليس يعنينا الآن أن تكون النهضة السياسية الفارسية ، وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير ، وإنما الذى يعنينا أن هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر فى الشعر ظهوراً جعل إنكاره مستحيلا ؛ فيكفى أن كان تقرأ شعر أبى نواس ، وما كان بينه وبين أصحابه وخصومه

من معارضة ومناقضة ، لتعرف مقدار هذا التغير ، ثم إن هذا التغير نفسه قد أنتج نتيجته الطبيعية ، فنهض القديم للدفاع عن نفسه ، واشتد الجهاد بينه وبين الجديد ، وكان هذا الجهاد بالسيف مرة وباللسان أخرى . . . بالسيف حين يتعرض الدين أو السلطان السياسى للخطر ، وباللسان حين لا يتعرض لهذا الخطر إلا الأدب وأساليبه المختلفة .

ولعل من ألذ ما يقرأ عبث أبى نواس بالفقهاء والمحدثين ، وإشفاق الفقهاء والمحدثين من أبى نواس وأمثال أبى نواس . . . لذيذ هذا الإشفاق وذلك العبث ، لأنه ينبئنا باستحالة غريبة فى الحياة العربية ، فقد كان أبو نواس محدثاً روى عنه الشافعى ، وكان مع ذلك فاجراً ماجناً يذيق المحدثين ألوناً من الأذى ؛ كان هؤلاء المحدثون يعظون أبا نواس مرة ، وينكرون عليه فجوره مرة أخرى ، ويشهرون به فى دروسهم مرة ثالثة ، فكان أبو نواس يجد لكل شىء من هذا جواباً ، فيرد الواعظ رداً حسناً فيه شىء من التهديد ، ويهجو من ينكر عليه فيشدد النكير ، ويكذب على من يشهر به ، حتى لقد نظم مرة شعراً اختلق فيه حديثاً رفعه إلى النبى ورواه عن أحد المحدثين المعاصرين ، ثم كتب هذا الشعر وبعث به إلى هذا المحدث المسكين وكان تقياً ورعاً . وروى ابن عساكر أن صاحباً من أصحاب هذا المحدث دخل عليه فوجده يبكى ، فلماسأله عن ذلك قال للجارية : هات الرقعة ، ودفع الرقعة إلى صاحبه ، وهو يقول : انظر إلى الفاسق ! لقد كذب على النبى صلى الله عليه وسلم ، والله ما حدثته بهذا قط .

وكان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون ويقيمون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعبثون فى هذا كما يعبثون فى غيره ، وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الخمر ، ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها . . . ولعلهم أقاموا الصلاة فى مثل هذا الحال يوماً ، وأمهم أحد الندماء ، فغلط وهو يقرأ « قل هو الله أحد » فاستحالت الصلاة من خشوع لله ، إلى استهزاء بهذا الإمام الجاهل ، فقال أبو نواس :

أَكْثَرَ يحْيى غَلَطًا فى قُلْ هُوَ اللهُ أحدْ

وقال العباس بن الأحنف :

قَام طَوِيلاً ساهِياً حتَّى إذَا أَعْيَا سَجَدْ

وقال الحسين الخليع :

يَزْحَرُ فِى مِحْرَابِهِ زَحِيرَ حُبْلَى بولَدْ

وقال الرابع ولعله مسلم بن الوليد :

كَأَنَّمَا لِسَانُهُ شُدَّ بِحَبْلٍ مِنْ مَسَدْ

ومثل هذا ما تحدث به الجاحظ : أن خمسة من الظرفاء ذهبوا إلى دير يبتغون الشراب واللهو ، وإنهم لفى ذلك إذ قام أحدهم يصلى ، وأقبلت دلالة فأخذوا يسألونها عن أمرهم ، فقالت : كم أنتم ؟ قالوا : أربعة ؛ وأهملوا صاحبهم لأنه يصلى ، ولكن هذا الصاحب لم يهمل نفسه فقال : سبحان الله ! وعرفت الدلالة أنهم خمسة . . .

كان هذا العصر إذن عصر شك فى كل شىء ، وعصر مجون وإباحة وتهتك فى الحياة العملية وفى القول أيضاً ؛ ومن هنا نجد فى هذا العصر شعراً كثيراً نستطيع أن نقرأه فى الكتب ، دون أن نستطيع ترديده فى الصف ، بل فى دار الكتب المصرية كتاب فى أخبار أبى نواس ليس إلى نشره من سبيل ، لأن قوانيننا لا تبيحه ، وليس إلى إصلاحه من سبيل لأن هذا الإصلاح يذهب بخير ما فيه .

على أننا نستطيع مع هذا أن نعطيك صورة واضحة من هذا العصر ، دون أن نضطر إلى مثل هذا الفحش إذا روينا لك قصيدة من شعر أبى نواس ، ولم نحذف منها إلا بيتاً واحداً ليس إلى روايته من سبيل ، ولكنا نحب أن نلاحظ أن الشاعر كان يستطيع أن يقول معنى البيت فى غير إثم ولا فحش ، لولا أنه تعمد الإثم ، لأن الإثم والفحش كانا بدع بغداد فى ذلك العصر :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِى فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنى بِالَّتِى كانتْ هِىَ الدَّاءُ

صَفْرَاءُ لاَ تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حجَرٌ مَسَّتهُ سَرَّاءُ

... ...

قَامَت بِإِبْرِيقِهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فَلاَحَ مِنْ وجْهَا فِى الْبَيْتِ لَأْلاءُ
فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الإِبْرِيقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخْذُهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
رَقَّتْ عَنِ المَاءِ حَتَّى مَا يُلاَئِمُهَا لَطَافَةً وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مزَجْتَ بِها نُوراً لَمَازَجَهَا حتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وأَضْواءُ
دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمُ إلاَّ بِمَا شَاءُوا
لِتِلْكَ أَبْكِي وَلا أَبْكِي لِمنْزِلَةٍ كانَتَ تَحِلُّ بِهَا هِنْد وَأَسْمَاءُ
حَاشَا (لِدُرَّة) أَنْ تُبْنَى الْخِيَامُ لَهَا وَأَنْ تَرُوحَ عَلَيْهَا الإِبْلُ وَالشَّاءُ
فَقُلْ لِمنْ يَدَّعِي فِى الْعِلْم فَلْسَفَةً حَفِظْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
لاَ تَحْظُرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امرأً حَرِجاً فَإِنَّ حظْرَكَهُ فِى الدِّينِ إِزْرَاءُ

فانظر إلى هذه القصيدة على قصرها ، كيف تمثل هذا العصر تمثيلا صادقاً ، فليس فيها لفظ واحد غريب ، وإنما ألفاظها كلها مألوفة تجرى على ألسنة الناس جميعاً فى أحاديثهم العادية ، وليس فيها معنى واحد بدوى ، وإنما معانيها كلها حضرية لا تخطر إلا لمن نشئوا فى المدن وامتلأت رءوسهم بما يملأ رءوس أهل المدن من جد ولعب ، بل فى هذه القصيدة بيت ينكر كل العصر القديم وأساليبه الشعرية ، فهو يريد أن يبكى على الخمر لا على الأطلال والدمن :

لِتِلْكَ أَبْكِي وَلاَ أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ كَانَتْ تَحُلُّ بِهَا هِنْدٌ وأَسْمَاءُ

فإذا أردت أن تدرس هذه القصيدة درساً مفصلا ، رأيت هذه الإباحة فى البيت الذى لم نروه ، ورأيت فى آخر القصيدة بيتا يعتز بالدين نفسه فى نصر هذه الإباحة وتأييدها ، فهو يريد أن يكون ماجناً فاسقاً ، وأن يستمتع باللذات على اختلافها دون أن يقنط من رحمة الله ، وهو ينكر على صديقه « النظّام » وأصحابه من المعتزلة تشددهم فى أمر العفو والخطيئة والتوبة ، ويؤثر مذهب أهل السنة الذين يفتحون باب العفو أمام المذنبين ، ذلك لأن شاعرنا وأصحابه يريدون أن يفوزوا بالدنيا والآخرة ، وأن يلهوا فى مقتبل الشباب حتى

إذا أدركهم الكبر تابوا واستغفروا وانتظروا عفو الله . وكان المعتزلة يغلقون على الناس هذا الباب ، فلا عجب إذا انصرف عنهم الشعراء وأهل المجون .

ويقال أن أبا نواس لما حضره الموت اختلف إليه أصحابه ، فأخذوا يعظونه ويلومونه على ما أنفق من عمره فى طاعة الشيطان . وغـــلا بعضهم حتى أيأسه من الآخرة ، فقال : اسندونى ؛ وتكلف النهوض ، وروى حديثاً يضمن له عفو الله .

وقد تحدّث الرواة بعد موته أنه دخل الجنة ، لأن أحدهم رآه فى المنام فسأله عما فعل الله به ، فقال : غفر لى بأبيات قلتها ، وهذه الأبيات فى الزهد والند قالها فى مرض موته ، وزعم الرواة أنها وجدت تحت وسادته ، وسنعرض لها حين نعرض لزهد أبى نواس .

إلى جانب هذا كله فى هذه القصيدة معانى لا يمكن أن توجد ، إلا فى نفسْ من قـــرأ الفلسفة اليونانية وخالط المتكلمين والمتفلسفين ، فانظر إلى قـــوله :

رَقَّتْ عنِ الْماءِ حتَّى مَا يُلاَئِمُهَا لَطَافَةً وَجَفا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ

فهذا أسلوب « النظام » وغير النظام حين كانوا يتكلمون فى الجزء الذى لا يتجزأ ، وفى كثافة الأجسام ولطافتها ، وفيما بينها من ملاءمة ومباينة ، وكذلك قوله « حتى تولد أنوار وأضواء » فلفظ التولد من ألفاظ المتكلمين واصطلاحات المعتزلة بنوع خاص ، والبيت الأخير من هذه القصيدة :

لاَ تَحْظُرِ الْعَفْوَ إنْ كُنْتَ امْرأً حَرِجاً فَإِنَّ حَظْرَكَهُ فِى ٱلدِّينِ إِزْرَاءُ

ليس إلا وضعاً لمذهبين كلاميين أحدهما بإزاء صاحبه : مذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة .

هذه القصيدة إذن تمثل الحياة الشعرية فى بغداد أيام أبى نواس ، ولكنها تمثلها تمثيلا مجملا ، فإذا أردت تفصيل هذه الحياة وأن تتخذ منها صورة بينة تثبت ما قلناه من أن هذا العصر قد كان عصر شك وإباحة ، وجب أن تدرس حياة الجماعات الأدبية فى بغداد والبصرة وهى شىء يشبه « الصالونات الأدبية » (Les Salon Litéraires) فى فرنسا إبان القرن الثامن عشر ، وسنحدثك عن هذا فى الأسبوع الآتى . . .

القدماء والمحدثون [1]

تطور الشعر فى العصر العباسى – الأندية
الأدبية – الشك والمجون .

كان أمر العرب مع الفرس ، كأمر الرومان مع اليونان من وجوه كثيرة ؛ فقد سبق الفرس إلى الحضارة والنظام ، وأخذوا منهما بنصيب موفور ، قبل أن يخضعوا لسلطان الأمة العربية ، فلما جاء الإسلام ، وكان الفتح ، ومكّن الله للعرب فى بلاد الفرس ، كان الجهاد والتغالب بين الحضارة الفارسية والبداوة العربية ، بين اللين والخشونة ، بين الحياة المترفة المعقدة ، والحياة الساذجة الهينة .

لم يكن هذا الجهاد عنيفاً حين كانت الحياة المادية موضوعة ؛ فكل الناس يؤثر اللين على الخشونة ، ويفضل النعمة على البؤس ، ويحرص على أن يستبدل الإثراء بالعدم ، وإنما كان الجهاد عنيفاً بعض العنف حين كانت الحياة العقلية موضوعاً له ، فاشتد النضال بين أنصار العادات العربية القديمة ، والسنن العربية الموروثة ، وأنصار العادات والسنن الفارسية . وكان القرن الأول للهجرة عصر هذا الجهاد ، ولكنه لم يكد ينقضى ، حتى ظهر انتصار الجديد ، وأخذ القديم ينهزم أمامه ، وينحصر فى البلاد العربية الخالصة ، وأخذ سلطان الحضارة يسود بلا شريك ولا منازع ، فى العراق والشام وغيرهما من البلاد التى خضعت للعرب ، وكانت متحضرة قبل وصول العرب إليها . وكذلك كانت الرومان بعد أن أخضعوا اليونان ، فقد فتح الرومان بلاد اليونان فتحاً سياسيًّا ، ولكن اليونان فتحوا روما فتحاً أدبيًّا ، كما قال الشاعر الرومانى هوراس .

انتصرت الحضارة ، واشتدت فيها رغبة العرب من أهل المدن على اختلاف

---

(١) نشرت بالسياسة فى يوم الأربعاء ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ – ١٠ يناير ١٩٢٣ .

طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية ، وكان هذا الانتصار عامًّا ، تناول الحياة المادية والعقليـــة ، وتناول معهما حياة الشعور . ففكر العرب المحدّثون بطريقة تخالف مخالفة شديدة تفكير العرب القدماء ، وعاشوا كذلك فى دورهم وقصورهم عيشة تخالف عيشة آبائهم ، وظهرت عندهم العلوم وضروب الفلسفة ، وتغير لهذا كله حسهم وشعورهم ، فتغير لسان هذا الحس وهذا الشعور ، وهو الأدب ، نثراً كان أو شعراً .

وقد أشرنا فى الفصل الماضى إلى أن أول العصر العباسى قد كان عصر شك واستهتار ، أنكر العقل العربى فيه قديمه ، ولم يشتد اطمئنانه إلى الجديد ، فلم يتخذ لنفسه قاعدة ثابتة فى الحياة ، وإنما عاش من يوم إلى يوم ، فاحتمل الآلام كارهاً ، واستمتع باللذات ، راغبا فيها ، مستزيداً منها ، وكانت هذه اللذات كثيرة مختلفة ، وكانت هذه اللذات ميسرة له ، موفورة عليه ، فكانت هناك لذة الصلات الاجتماعية بين الرجل والمرأة ، ولم تكن هذه المرأة عربية ، وإنما كانت فارسية أو غير فارسية ، ولم يكن الوصول إليها عسيراً ، وإنما كان شيئاً سهلا ميسوراً ، فقد كانت المرأة تباع وتشترى ، وكثيراً ما كانت تنال بالهبة والعطاء .

لم تكن هذه المرأة عربية ولم تكن بدوية ، وإنما كانت أعجمية متحضرة ، قد بعد عهد أهلها وبلادها بالحضارة ، فرقّ طبعها وصفا مزاجها ، وافتنت فى تلطيف الحياة وترفيهها ، وفى اختراع ضروب اللهو وصنوف النعيم ، ولم تكن جاهلة ، وإنما كانت متعلمة ، ومتعلمة تعلماً متقناً ، فقد وجدت فى ذلك الوقت تجارة واسعة عظيمة الإنتاج ، وكان الرقيق موضوع هذه التجارة ، فكان يعلم أحسن تعليم ، ويدرَّب أحسن تدريب على فروع الحياة المختلفة ، ولم تكن هذه المرأة حرة ، محتفظة بكرامتها الشخصية ، حريصة على أن تكون لها منزلة السيدة ، وإنما كانت مبتذلة ممتهنة ، تباع وتشترى ، كما يباع المتاع ويشترى .

وكان العرب مندفعين فى هذا النوع من اللذة ، يستمتعون به فى غير قصد ولا احتياط ؛ وإلى جانب هذه اللذة كانت توجد اللذات الأخرى ،

لذات الطعام ، ولذات الشراب ، ولذات الأثاث ، ولذات اللباس ؛ ثم كانت توجد اللذات العقلية ، كانت تترجم لهم آثار الفرس وآثار اليونان ، فيقرءون ويفهمون ، ويتأثرون فى حياتهم العملية بما يقرءون وما يفهمون ، ولم يكن من شأن هـــذه الآثار المترجمة أن تؤيد سلطان الحياة القديمة ، أو ترغب فيها ، وإنما كانت تصرف عنها ، وتنفر منها ، وتملأ قلوب الناس لها بغضاً ، وعليها سخطاً ، فلا جرم آثر هؤلاء المحدثون من العرب عيشة الفرس وغير الفرس وتفكيرهم ، على عيشة العرب وتفكيرهم ، ووجد هؤلاء الشعراء والكتاب والفلاسفة الذين كانوا يسخرون من كل قديم ، ويحتفلون بكل جديد ، يجهرون بذلك حيناً ويُسرون حيناً آخر ، يأمنون معه دهراً ، ويلقون فى سبيله الموت من وقت إلى وقت . وُجد « مطيع بن إياس » الذى كان لا يبالى أكان عفيفاً أم غير عفيف ، ولا يبالى أكان حراً كريماً نقى العرض ، أم ممتهناً مبتذلا مرذول السيرة ، ووُجد « حماد عجرد » الذى لم يكن يحفل بدين ولا بدنيا ، وإنما كان يأخذ اللذة حيث وجدها ، وينوعها ما استطاع إلى تنويعها سبيلا ، والذى أسرف فى المجون والتهتك ، حتى لامه أبو حنيفه وشهَّر به ، فلم يجد حماد رداً على ذلك إلا هذه الأبيات المشهورة التى يتهم فيها أبا حنيفة بأنه حديث النسك ، وأنه كثيراً ما شاركه فى الإثم والمعصية :

إِنْ كَانَ نُسْكُكَ لاَ يَتِـ ـمُّ بِغَيْرِ شَتْمِى وَانْتِقَاصِى
فَاقْعُدْ وَقُمْ بِى حَيْثُ شِئْـ ـتَ مَعَ الْأَدَانِى وَالْأَقَاصِى
فَلَطَالَما زَكَّيْتَــنِى وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِى
أَيَّامَ نَـأْخُذُهَا وَنُعْـ ـطِى فى أَبَارِيقِ الرَّصاصِ

ووُجد رفيقهما « يحيى بن زياد » الذى كان يقاسمهما حظهما من كل إثم فى القول والعمل ، ثم أدركه الكِبَر ، فتاب وأناب . وظهر « بشار » الذى كان يؤثر النار على الطين ، أى كان يميل إلى دين الفرس القديم ، ويزدرى الإسلام ، والذى مهر فى وصف الفسق والمجون ، حتى حبسه المهدى ، وحتى شكا منه ، إلى الخليفة ، أشراف الناس ، لأنه كان يفسد عليهم نساءهم . ووُجد

« والبة بن الحُباب الأسدى » الذى عرضت منادمته على الرشيد ، فأبى وأشفق ، وأعلن إباءه وإشفاقه فى ألفاظ لا تسمح بنشرها القوانين ولا الأخلاق ، ومصدر هذا الإباء والإشفاق شعر لوالبة ، أعلن فيه بغيه وفجوره ، إعلانا خاف الرشيد عاقبته على نفسه ، فيما ذكر الرواة ، وكان الرشيد مازحاً من غير شك ، ولكنه كان يجل مجلسه عن مثل هذا الشاعر ، الذى لا يستر فسقه . وكان أبو نواس تلميذاً لوالبة بن الحباب هذا ، وعنه أخذ الفسق العملى واللفظى ، بل قل : إنه أخذ عنه الإباحة بأشنع معانيها .

ولقد وجدت بعد هذه الطبقة التى ذكرنا بعض أسمائها طبقة أخرى كانت أشد منها مجوناً ، وأكثر منها فجوراً ، وأقل منها حرصاً على الاستتار ؛ وكان « أبو نواس » من زعماء هذه الطبقة، وكان معه « الرقاشى » « والعباس ابن الأحنف » و« مسلم بن الوليد »و« الحسين الخليع » وغيرهم من الشعراء ، كان هؤلاء الناس لا يستترون فى معصية ، ولا يكفون عن فاحشة ، وكانوا يتنقلون بمعاصيهم وآثامهم بين بغداد والكرخ والبصرة والكوفة والرقة ، كانوا يأخذون اللذة حيث وجدوها ، فإذا أخذوها لم يتركوها حتى تتركهم ، وكانوا لا يخشون فى ذلك خلقاً ولا ديناً ، وربما أصابهم من وقت إلى وقت غضب الخليفة ، فاستتروا حيناً ، أو اضطروا إلى السجن ، حتى ينالهم العفو ، فما هى إلا أن يستأنفوا سيرتهم الأولى . ومن هذا قصة منتحلة — فيما أعتقد — ولكن لها قيمتها التاريخية لأنها تمثل رأى هذه الطبقة فى الخلفاء .

روى عن أبى نواس أنه قال : لما حبسنى الأمين رأيت بشاراً فى المنام ، فقال لى : بماذا حبسك هذا الغلام ؟ (يعنى الأمين) ، قلت : بقولى :

أَلاَ فَاسْقِنِى خَمْرًا وَقُلْ لِى هِىَ الخَمْرُ ۝ وَلاَ تَسْقِنِى سِرًّا إِذَا أَمْكَنَ الجَهْرُ

فقال : أو يحظر عليك شيئاً وهو يجاهر به ؟ هلا بدأ بنفسه ، لعن الله من نقل إليهم الملك ؛ فقلت : فبماذا حبسك جده المهدى ؟ قال بقولى :

قَاسِ الْهُمُوم تَنَلْ بِهَا نُجُحَا ۝ وَاللَّيْلَ إِنَّ وَرَاءَهُ صُبُحَـا

عُسْرُ النِّساءِ إِلَى مُيَاسَرَة ۝ والصَّعْبُ يَسْلَسُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

قلت : فيم أفرج عنك ؟ قال بقولى :

يَا مَنْظَرًا حَسَناً رَأَيْتُهْ ... مِنْ وَجْهِ جَارِيَةٍ فَدَيْتُـهْ
وَمُخَضَّبٍ رَخْصِ البَنَا ... نِ بَكَى عَلَىَّ وَمَا بَكَيْتُـه
بعَثَتْ إلىَّ تَسُومُنِى ... بُرْد الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهْ
وَٱللهِ رَبٌّ سَرِيرَتِى ... مَا إنْ صَبوْتُ ولاَ نَوَيْتُه
أَعْرِضْتُ عَنْكِ ورُبَّمَا ... عَرَضَ الْبَلاَءُ وَمَا أَتيْتُه
إنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ أَبَى ... وَإذَا أَبَى شَيْئاً أَبَيْتُـه
وَنَهانِىَ الْمَلِكُ الْهُمَـا ... مُ عَنِ النِّسَاءِ فَمَا عصَيْتُه
لاَ بَلْ وَفَيْتُ وَلَمْ أضِعْ ... عَهْدًا وَلَا رَأْياً رَأَيْتُـه

وبقولى أيضاً :

وَاللهِ لَوْلاَ رِضَا الْخَلِيفَةِ مَا احْـ ... تَمَلْتُ ضَيْماً عَلَىَّ فِى شَجَنِى
قَدْ عِشْتُ بَيْنَ الرَّيْحَانِ والرَّاحِ وَالمِزْ ... هَرِ فِى كلِّ مَجْلِسٍ حَسَنِ
ثمَّ نَهَانِى المَهْدِىّ فَانْصَرفَتْ ... نَفْسِى صَنِيعَ المُوَفَّقِ اللَّقِنِ

فانتبهت وقد حفظت الأبيات ، وبشار أمامى فقلت :

أَعَاذِلَ أَعْتَبْتُ الإمام وأَعْتَبَا ... وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِى الضَّمِيرِ وأَعْرَبَا
وَقُلْتُ لِسَاقِيهَا أَجِزْهَا فَلَمْ أَكُنْ ... لِيَأْبَى أَميرُ المُؤْمِنِينَ وَأَشْربَا

وقلت أيضاً :

أَطِعِ الْخَلِيفَةَ وَٱعْصِ ذَا عَزْفِ ... وَتَنَحَّ عَنْ طَرَبٍ وَعَنْ قَصْفِ

فصارت هذه الأبيات إحدى منجياتى ، وكان الشيخ بشار سببها . ولا تنس أن الأمين الذى حبس أبا نواس كان ينادمه ، وكان أبو نواس به كلفاً . ويقال إن الرشيد كان قد كلف الكسائى تأديب الأمين ، وكان أبو نواس صديقاً للكسائى ، فقال له أبو نواس يوماً : أحب أن أقبِّل الأمين .

فجزع الكسائى لذلك ، وأشفق منه ، وألح فيه أبو نواس ، ولم يكتف بالإلحاح ، بل أنذر وصنع هذين البيتين ، وأظهر أنـه سيرفعهما إلى الرشيد ، وهما :

قُلْ لِلْإِمَامِ جزَاهُ ٱللهُ صَالِحَةً ... لاَ يجْمَعِ الدَّهْرَ بَيْنَ السَّخْلِ وَٱلذِّيبِ

السَّخْلُ غِرٌّ وهَمُّ ٱلذِّيبِ غَفْلَتُهُ ... وَٱلذِّيبُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّخْلِ مِنْ طِيبِ

فاشتد جزع الكسائى ، واحتال لأبى نواس ، فقال له : أطل الغيبة ، ثم أقبل كأنك قادم من سفر ، فأعانقك ، ويعانقك الأمين فتقبله ! ففعل أبو نواس ، ثم خرج ، فقال فى ذلك شعراً .

فهذا القليل الذى رويته لك ، والذى ليس هو شيئاً يذكر بالقياس إلى ما تستطيع أن تقرأه فى كتب الأدب المختلفة ، يبين لك إلى أى حد وصل هؤلاء الناس فى هذا العصر من المجون والتهتك والاندفاع فى الحرية ، والاستمتاع باللذة ، ولا يزجرهم عن ذلك حياء ولا دين .

خسرت الأخلاق من هذا التطور ، وربح الأدب ، فلم يعرف العرب عصراً كثر فيـه المجون وأتقن الشعر التصرف فى فنونه وألوانه ، كهذا العصر . . . ثم كان من كثرة المجون ، أو بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق فى ذلك العصر والعصور التى تلته ، أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفاً فى الجاهلية ، ولا فى صدر الإسلام ، ولا فى أيام بنى أمية ، وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عند ما خالطت العرب ، أو عند ما انتقل العرب إليها ، فاستقر سلطانهم فى بغداد ، وهذا الفن الجديد هو « الغزل بالغلمان » الذى سنحدثك عن خصائصه فى غير هذا الفصل .

وإنما الذى يعنينا الآن أن نلاحظه ، أن هؤلاء الناس ، الذين وصفنا لك ما وصلوا إليه من شك فى كل شىء ، وعبث بكل شىء ، وإسراف فى المجون واللهو ، كانوا يجتمعون ، ويجتمعون كثيراً أكثر مما كان يجتمع أسلافهم ، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة ، فيها اللهو ، وفيها الترف ، كانوا لا يجتمعون

إلا على لذة ، إلا على كأس تدار ، أو إثم يقترف ، وكانت اللذة والآثام حديثهم إذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعراً ونثراً ، وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضاً ، ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء ، فقد كان الإماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم ، وكانوا يجتمعون فى الحانات والأديار ، وفى بيوت الأمراء والوزراء وفى بيوتهم الخاصة . فيلذون و يتحدثون .

فأنت تستطيع أن تتكهن بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم فى الأدب العربى والعقل العربى ، كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة ، ولا ثقيلة الروح ، كانت تصدر عنهم عفواً ، فتمثل عقولهم وشعورهم ، وقوة حرصهم على اللذات ، وشدة شغفهم بالجديد أحسن تمثيل ، ولكنا لم نحدثك بعد عن هذه الأندية الغريبة ، وإنما وصلنا بك إلى باب من أبوابها ، فلتنتظر اليوم ، لنستمع إليهم فى الأسبوع الآتى .

القدماء والمحدثون [1]

تطور الشعر فى العصر العباسى — الأندية
الأدبية — الألفاظ والمعانى .

انتهى بنا الحديث فى الأسبوع الماضى إلى الأندية الأدبية ، التى كان لها أيام بنى العباس أثر فى الأدب لا يمحى ، و يد على الشعر لن ينالها النسيان . لم تكن هذه الأندية تجتمع فى أماكن معينة ، أو منازل معروفة ، وإنما كانت تجتمع حيث يتاح لها الاجتماع ، كانت تنتقل بأدبها وعلمها ، وبجدها وهزلها بين مدن العراق المختلفة ، وبين ما كان فى هذه المدن وضواحيها من الحدائق والبساتين ومن الأديرة والمساجد ومن الحانات وبيوت الإثم ، وكانت تجتمع بنوع خاص فى قصور الخلفاء والوزراء والقادة وكبار الدولة، وكانت تتألف من هؤلاء الناس الذين سمينا لك بعضهم فى الأحاديث الماضية ، وكان هؤلاء الناس الممتازون بالشك فى كل شىء ، والعبث بكل شىء ، يلقون فى مجالس الخلفاء والوزراء وفى المساجد طبقات أخرى من الناس لا تشك ولا تعبث ولا تتعاطى المجون ، كانوا يلقون الفقهاء والمحدثين ، وكانوا يلقون المتكلمين والرواة وعلماء اللغة ، فكانت أحاديثهم فى هذه المجالس متأثرة بجد هؤلاء العلماء ، وبمهارة الأمراء والوزراء ؛ فكانوا قلما يتجاوزون جد القول إلى هزله ، وقلما يمعنون فيما كانوا يمعنون فيـه إذا خلوا إلى أنفسهم من الفحش الذى لا حد له ، والمجون الذى لا يعدله مجون . كانوا فى هذه المجالس يتناولون جد الحياة فيحسنون فيه ، فتراهم يروون الشعر ، وينقدون الشعراء ، ويتحدثون بطرائف الحديث وغرائبه ، ويتناولون الخلفاء والأمراء والوزراء بالمدح وضروب الثناء ، فيخرجون وقد امتلأت أيديهم بخيرات الدنيا ، فإذا خرجوا ذهبوا بما كسبوا من العطاء إلى حيث ينفقونه فى اللهو واللعب ، وفى اللذة والفسوق .

فأنت ترى أن الإنصاف ، وحسن الوفاء للتاريخ يضطر اننا إلى أن

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ — ١٧ يناير سنة ١٩٢٣ .

نعترف بأن الشك والمجون لم يكونا كل شيء فى ذلك العصر ، وإنما كان إلى جانب الشك يقين ، وإلى جانب الهزل جد . كان الشعراء والكتاب والأدباء بوجه عام يشكّون ويعبثون ، وكان الفقهاء والمتكلمون والرواة مستيقنين ، يؤثرون الجد ويغلون فيه .

ولكن إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورة صادقة ، تحكم بها عليه حكماً صادقاً ، فأنت مضطر إلى أن ترجع إلى هؤلاء الشعراء والكتاب ، أكثر من رجوعك إلى هؤلاء الفقهاء والمتكلمين والرواة ، لأن الشعراء والكتاب يمثلون الجماعة حقاً ، ويعبرون عن أهوائها وميولها ؛ ويصفون ما تضطرب فيه من ضروب الحياة ، أفتظن أن شاعراً كأبى نواس يبلغ ما بلغ من الشهرة حتى يفتن به الناس فى بغداد ، وغيرها من مدن العراق ، بل فى الشأم ومصر حين ذهب إلى الشأم ومصر ، فيحفظون شعره ويتناشدونه ، ثم يضيفون إليه كل ما أعجبهم من شـــعر فيه هزل ومجون وليس له قائل معروف ، ثم لا يكتفون بذلك ، بل يروون عنه الروايات ، وينتحلون له القصص ، ويتحدثون عنه فى اللعب واللهو بالأعاجيب ، أفتظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثالا للذة ونعيم الحياة ، فيكلفون به هذا الكلف إذا لم يكن أبو نواس لسـانهم الصادق ، ومرآتهم الصافية ؟ كلا ! ليس من شك فى أن صلة حقيقية قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء ، وبين طبقات الناس المختلفة ، وتجعل هؤلاء الشعراء تراجمة صادقين ، لما يخطر لهـــذه الطبقات من خواطر ، وما يضطرب فى نفوسها من عواطف ، فى حين كان الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث والأخبار عاكفين على الفقه يستنبطونه ، وعلى الكلام يمحصونه ، وعلى الحديث يروونه ، وعلى الأخبار يتلقطونها ويذيعونها بين الناس ، وكانوا فى هذا لا ينطقون بلسان أحد ، ولا يعبرون عن رأى أحد ، ولا يمثلون إلا العلم الذى يعنون به ، ويعكفون عليه .

بل ربما وجب علينا أن نشك بعض الشك ، ونحتاط بعض الاحتياط ، حين نذكر ورع هؤلاء العلماء وإمعانهم فى البر والتقوى ؛ فقد كان منهم الأبرار والأتقياء حقاً ، ولكن كان منهم أيضاً الذين يحبون الحياة ويتذوقون

لذاتها ، ويظهرون للناس براً وديناً من ورائهما شيء كثير !

ولعلك تذكر ما يروى من أخبار « يحيى بن أكثم » الذى كان قاضى المأمون ونديمه ، ولعلك تذكر ما يروى من أخبار « أبى عبيدة معمر بن المثنَّى » ، وما كان بينه وبين الشعراء ، بل لعلك تذكر ما يروى من أخبار الخلفاء أنفسهم ، وما كانوا يمعنون فيه من لهو ولعب ، دون أن يمنعهم ذلك من أن يظهروا مظهر الأئمة الأتقياء . ولقد آن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه فى أمر الرشيد وأمثال الرشيد ، فقد تحدثوا أن الرشيد كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة . وأنه أمضى خلافته بين الحج والغزو ، فظن ابن خلدون أن هذا وحده يكفى لتبرئة الرشيد مما أضيف إليه من أنه كان يلهو ويسكر وكذلك ذكروا عن المأمون خلالا نقية ، وخصالا طاهرة ، ربما صحت كلها ، ولكنها لم تمنع المأمون من أن يلهو ويشرب الخمر .

كان هذا العصر عصر شك ومجون ، وكان عصر رياء ونفاق ، فكان لكثير من الناس مظهران مختلفان : أحدهما للعامة والجمهور ، وهو مظهر الجد والتقوى ، والآخر للخاصة ولأنفسهم ، وهو مظهر اللهو والمجون ، الذى يخلع فيه العذار ، وتترك فيه للشهوات حريتها المطلقة .

وإذن فقد كان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهرون بالشك ، ويعلنون المجون أصدق لهجة وأصح تمثيلا للعصر الذى كانوا يعيشون فيه من العلماء والخلفاء والوزراء وكبار الدولة ، وليس هذا مقصوراً على العرب ، ولا على العباسيين ، ولا على بغداد ، فقد عرفه اليونان والرومان والأوربيون ، وعرفته أثينا وروما وباريس ، وما لنا نطيل فى هذا ! ويكفى أن تقرأ عصر بريكليس وأغسطس ولويس الرابع عشر . لتفهم عصر الرشيد والأمين والمأمون .

كان هؤلاء الشعراء إذن يمثلون عصرهم تمثيلا صحيحاً ، فلنا أن نتخذهم مقياساً للحكم على هذا العصر . ولكن تغير الحياة أيام بنى العباس لم يحدث الشك والمجون وحدهما ، ولم يغير الشعر من هذه الناحية فحسب ، وإنما أحدث أيضاً شيئاً آخر ، وغيّر الشعر من ناحية أخرى : أحدث سهولة فى التعبير عما فى النفس ؛ لأنه أطلق العواطف والأهواء حريتها ، فانطلقت الألسنة بوصف

هذه العواطف والأهواء .. ضعف رقيب الدين والأخلاق على الحياة ، وضعف رقيب السلطان السياسى أيضاً ، ففكر الناس كما أحبوا ، وعاشوا كما أحبوا ، تاركين السياسة لأهل السياسة ، وتركتهم السياسة أحراراً ، واستفادت من هذه الحرية ، فبينما كانوا يلهون ويلعبون ، وبينما كانوا يعبثون ويسرفون فى الهزل ، كانت السياسة تقوّى سلطانها ، وتبسط ظلها على جميع الأقاليم الإسلامية .

أصبحت العواطف حرة ، فأصبحت الألسنة حرة ، ونشأ من حرية العواطف تنافس فى اللذة ، واستباق إليها ، فنشأ من هذا التنافس فى اللذة العملية ، تنافس فى وصفها ، واستباق إلى إجادة هذا الوصف ، وكان هؤلاء الشعراء إذا اجتمعوا إلى لذة تنافسوا أيهم يسبق صاحبه فى الشرب وغير الشرب ، ثم يتنافسون أيهم يسبق صاحبه فى وصف الشرب وغير الشرب ، ومن هنا كثر الافتنان فى اللذات ، وكثر معه الافتنان فى القول .

ثم تغيرت ألفاظ الشعر لهذا السبب نفسه ، فإن العاطفة التى أصبحت تستطيع أن تحيا من غير جناح ولا رقيب ، أصبحت تستطيع أن تصف نفسها من غير تكلف ولا تقيد بالقديم . وإذا كان الشاعر يستطيع أن يشرب جهراً دون أن يستخفى من الشرطة ، فماله لا يصف الخمر كما يحب دون أن يخشى سطوة الأصمعى أو أبى عبيدة !

نشأ عن هذا كله أن اشتد توقد الأذهان عند الشعراء ، وأصبح قول الشعر أيسر وأسهل فى هذا العصر منه فى العصور الأخرى ، وكانت النتيجة الشعرية لهذا القرن الثانى من الهجرة أضخم وأعظم منها لغيره من العصور الماضية ، كان هؤلاء الناس إذا اجتمعوا تحدثوا أو كادوا يتحدثون شعراً لا نثراً ، وكثيراً ما كانوا يوفقون إلى القول البديع ، والشعر الطريف ، وكثيراً ما كانوا يسقطون إلى سخيف اللفظ ومتكلفه ، وإلى ردىء المعنى وفاتره ، ولم يكن ذلك يؤذيهم أو ينال منهم ، فهم كانوا لا يعنون فى هذه المجالس بإجادة أو إتقان ، وإنما كانوا يعنون بوصف شعورهم وعواطفهم من جهة ، وبالتفوق والغلب من جهة أخرى .

فانظر إلى هذه الجماعة من الشعراء ، وقد اجتمعت مرة تتناشد وتتحدث ،

حتى إذا كان الظهر سأل واحد منها : أين نحن العشية ؟ فأخذ كل واحد يدعو الجماعة إلى بيته ، وعرض عليهم أبو نواس أن تكون هذه الدعوة شعراً لا نثراً ، وأن تذهب الجماعة إلى أشد الشعراء إجادة ، وأحسنهم كلاماً ، فقال داود بن رزين الواسطى :

قُومُوا لِمَنْزِلِ لَهْوٍ وَظِلٍّ بَيْتٍ كَنِينِ
فِيهِ مِنَ الْوَرْدِ والنَّرْ جِسِ وَالياسمينِ
وريحِ مِسْكٍ ذَكِيٍّ وَفَائِحِ المَرْزَجُون
وَقَيْنَةٍ ذَاتِ غُنْجٍ وذاتِ عَقْلٍ رَصِين
تَشْدُوا بِكُلِّ طَرِيفٍ مِنْ مُحْكَمِ «ابْنِ رَزِين»

وقال أبو نواس :

لاَ ، بَلْ إلَيَّ ثِقاتِى قُومُوا بِنَا لِحَيَاتى
قُومُوا نَلَذَّ جَمِيعاً بِقَوْلِ هَاكَ وهَات
... ...
... ...
فَشَاوِرُوهُ مُجُوناً فى وَقْتِ كلِّ صَلاةِ

وقال الخليع :

إلَى «الْخَلِيعِ» فقُومُوا إلَى شَرَابِ الْخَلِيعِ
إلَى شَرَابٍ لَذِيذٍ وَأَكْلِ جَدْيٍ رَضِيعِ
وَنَيْلِ أَحْوَى رخِيمٍ بِالْخَنْدَرِيسِ صَرِيعِ
فِى رَوْضَةٍ جَادَهَا صَوْ بُ غَادِياتِ الرَّبِيعِ
قُومُوا تَنالُوا وَشِيكاً مَنَالَ كلٍّ رفِيعِ

وقال الرقاشي :

لِلّٰهِ دَرٌّ عُقَارٍ حَلَّتْ بِبَيْتِ «الرَّقاشي»
عَذْرَاءَ ذَاتِ احْمِرَار إِنِّى بِها لاَ أُحَاشِى
قُومُوا نَدَامَاىَ رَوُّوا مُشَاشَكُمْ ومُشَاشِى
وناطِحُــونِى بِكَأْسٍ نِطَاح سُودِ الْكِبَاش
فَإِنْ نَكَلْتُ فَحِلٌّ لَكُمْ دمِى وَمُشَاشِى

وقال عمرو الوراق :

عُوجُوا إِلَى بَيْتِ «عَمْرٍ» إِلَى سَمَاعٍ وخَمْرِ
ونَاشِجاتٍ عَلَيْنــا تُطَاعُ فِى كُلِّ أَمْــرِ
فَهَاكَ أَجْلَى وَأَشْهَى مِنْ صَيْدِ بازٍ وَصَقْرِ
هٰذَا ، وَلَيْس علَيْكُمْ أُولَى وَلاَ وَقْتُ عَصْرِ

وقال الحسين الخياط :

قَضَتْ عِنَانُ علَيْنا بِأَنْ نَزُور «حُسيْنا»
وأَنْ نَقَرَّ لَدَيْهِ باللَّهْوِ وَالْقَصْفِ عَيْنَـا
فَما رأَيْنَا كَظَرْفِ «الْ حُسَيْنِ» فِيمَا رَأَيْنا
قَدْ قَرَّبَ الله زَيْناً مِنْهُ وَباعَــدَ شَيْنا

وقال عنان :

مَهْلاً أُفَدِّيكَ مَهْلاً «عِنَانُ» أَحْرَى وَأَوْلَى
بِـأَنْ تَنال لَدَيْهَا أَشْهَى النَّعِيمِ وَأَحْلَى
فَإِنَّ عِنْدِى حــرَاماً مِنَ الشَّرَابِ وحِلاًّ
لاَ تَطْمَعُوا فِى سَرَائِى مِنَ الْبَرِيَّةِ كَلاَّ
يَا إِخْوَتِى خَبِّرُونِى أَجَازَ حُكْمِى أَمْ لاَ

ومضى كل واحد يقول كلاماً كهذا ، فيه ترغيب ، وفيه حث على اللذة ، وفيه تفضيل لما عنده ، يقول ذلك كما قاله أصحابه فى لفظ سهل رشيق غير متكلف ، بل غير معنى به ، حتى يسقط فى الخطأ اللفظى ، أو فى الضرورة ، فرأى أبو نواس أن القوم قد استبقوا ، فلم يسبق أحد صاحبه ، فاقترح ألا يذهبوا إلى بيت أحد ، بل إلى حانة ، فقال :

أَلاَ قُومُوا إلَى الكَرْخِ إلَى مَنْزِلِ خَمَّارِ
إلَى صَهْباءَ كالْمِسْكِ إلَى جُونَةِ عَطَّارِ
وَبُسْتانٍ بِهِ نَخْلٌ لَهُ زَهْرٌ بأَشْجَارِ
فَإن أحْبَبْتُمُ لَهْوًا أتَيناكُمْ بِمِزْمَارِ

أتريد أحسن من هذا الشعر دلالة على ما كان يمتاز به هذا العصر فى حياته المعنوية والمادية ، بل فى تصوره وشعوره ، وتعبيره عن هذا التصور والشعور ! عواطف حرة يصفها كلام حر ، ومعان سهلة مألوفة لم يبحث عنها صاحبها ، ولم يطل البحث ، وإنما وجدها فى نفسه ، فأظهرها فى لفظ لم يتكلف تخيره ولا نظمه ولا تنسيقه .

فأنت ترى أن هذا العصر إنما كان يمتاز فى حياته الأدبية بخلال أربع : الشك ، والمجون وحرية العواطف ، وسهولة اللفظ .

وإذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر ويشخصه ، فهذا المثال هو أبو نواس ، الذى سنتخذ درسه الخاص سبيلا إلى درس هذا العصر كله .

القدماء والمحدثون [1]

أبو نواس

أنكر بعض الناس علينا وعلى السياسة حديث الأربعاء ، وألحوا فى الإنكار ، وكتبوا فى الصحف يعلنون إنكارهم ، ويطلبون إلينا وإلى السياسة أن نصلح هذا الحديث ، ونعدل به عن الشر إلى الخير ، وعن الهزل إلى الجد ، وزعموا أن ما نرويه فى هذا الحديث من شك الشعراء حيناً ، ومجونهم حيناً آخر ، مفسد لأخلاق الشباب ، مدنس لقلوبهم الطاهرة ، وتجاوزوا هذا إلى أكثر منه ، فزعموا أنا متكلفون مخطئون ، حين نصف القرن الثانى للهجرة بأنه كان عصر شك ومجون ، وأن الناس كانوا فيه أحراراً ، لا يكادون يأخذون أنفسهم فى اللهو بخلق أو دين ، زعموا أننا مخطئون ، وأننا قد اتخذنا طائفة من الشعراء الماجنين ليس لهم وزن ، فجعلناهم مقياساً للعصر الذى عاشوا فيه ، وأعرضنا عن العلماء والفقهاء وأهل الجد وأصحاب الحديث ، قالوا وليس هذا من الإنصاف فى شىء .

كتبوا هذا كله ، وتجاوزوه إلى شتم نعرض عنه ، ونشكره لكاتبيه ، ولعل حديث الأربعاء الماضى يغنينا عن الرد على هؤلاء الكاتبين ، من بعض الوجوه ، فقد بينا فى ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً ، وكانوا أشد له تمثيلا ، وأصدق لحياته تصويراً ، من الفقهاء والمحدثين وأصحاب الكلام ، وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ، ومنازلهم الاجتماعية والسياسية ، وعلى أن كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة ، لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ، ولها كما لها الشعراء ، واستمتع بلذات الحياة فى سره ، كما استمتع بها الشعراء فى جهرهم .

فلسنا إذن فى حاجة إلى إعادة هذا الحديث والخوض فيه ، وإنما نلفت

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ — ٢٤ يناير سنة ١٩٢٣ .

سادتنا المشفقين على أخلاق الشباب وطهارته ، إلى أنهم ليسوا أشد منا إشفاقاً على هذا الشباب ، أن يسوء خلقه ، أو يفسد قلبه ، ولكنا لسنا نرى رأيهم فى هذا التحرج ، ولسنا نحب أن يكون شبابنا من الجهل والغفلة والضعف بحيث نخشى عليه بيتاً من الشعر ، ليس حظه من المجون والفتنة شيئاً يذكر ، فنحن نتخير لهذا الشباب من هذا الشعر الدنس أقله من الإثم حظاً ، وأنزره من الفجور نصيباً ، ولسنا نروى لك ما يسمع وما لا يسمع ، ولسنا نحدثهم بما يقال وما لا يقال ، وإنما ننظر فى هذا كله إلى الذوق والمنفعة جميعاً ، وأين يقع ما نرويه وما نتحدث به مما يقرأ الشبان ويسمعون ويرون من آداب الفرنجة وأحاديثهم ، وفى ملاعبهم وملاهيهم !

ولو أن ما نرويه وما نتحدث به هو الخطر الوحيد ، الذى نخشاه على أخلاق الشبان ، لكنا أسرع الناس إلى إهماله ، ولتحدثنا إلى قرائنا فى الزهد والتقوى ، وفى الطاعة والنسك ، ولكن نخشى على الأخلاق أخطاراً أعظم وأسوأ وقعاً من هذا الحديث البرىء ، الذى ننشره كل أسبوع . وهل يحب سادتنا أن يجهل الناس بشاراً وأبا نواس والرشيد والأمين ؟ أم هل يحبون أن نعطيهم من هـــذا العصر صورة كاذبة كلها جد ، حين كان حظ هذا العصر من الهزل عظيماً ؟ على أن هؤلاء السادة الذين يتحرجون ويعتصمون بالدين ، يضيقون على الناس ما وسع الدين ، ويعسّرون وقد أمرهم الدين أن ييسروا .

ونستطيع أن نؤكد لهم أن السلف الصالح من المســلمين ، كان أشد منهم بالله إيماناً ، وأكثر منهم لله طاعة ، وكان فى الوقت نفسه أرحب منهم صدراً ، وأشد احتمالاً ، فكان يسمع للجد ، وكان يسمع للهزل ، بل كان يجدّ وكان يهزل . . . . وإن أخلاقنا العامة وعاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشد عبد الله بن عباس فى المسجد الحرام ، وقد سئل عن الشعر « أينقض الوضوء » ؟ وإن أخلاقنا وعاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشده عبد الله بن الزبير حين لقى الفرزدق بالمسجد الحرام أيضاً ، وكان عبد الله خليفة ، وكانت النوار زوج الفرزدق قد شكت زوجها ، بل إن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس

بيتاً قاله حسان ، يهجو به هنداً زوج أبى سفيان ، فلما سمعه النبى صلى الله عليه وسلم أعجب به ، وقال لشاعره فيما ذكر الرواة : « قل وروح القدس معك » .

نعم ! تمنعنا الأخلاق أن ننشر هذا الآن ، لأن العصر قد تبدل ، وقد تطورت نظم الحياة ، ولكن هناك أشياء نستطيع نشرها دون أن نجنى على الأخلاق ، أو نعرضها للخطر ، ونحن نستأذن السادة فى أن نرغب فى ألا تكون حياتنا خلاً ، وإنما نريد ألا تخلو من الفكاهة واللذة ، ولقد قال بعض الشعراء يمازح فقيهاً من فقهاء هذا العصر الأول :

سَأَلْتُ الْفَتَى المَكِّيَّ ذَا العِلْمِ مَا الَّذِى ... يَحِلُّ مِنَ التَّقْبِيلِ فِى رَمَضَانِ ؟
فَقَالَ لِىَ المَكِّىُّ : أَمَّا لِزَوْجَةٍ ... فَسَبْعٌ ، وَأَمَّا خُلَّةٌ فَثَمَانِ !

وقال شاعر آخر فى مثل هذا المعنى :

سَأَلْتُ الْفَتَى المَكِّىَّ هَلْ فِى تَعانُقٍ ... وَضَمَّةِ مُشْتاقِ الْفُؤَادِ جُنَاحُ ؟
فَقَالَ مَعاذَ اللهِ أَنْ يُذْهِبَ التُّقَى ... تَلَاصُقُ أَكْبادٍ بِهِنَّ جِراحُ ؟

ومثل هذا كثير كان يرويه العلماء والفقهاء ويعجبون به . ويرتاحون له ، وكان سفيان الثورى يقول ؛ إن أبا نواس أشعر الناس لقوله :

يَا قَمَرًا أَبْصَرْتُ فِى مَأْتَمٍ ... يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ
يَبْكِى فَيُذْرِى الدُّرَّ مِنْ نَرْجِسٍ ... وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بِعُنَّابِ

* * *

وقد انتهى بنا الحديث إلى أبى نواس . وأنا أريد أن أحدثك عن أبى نواس ، ولست أذكر لك أنه ولد سنة ١٤١ هـ ، ومات سنة ١٩٩ ؛ فأنت تعلم ذلك ، وتستطيع أن تجده فى أى كتاب من كتب الأدب ، ولست أصف لك نشأته الأولى ، ففيها غموض كثير ، وفيها اختلاف واضطراب ، وربما كان من الحق علىَّ ألا أنشر لك ما تحدث الناس به من شباب أبى نواس ،

ففيه شيء من الإثم كثير ، قد يغضب سادتنا المتحرجين ، وهو فى الوقت نفسه يخالف أخلاقنا وذوقنا العام .

لا أحدثك إذن عن نشأة أبي نواس ، بل لا أريد أن أحدثك فى هذا المكان عن سيرة أبي نواس وحياته ؛ فإن ذلك يحتاج من البحث والتحقيق العلميين إلى ما لا تحتمله الصحف السيارة ، ولكنى قلت : إن أبا نواس كان مثالا صادقاً للعصر الذى عاش فيه ، وإن العصر كان يمتاز بالشك والمجون وإيثار اللذة ، وقلت فى حديث آخر ، إن شعراء هذا العصر وأدباءه كانوا قد اتخذوا لأنفسهم قاعـدة ، هى أن يستمتعوا بلذات الحيـاة ما استطاعوا ، فإذا أدركهم الشيب والضعف لجئوا إلى عفو الله ، ولاذوا به ، ولهذا كان أبو نواس يكره المعتزلة ، وينكر على النظّام رأيه فى الخطيئة والتوبة.

قلت هذا كله ، وأريد فى هذا الفصل أن أثبت لك أن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ، ولا رجلا لا يؤبه له ، وإنما كان ذا مكانة عالية ، وعالية جداً ، وأنه على هذه المكانة قد كان ماجناً ، مجاهراً بالمجون ، مستمتعاً باللذة ، لا يخشى فى ذلك سخط الأمراء ، ولا إنكار الفقهاء والمحدثين ، وإنما يعتمد على شيء واحد ، هو عفو الله ، وأنه قد أخذ من الحياة لذاتها جميعاً ، فلما مرض وعلم أنه ميت ، أنفق مرضه يتوب وينيب ، ويعتذر ويستغفر ، فلما مات رأى بعض الرواة فى المنام أن الله قد غفر له ، وأنه قد دخل الجنة .

ولست أروى لك ما سأرويه من كتب ليست موضع الثقة ، وإنما أعتمد فى حديث اليوم على كتاب واحد معروف لا أتجاوزه ، وهو « تاريخ دمشق » للحافظ بن عساكر ، فانظر إلى الذين روى عنهم أبو نواس ، وانظر إلى الذين رووا عن أبي نواس من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث ، فأما الذين روى عنهم — فيما ذكر ابن عساكر — فهم : حماد بن حماد ، وحماد ابن يزيد ، وعبد الواحد بن زياد ، ومعتمر بن سليمان ، ويحيى القطان ، وأزهر ابن سعد السمان ، وأما الذين رووا عنه فهم — فيما ذكر ابن عساكر أيضاً — محمد بن إبراهيم ، وابن كثير الصيرفى ، وعبيد الله بن محمد العبسى ، ومحمد ابن جعفر غندر ، وأحمد بن حمزة بن زياد الريفى ، وعمرو بن بحر الجاحظ ،

ويعقوب بن زيد الفارسى ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، وجماعة سواهم .

فإذا أردت أن تعرف أقدار هؤلاء الفقهاء والمحدثين ، فارجع إلى طبقات الفقهاء والمحدثين ، وستثق بأن شاعرنا لم يكن رجلا ما ، وإنما كان رجلا يقدره أهل عصره ، ويكبرونه فى كل ما عرض له من الفنون ، فكان أهل اللغة يقولون : إنه أعلم الناس بالغريب ، وكان الأدباء يقولون : إنه أرق الناس أدباً وأحسنهم شعراً ، وكان الخلفاء والوزراء والأمراء يعجبون بظرفه ، وحسن حديثه ، وكان الشعراء يعترفون له بالزعامة والتفوق ، وكان الفقهاء والمحدّثون لا يأنفون أن يحدثوه ، وأن يتحدثوا عنه . ولو روينا لك الأدلة على هذا كله لأسرفنا فى الإطالة .

ولكنا ننتقل من هذا إلى ذكر شىء من دعابة أبى نواس ومجونه ، مع الفقهاء والمحدثين والخلفاء .

تحدث ابن عائشة أنه قال : كنا على باب عبد الواحد بن زياد ، ومعنا أبو نواس، فقال: ليسأل كل واحد منكم . ثم قال : سل يا فتى ؛ فأنشأ أبو نواس يقول :

وَلَقَــدْ كُنَّا رَوَيْنا عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَهْ
عَن سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّـ ـبِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبادَه
قالَ : مَنْ مَاتَ مُحِباً فَلَهُ أَجْــر شَهادَه

فالتفت إليه عبد الواحد بن زياد ، فقال اعزب عنى ياخبيث ! والله لا حدثتك بشىء وأنا أعرفك ، فقام أبو نواس، وقال : والله لا أتيت مجلسك وأنت تردّ الصحيح من الأحاديث !

وتحدث محمد بن جعفر قال : لقى شيبة أبا نواس ، فقال له : ياحسن ، حدثنا عن ظرفك فقال :

حَدَّثَنا الْخَفَّافُ عَنْ وَائِلٍ وَخَالِدُ الْحذاء عَنْ جَابِرِ
عَنْ مِسْعَرٍ عَنْ بعْضِ أَصْحَابِهِ يَرْفَعُهُ الشَّيْخُ إلى عامِرِ
قالُوا جَمِيعاً : أَيُّما طَفْلَة علَّقَها ذُو خُلُق طَاهِرِ

فَوَاصَلَتْهُ ثُمَّ دَامَتْ لَهُ عَلَى وِصالِ الْحافِظِ الذَّاكِرِ
كَانَتْ لَهَا الْجَنَّةُ مَفْتُوحَةً تَرْتَعُ فِى مَرْتَعِهَا الزَّاهِرِ
وَأَىُّ مَعْشُوقٍ جَفَا عَاشِقاً بَعْدَ وِصَالٍ دَائِمٍ نَاضِرِ
فَفِى عَذَابِ اللهِ بُعْدًا لَهُ نَعَمْ وَسُحقٍ دَائِمٍ دَاحِـــرِ

فقال له شيبة : إنك لجميل الأخلاق !

فما رأى سادتنا المتحرجين ؟

وتحدّث سليم بن منصور قال : رأيت أبا نواس فى مجلس أبى — وكان واعظاً — يبكى بكاء شديداً ، فقلت : إنى لأرجو ألا يعذّبك الله بعد هذا البكاء أبداً ، فأنشأ يقول :

لَمْ أَبْكِ فِى مَجْلِسِ مَنْصُورِ شَوْقاً إلى الْجَنَّةِ وَالْحُورِ
ولاَ مِنَ الْقَبْرِ وَأَهْـــوَالِهِ وَلاَ مِنَ النَّفْخَةِ فِى الصُّورِ
لكِنْ بُكَائى لِبُكَا شَادِنٍ تَقِيهِ نَفْسِى كلَّ مَحْذُورِ

ثم قـــال : أما ترى الأمرد الذى عن يمين أبيك ! إنما بكيت رحمة لبـــكائه !

وتحدث ابن الزيات ، عن محمد بن ضوء بن الصلصال بن الدلهمس ، قال : كان أبو نواس يزورنى فى الكوفة ، فيأتى بيت خمار بالحيرة ، يقال له جابر ، وكان نظيف الثوب ، يعتّق الشراب ، فيكون عنده ما يأتى عليه سنون ، قال فرأى فى يده يوماً شيئاً عجيباً ، فى نهاية الحسن ، وطيب الرائحة ، فقال لى : يا أبا جعفر ! لا يجتمع هـــذا والهم فى صدر . قال : وكان معجباً بضرب الطنبور ، فكان إذا جاءنى جمعت له ضرابّ الطنابير ، ومعدنهم الكوفة ، فكان يسكر فى الليلة سكرات ، قال : فجاءنى مرة من داره ، فقال : قد حدث أمر ، قلت ما هو ؟ قال : نهانى أمير المؤمنين محمد عن شرب الخمر ، وأنشـــدنى :

أَيُّهَا الرَّائحَانِ بِاللَّوْمِ لُومَا لاَ أَذُوقُ المُدامَ إلاَّ شَمِيما

القصيدة . . .

فقلت ما تريد أن تفعل ؟ قال : لا أشربها أخاف أن يبلغه أنى شربتها، فأتيناه بنبيذ ، وجلسنا فى منزل جابر ، فلما دارت الكأس بيننا أنشأت أقول ، وأذكر قوله لى :

خَفِيَتْ عَلَيْكَ مَحَاسِنُ الْخَمْرِ ... أَمْ غَيَّرتْكَ نَوَائِبُ الدَّهْرِ
فَصَرَفْتَ وَجْهَكَ عَنْ مُعَتَّقَةٍ ... تَفْتَرُّ عَنْ خُلُقٍ مِنَ الْبِشْرِ
وَنَسِيتَ قَوْلَكَ حِينَ تَمزُجُهَا ... فَنُرِيكَ مِثْلَ كَوَاكِبِ النَّسْرِ
لاَ تَحْسِبَنَّ عُقَـــارَ خَابِيَةٍ ... وَالْهَمَّ يَجْتَمِعان فى صدْرِ

فأخذ يسبّ الأمين فى كلام لا نرويه . وشرب الخمر ، ثم شخص إلى محمد ؛ فقال له : أين كنت ؟ قال : عند صديقى الكوفى ، وحدثه الحديث ، قال فقال لى : ما صنعت حين أنشدك الشعر ؟ قال : شربتها يا أمير المؤمنين ، قال : أحسنت وأجملت ! ثم قال : اشخص حتى تحمل إلىّ صديقك هذا ، قال : فشخص فحملنى إليه فلم أزل مع محمد حتى قتل .

ولكنا قد أكثرنا من رواية هذا المجون ، ونخشى أن نكون قد أثقلنا على المتحرجين ، فلنرو لهم شعراً لأبى نواس ملؤه البر والتقوى ، فيـــه والزهد والموعظة .

نقل عن عبدوس رواية أبى نواس أنه قال : دخلت على أبى نواس الحسن بن هانئ ، فى علته التى مات فيها ، فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس؟ فقال أجدنى قائلا :

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الخَلْـ ... قَ مِنْ ضَعِيفٍ مهِينِ
يَسُوقُهُ مِن قَـــرَارٍ ... إِلَى قَـــرَارٍ مَكِينِ
يَحُولُ شَيْئاً فَشَيْئاً ... فى الْحُجْبِ دُونَ الْعُيُونِ
حتَّى اسْتَوتْ حَرَكَاتٌ ... مخْلُوقَةٌ مِنْ سُكُونِ

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان من غد دخلت عليه ، فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدنى قائلا :

وَعظَتْكَ أجداثٌ صُمُتُ ونَعتْك أزْمِنَةٌ خُفُت
وتكلمتَ عن أوْجُهٍ تبْلَى وَعَنْ صُوَرٍ سُبُت
وَأَرَتْكَ قَبْرَكَ فى الْقُبُورِ وَأَنْتَ حَىٌّ لَمْ تَمتْ
ولرُبَّما انْقَلَبَ الشَّماتُ فَحَلَّ بِالْقَوْمِ الشُّمُتْ

ثم أطرق فتركته ، فلما كان فى اليوم الثالث دخلت عليه ، فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدنى قائلا :

يَا نُواسِيُّ تَفكَّرْ وَتَعزَّ وتَصَبَّرْ
سَاءَكَ الدَّهْرُ بِشَىءٍ وبِمَا سرَّكَ أَكْثَرْ
يا كَثِيرَ الذَّنْبِ عفو اللهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرْ
أَكْثَرُ الْعِصيان فى أصْغرِ عفْوِ اللهِ يصْغُرْ

فلما كان فى اليوم الرابع دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدنى قائلا :

كُنْ مَعَ اللهِ يَكُنْ لكْ واتَّقِ اللهَ لَعَلَّكْ
لا تكنْ إلاَّ مُعِدًّا لِلْمَنَايا فَكَأَنَّكْ
إنَّ لِلْمَوْتِ لَسَهْماً واقِعاً دُونَكَ أَوْ بِكْ
فعلَى اللهِ تَوكَّلْ وبِتقْوَاه تَمَسَّكْ
نحنُ نُمسِى بَيْن أسْبابِ سُكُونٍ وتَحَرُّك

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان فى اليوم الخامس دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدنى قائلا :

يا نَاظِرًا يرْنُو بِعَيْنَىْ رَاقِدِ ومُشَاهِدًا لِلأَمْسِ غَيْرَ مُشَاهِدِ
مَنَّتْكَ نَفْسُكَ ضَلَّة فَأَبَحْتَها طُرُقَ الْحِمَامِ وأَنْتَ غيْرُ مُرَاصِدِ
تَصِلُ الذُّنوبَ إِلَى الذُّنوبِ وترْتجى دَرَكَ الجنَانِ بها وفَوْزَا العَابدِ

وَنَسِيتَ أَنَّ اللهَ أَخْرجَ آدماً   مِنْها إِلَى الدُّنْيا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان فى اليوم السادس دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدنى قائلا :

دَبَّ فِيَّ السَّقَامُ سُفْلاً وَعُلْوَا   وَأَرَانى أَمُوتُ عُضْواً فَعُضْوَا
لَيْسَ تَأْتِى مِنْ سَاعَةٍ بِىَ إِلاَّ   تَقْتَضِينِى بِمرِّهَا بِىَ جُـزْوَا
ذَهَبَتْ جِدَّتِى بَطَاعَةِ نَفْسِى   وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللهِ نضْوَا
قَدْ أَسَأْنا كُلَّ الإِسَاءَةِ يا رَبِّ   فَصَفْحاً عَنَّا إِلٰهِى وَعَفْوَا

ثم أطرق وانصرفت ، فلما كان فى اليوم السابع دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس : قال أجدنى قائلا :

إِنِّى وما جَمَّعْتُ مِنْ صَفَدٍ   وحَوَيْتُ مِنْ سبَدٍ ومِنْ لبَدِ
هِمَمٌ تَصَرَّفَتِ الخُطُوبُ بِها   فَغَدَوْتُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدِ
لَوْ لَمْ تَكُنْ لِلهِ مُتَّهِماً   لَمْ تُمْسِ مُحْتَاجاً إِلَى أَحَدِ

ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان فى اليوم الثامن جئت لأدخل ، فلقينى الغلام فى الطريق ومعه رقعة مختومة ، فسألته عنه ، فقال : أعظم الله أجرك فى أبى نواس ، فقد تُوفى ، وكان كتب إليك هذه الرقعة قبل موته ، فقرأتها فإذا فيها :

شِعْرُ حَىٍّ أَتَاكَ مِنْ لَفْظِ مَيْتٍ   صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقْفَا
لَوْ تأَمَّلْتَنِى وأَبْصَرْتَ وَجْهِى   لَمْ تَجِدْ مِنْ مِثَالِ رَسْمِىَ حَرْفَا
نَفَسٌ خَافِتٌ وَجِسْمٌ نَحِيلٌ   أَرْمَضَتْهُ الأَسْقَامُ حَتَّى تَعَفَّى

فجئت معه إلى منزل أبى نواس ، فإذا به قد مات ، ونظرت فيما خلّف ، فإذا مقدار ثلثمائة درهم ، وإذا بين مخدتيه رقعة فيها هذا الشعر :

يَارَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِى كَثْرَةً   فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ

أَدْعُوكَ ربِّ كما أَمرتَ تَضَرُّعاً ... فإذا رددْتَ يَدِى فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
إنْ كانَ لاَ يَرْجُوكَ إلاَّ مُحْسِنٌ ... فَمَنِ الَّذِى يَرْجُو ويَخْشَى الْمُجْرِمُ
مَالِي إلَيْكَ وسِيلَةٌ إلاَّ الرَّجَا ... وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أَنِّى مُسْلِمُ

قال : فوقفت حتى جهزناه وصلينا عليه ودفناه وانصرفت .

* * *

أكثر هذا الشعر لأبي نواس من غير شك ، ولكن هذه القصة التي رويناها متكلفة من غير شك أيضاً ، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر في أوقات مختلفة من حياته ، وقال بعضه عند ما أحس الموت . ولسنا نلح في هذا البحث ولا نفصله ، فقد أطلنا أكثر مما ينبغي ، وإن كان ذنب هذه الإطالة يقع على أبي نواس أكثر من وقوعه علينا . فقد رأيت مكانة شاعرنا ورأيت مذهبه في الدين والمجون والشك ، فلنترك هذا كله ، ولنحدثك عن قيمة أبي نواس الشعرية في الأسبوع الآتي .

القدماء والمحدثون [1]

أبو نواس — النقد فى عصره — نقد الفقهاء — نقد الأدباء — أشعر الشعراء .

زعمت لك فى الأحاديث الماضية أن أبا نواس كان مثالا لعصره ، وأن الذين عاصروه كانوا يعجبون به الإعجاب كله ، ويقدمونه على شعراء عصره جميعاً إلا بشار بن بُرْد ، وأريد اليوم أن أؤيد هذا الزعم ، وأن أستوفى هذا الموضوع حقه من البحث ، ويخيل إلىّ أن بحثاً كهذا — على ما فيه من الرواية والنقد — لن يخلو من فائدة ، وإن خلا من لذة ، أو بعبارة أصح ، وإن لم يحدث فى نفسك هذه اللذة التى يحدثها الشعر الماجن الظريف .

لن يخلو هذا البحث من فائدة ، لأنه سيظهر على ما كان للأدباء والشعراء والفقهاء وأصحاب الكلام وأئمة اللغة من رأى فى هذا الشاعر ، الذى اخترت شعره موضوعاً لهذه الأحاديث ، ولأنه سيبين لك طريقة هؤلاء الناس جميعاً فى نقد الشعر ، وفى فهمه ، وفى تصوره والحكم عليه .

وليس هذا بالشىء القليل ، ولقد أضطر إلى أن أستأذن رجال الأدب القديم ، من المعاصرين ، فى أن أكون جريئاً وحرًّا فى هذا البحث ، وأرجو ألا تغضبهم هذه الجرأة ، ولا تسوءهم هذه الحرية ، وأؤكد لهم أنى لم أعمد إليهما عمداً ، وإنما اضطررت إليهما اضطراراً ، اضطرنى إليهما بحث أعتقد أنه صحيح ، وصدق فى التاريخ أعتقد أنه واجب على الباحثين .

إذن فأنا أستأذن أئمة الأدب ، وشيوخه المعاصرين فى أن أكون حرًّا ، وفى أن أكون جريئاً ، وفى أن أزعم أن الذين عاصروا أبا نواس وجاءوا بعده من الأدباء والشعراء وأئمة اللغة ، لم يكن لهم فى النقد مذهب معروف ، أو خطة واضحة ، وإن شئت فقل : إنهم قد كانوا يذهبون فى النقد مذاهب

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ هـ — ٣١ يناير سنة ١٩٢٣ م .

لا ترضينا ، ولا تحقق ما أصبحنا نسمو إليه من مثل أعلى فى النقد خاصة ، وفى الأدب عامة .

ولست أدرى أكانت هذه المذاهب تحقق ما كان يسمو إليه أدباء العصر العباسى أم لا . ولست أدرى أكانت تظل حال النقد على ما كانت عليه أيام الجاحظ والمبرد ، لو أن حياة العرب السياسية لم تفسد ، ولم تتغلب أجناس أخرى أعجمية على السلطان العربى . ولكنى أستطيع أن أقول إن هذه المذاهب التى نجدها منبثة فى كتب الأدب على اختلافها قبل أن يصبح البيان علماً ذا قواعد وأصول ، ليس من شأنها أن ترضى باحثاً أو تقنع أديباً ، وإننا نستطيع أن نقول إن أدبنا العربى يخلو أو يكاد يخلو من النقد الصحيح خلوًّا تامًّا .

إلام تقصد إذا عرضت لشاعر من الشعراء وأردت أن تقرأ شعره وتفهمه ثم تنقده ؟ تقصد فيما أظن إلى أشياء :

الأول : أن تصل إلى شخصية الشاعر ، فتفهمها وتحيط بدقائق نفسه ما استطعت ، فتعرف كيف أحس ما أحس ، وكيف شعر بما شعر به ، ثم كيف وصف إحساسه ، وأعرب عن شعوره ؟

الثانى : أن تتخذ هذه الشخصية وما يؤلفها من عواطف وميول وأهواء ، وسيلة إلى فهم العصر الذى عاش فيه هذا الشاعر ، والبيئة التى خضع لها هذا الشاعر ، والجنسية التى نجم منها هذا الشاعر ، فأنت لا تقصد إلى فهم الشاعر لنفسه ، وإنما تقصد إلى فهم الشاعر من حيث هو صورة من صور الجماعة التى يعيش فيها .

ومهما تكن مقتصداً ، ومهما تكن متواضعاً ، فأنت سواء شعرت بذلك أم لم تشعر به ، لا تقنع بالأشخاص ، وإنما تطمع فى الجماعات ، لا ترضى بالجزئى ، وإنما تسمو إلى الكلى ، كما يقول أهل المنطق ، فأبو نواس وحده لا يعنيك ، وإنما يعنيك أبو نواس من حيث إنه كان يعيش ، لا أقول مع فلان وفلان ، وقل مثل ذلك فى شوقى ، وقل مثله فى حافظ .

فالشاعر ليس شاعراً لأنه يقول فيحسن ، وإنما هو شاعر لأن قوله الحسن هذا يمثل عواطف الذين يسمعونه ويقرءونه ، يرضيهم ويقع من نفوسهم موقع الإعجاب ، ولم يرضك البيت من الشعر إلاّ لأنهُ يوافق

هوى فى نفسك، ويلائم عاطفة من عواطفك، ويرضى حاجة من حاجاتك إلى الجمال.

إذن فأنت تنقد الشاعر لتفهم شخصيته أولا ، ثم جماعتــه أو عصره أو بيئته ، أو هذا كله ثانياً ، وهناك شىء ثالث تقصد إليه حين تقرأ الشعر وتحاول نقده ، وهو اللذة : اللذة الفنية ، اللذة التى تجدها إذا نظرت إلى شكل جميل ، أو استمعت إلى قطعة من الموسيقى ، أو خضعت لمظهر من مظاهر الطبيعة الساحرة ، عقلك وشعورك يعملان إذن حين تقرأ الشعر ، وحين تنقده ؛ لأنك تريد أن تفهم ، وتريد أن تلتذ .

ولا تقل إن فى هذا شيئاً من التحرج ، أو إن فيه تضييقاً ومحاولة من هذه المحاولات ، التى أرادت غير مرة أن تجعل النقد علماً ذا قواعد وأصول فلم تفلح ، ولم توفق إلى شىء كثير. لا تقل هذا ، فإنى لا أتحرج ، ولا أضيق ، ولا أحاول أن أضع للنقد قواعد وأصولا معينة ، وإنما أحاول أن أفهم معك معنى النقد ، وما يرمى إليه الناقد ، ومهما تختلف مذاهب النقاد المحدثين ومسالكهم ، فهم يقصدون إلى هذا كله أو بعضه .

سل « سانت بوف » (Saiutc Beuve) ينبئك بأنه يعنى قبل كل شىء إذا قرأ قصيدة من الشعر ، أو فصلا من النثر ، بأن يجد شخص الشــاعر أو الكاتب ، وبأن يحلل هذا الشخص ، ويصل إلى دقائقه ودخائله ، كما يفعل علماء التاريخ الطبيعى فى معاملهم، ولكن الشخص وحده لا يكفيه ولا يعنيه؛ وإنما هو يتخذ هذ الشخص وسيلة إلى النوع ، يتخذ هذا الجزئى وسيلة إلى الكلى .

ثم سل « تين » (Taine) ينبئك بأن شخص الشاعر ، أو الكاتب ومزاجه وعواطفه وكل ما يكوّن نفسه ، لا يعنيه إلا من حيث هو أثر من آثار العصر الذى عاش فيه ، والبيئة التى خضع لها ، والأمة التى نجم منها ، فالشخص عنده أثر من آثار هذا العصر ، وهذه البيئة ، وهذه الأمة .

ثم سل «جول لمتر» (Jules Lemaitre) ينبئك بأن هــذا كله لغو وثرثرة ، وأن الفن وحده هو الذى يعنيه ، ويعنيه من حيث إنه يؤثر فى النفس ، فيبعث فيها العواطف على اختلافها ، ويبعث فيها الرضا والإعجاب .

وفى الحق أن الناقد لا يقنع بما كان يقنع به « سانت بوف » أو « تين »

أو « جول لمتر » أو غيرهم من النقاد ، وإنما يود لو استطاع أن يوفق إلى هذا كله ، ويستخلص منه غرضاً شاملا يطلبه ويسمو إليه حين ينقد ، فيفهم شخصية الشاعر أو الكاتب ، وعصره ، وفنه .

ولست أريد أن أتعمق فى تفصيل هذا كله ، فإن فصلا من فصول الصحف السيارة لا يتسع لمثل هذا التعمق ، وإنما أردت أن أنتهى بك إلى ما نطلبه الآن إلى النقد ، لأنتقل من هذا إلى ما كان يطلبه المعاصرون لأبى نواس إلى هذا النقد . والحق أن الفرق بين الغرضين عظيم جداً . . . نطلب نحن كثيراً ، ولم يكن يطلب القوم إلا شيئاً قليلا .

* * *

قلت فى أول هذا الفصل ، إن القوم لم تكن لهم مذاهب واضحة فى النقد ، أو إن مذا هبهم لم يكن من شأنها أن ترضينا ، وكلا القولين صحيح ، فإنا لا نعرف لأدباء القرن الثانى والثالث للهجرة مذهباً فى النقد معروفاً ، أو خطة فيـــه واضحة .

ومع ذلك فقد نقدوا ، وحكموا على الشعر والنثر ، فاستحسنوهما وازدروهما ، ولم تكن أحكامهم متفقة ، ولم تكن أهواؤهم متشاكلة ، وإنما كانوا يختلفون ، ويختلفون اختلافاً كثيراً ، ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن كل فريق من أهل ذلك العصر كان يتخذ صناعته وفنه الذى غلب عليه مقياساً لنقده ، وميزاناً لرأيه ، فى جودة الأثر الأدبى أو رداءته .

فالجيد عند أبى عبيدة ، ويونس بن حبيب ، وأبى عمرو الشيبانى ، وابن الأعرابى : ما اشتمل على الألفاظ الجزلة المتينة ، والأساليب الفخمة الرصينة ، وما كان إلى لغة الأعراب أقرب منه إلى لغة أهل الحضر .

والجيد عند الجاحظ وأمثال الجاحظ من الكتاب والشعراء ورواة الأدب الذين لم يقصروا حياتهم على اللفظ ، ولم يختصوا بالبحث مادة اللغة ، وإنما تناولوا الأدب من حيث هو ، وعنوا بالمعانى عناية لا تقل عن عنايتهم بالألفاظ ، وربما تفوقها : ما اشتمل على المعنى الطريف فى اللفظ المستعذب ، الذى لم يمعن فى الغرابة ، ولم يسفل إلى لغة السوقة .

والجيد عند الفقهاء والمحدثين : ما لاءم أصلا من أصول الدين ، أو غرضاً

من أغراضه ، أو نزعة من نزعاته .

ومن هنا كان يونس بن حبيب وأبو عبيدة يؤثران الفرزدق على جرير ، وكان بشار وأبو نواس يؤثران جريراً على الفرزدق . ولما كُلّم بشار فى ذلك قال : ليس ذا من عمل أولئك القوم ، إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أنْ يقول مثله إلخ . . . وروى مثل هذا فى أمر أبى نواس ومسلم ، فقد كان الأدباء والشعراء يفضلون أبا نواس ، وكان ثعلب يفضل مسلماً . وسئل البحترى عن ذلك ففضل أبا نواس ، فلما ذكر له أمر ثعلب قال كلاماً كالذى قاله بشار .

ولعل مما يمثل لك هذا المعنى تمثيلا حسناً ما كان بين المأمون وابن الأعرابى. فقد سأل المأمون هذا الإمام اللغوى عن أجود ما قيل فى الخمر ، فأخذ يذكر له شعر الأعشى والأخطل ، ومما رواه له قول الأعشى :

تُرِيكَ الْقَذَى مِنْ فَوْقِها وهْىَ فَوْقَهُ   إِذَا ذَاقَها مَنْ ذَاقَها يَتَمَطَّقُ

فلم يحفل المأمون بشىء من ذلك ، بل آثر قول أبى نواس :

فَتَمَشَّتْ فِى مَفَاصِلِهِمْ   كَتَمَشِّى الْبُرْءِ فِى السَّقَمِ
فَعَلَتْ فِى الْبَيْتِ إِذْ مُزِجَتْ   مِثْلَ فِعْلِ الصُّبْحِ فى الظُّلَمِ
فَاهْتَدَى سارِى الظَّلَامِ بِهَا   كاهْتِدَاءِ السَّفْرِ بِالْعَلَمِ

فانظر إلى هذين الذوقين المختلفين ، فأما المأمون فحضرى يؤثر المعنى الجيد فى اللفظ السهل ، وأما ابن الأعرابى فمحب للغريب ، مؤثر للفظ الجزل .

وكان أبو عمرو الشيبانى يقول : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لاحتججنا بشعره . وكان كثير من أئمة اللغة والفقهاء والمحدثين والمتكلمين يعجبون بأبى نواس ، ولا يكرهون منه إلا هذا الرفث والمجون ؛ ذلك لأن مقامهم وصناعاتهم كانت تضطرهم إلى هذا التحفظ .

فأما الأدباء والشعراء ومن إليهم فكانوا يعجبون بأبى نواس إعجاباً لا حد له ، لا يصرفهم عنه أنه آثر السهل على الغريب ، أو الهزل على الجد ، وربما رغّبهم ذلك فى شعره ، وحبب إليهم سيرته .

ولو أنى ذهبت أروى لك آراء هؤلاء العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، فى أبى نواس ، لأطلت عليك إطالة ثقيلة مملولة ، ولكنك تستطيع أن تصدقنى ، وأن ترجع إلى الكتب فترى أن إجماع هؤلاء منعقد على أن أبا نواس أشعر المحدثين ، لا يستثنون منهم إلا بشار بن بُرد .

ومع هذا فلست أرى لهذا الإجماع قيمة ولا خطراً ، لأن القوم حين استحسنوا شعر أبى نواس لم يستحسنوه عن درس مفصل مستقصى ، وإنما كان يعجب أحدهم البيت أو البيتان أو المقطوعة أو القصيدة ، فلا يأبى أن يقول إن أبا نواس أشعر الناس ، فانظر إلى من فضل أبا نواس على الشعراء جميعاً لأنه قال :

يَا قَمرًا أَبصَرْتُ فى مَأْتَمٍ ... يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ

القصيدة . . .

وانظر إلى الأصمعى يفضل أبا نواس لأنه قال :

أَمَا تَرَى الشَّمْسَ حَلَّتِ الْحَمَلاَ ... وَقامَ وَزْنُ الزَّمَانِ فَاعْتَدلاَ

وانظر إلى ابن الأعرابى ، الذى كان يفضل أبا نواس على الشعراء جميعاً لقوله :

تغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِى بِظِلِّ جَنَــاحِهِ ... فَعيْنِى تَرى دَهْرِى وَلَيْسَ يَرَانِى

فَلَوْ تُسْأَلُ الأَيَّامُ مَا اَسْمِى لَمَا دَرَتْ ... وَأَيْنَ مَكَانى مَا عرَفْنَ مَكَانِى

وانظر إلى أبى العتاهية والعتّابى ، اللذين كانا يفضلان أبا نواس على الشعراء جميعاً لقوله :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ ... فَأَنْتَ كما نُثْنِى وَفَوْقَ الَّذِى نُثْنِى

وكان أبو نواس نفسه يفضل أبا العتاهية على الشعراء جميعاً لقوله :

النَّاسُ فى غَفَلاَتِهِمْ ... وَرحَا المَنِيةِ تَطْحَنُ

وفضّل المبرد أبا نواس على المحدثين جميعاً ، لأنه شبب ومدح فى أربعة أبيات ، فقال :

تَقُولُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِحْدَى نِسَائِهِمْ ... لِىَ الكَبِدُ الْحَرّى فَسِرْ وَلَكَ الصَّبْرُ

وَقَدْ خَضَبَتْها عَبرَةٌ فَلِدَمْعِها ... عَلَى خَدِّهَا خَدٌّ وَفِى نحْرِهَا نَحْــرُ

وَقالَتْ إلى العَبَّاسِ؟قُلْتُ فَمَنْ إذَنْ   ومَالِي مِنَ الْعَبَّاسِ مَعْدًى وَلا قَصْرُ
فهَلْ يَكْلَفَنْ إلاَّ بِرَاحَتِهِ النَّدَى   وَهَلْ يَزْهُوَنْ إلاَّ بِأَوْصَافِهِ الشِّعْرُ

وأعجب من هذا أن هؤلاء الناس الذين كانوا يفضلون أبا نواس فى هذه اللحظة ، كانوا يفضلون غير أبى نواس فى لحظة أخرى ، فلو أنك أردت أن تعرف من شعر الناس عند هؤلاء الأدباء والعلماء ، لكان الناس جميعاً أشعر الناس !

وما زال العرب يسأل بعضهم بعضاً من أشعر الناس ؟ فيجب المسئول أشعرهم من قال ، ثم يروى بيتاً أعجبه ، ولا يمنعه ذلك أن يروى غداً بيتاً آخر لشاعر آخر ، على أن هذا البيت أجمل الشعر ، وعلى أن هذا الشاعر أشعر الناس ، وعلى هذه القاعدة وصل كل شاعر إلى هذه المنزلة ، لأن لكل شاعر بيتاً جيداً على أقل تقدير .

فأنت ترى أن مثل هذه الأحكام لا يمكن أن يطمئن إليها ناقد فى نفسها ، ولا أن يطمئن إليها من حيث إنها تمثل آراء أصحابها ؛ فإن هؤلاء النقاد إنما كانوا يجيبون بما يحضرهم لا أكثر ولا أقل .

ومع هذا كله فما زلت أرى أن معاصرى أبى نواس كانوا يقدمونهُ ويدينون له بالزعامة ، وليس هذا الاقتناع عندى أثراً من آثار هذه الأحكام التى رويت لك طرفاً منها ، وإنما هو أثر القراءة الطويلة فى الكتب الكثيرة ، وأثر الموازنة بين الشاعر ومن عاصره ومن جاء بعده .

كان القدماء يؤثرون أبا نواس على معاصريه ، وكانوا فى ذلك محقين ، ولكنهم لم يقولوا ، ولعلهم لم يعلموا ، لماذا كانوا يؤثرون أبا نواس ؟ فمن الحق أن نبحث نحن عن مصدر هذا الإيثار ، أو عن مصدر هذا التفوق الذى ليس فيه شك ، وأن نبحث عن هذا المصدر ، لا كما بحث المتقدمون فى البيت أو البيتين أو القصيدة ، وإنما فى الديوان كله ، ومن الحق ألا يكون سبيلنا فى هذا البحث جودة اللفظ والمعنى وحدهما ، إنما سبيلنا فيه اللفظ والمعنى ، وما بين اللفظ والمعنى ونفس الشاعر من صلة ، وما بين نفس الشاعر وعصره من صلة أيضاً ، وهذا هو الذى سنبدأ به فى الأسبوع الآتى .

إلى الأستاذ طه حسين [1]

سيدى الأستاذ !

أطالع بشوق وإمعان مقالاتكم الأسبوعية على أدب القدماء والمحدثين ، أو « حديث الأربعاء » ، ومما يلفت النظر ، ويستدعى التمحيص والحذر فى ذلك الحديث ، حكمكم أن أبا نواس ومن فى طبقته أو على شاكلته من الشعراء كانوا مثالا صادقاً للعصر الذى عاشوا فيه ، وأن الرشيد والمأمون ذهبا من الشك والاستمتاع باللذائذ فى ذلك العصر ، مذهب أبى نواس وأضرابه من شعراء المجون ، وقد سردتم طائفة من الشعر والأخبار المنسوبة إليهم ، واستنتجتم منها ذلك الحكم الذى يحتاج إلى تمحيص كثير .

نعم ! إن المقدمات التى استخرجتم منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة لأول وهـلة ، لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناقليها وقائليها ، وهم معروفون مشهورون فى التاريخ ، لكن هذا وحده لا يكفى لمثل ذلك الاستنتاج ، ولا تبنى عليه أحكام سوداء فى تاريخ أبيض ناصع ، كتاريخ الرشيد والمأمون ومن عاصرهما من العلماء والفضلاء ، وأرى أن الأستاذ تعجل فى الحكم ، لتلقيه أخبار أبى نواس وما نقل إلينا من شعره ، كأخبار صحيحة لاغبار على نسبتها إليه ، وصدورها عنه ، وهذا لا يصح للمؤرخ الممحص التسليم به ، والسكوت عليه .

إن الحقائق التاريخية ، ولا سيا فى تاريخ الإسلام ، تشبه الدر الملقى بين أشواك ، يحتاج مريد استخراجه من تلك الأشواك ، إلى أناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الشوك . ولا نريد أن نذهب بعيداً فى مذاهب الشك التى ذهب إليها الأستاذ ، وإنما يكفى أن ننبهه بما نقول — وهو العليم — إلى ما عاناه رواة الحديث ، ونقلة الأخبار النبوية فى تمحيص تلك الأخبار

(١) نشرت بالسياسة فى ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ — ٧ فبراير سنة ١٩٢٣ .

وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ، ولا سيما فى أيام الفتنة الكبرى التى انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية ، كانت تعمل للسياسة باسم الدين ، وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية ، وإن كان فيه مساس بالدين وتشويه له ، هذا فيما له صلة بأصل الشريعة ، وانتساب إلى صاحب الشرع ، فما بالك بأخبار الخلفاء ووقائع التاريخ وأخبار الناس !

نقرأ شيئاً فى التاريخ وشيئاً فى كتب القصاصين ، عما أنتجه التنازع بين الشيع الدينية والسياسية على الأصح ، فى عصور المحنة التى مرت على المسلمين ، نقرأ فى كتب التاريخ أخباراً نسبها شيع العباسيين إلى خلفاء بنى أمية ، وأخباراً نسبها شيع آل علىّ إلى خلفاء بنى العباس ، هى أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك أو سمهم ما شئت ، كانوا فى مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والملك ، وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة فى المنزلة التى أنزلهم إليها الوضاعون ، ويدوم لهم طويلا ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة فى التاريخ .

ونقرأ ما هو أقبح من ذلك فى كتب القصاصين منسوباً إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب .

فلو سلمنا بكل ما جاء فى تلك الكتب والأقاصيص ، واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق ، لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى ، التى نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد .

الحقيقة التى ينبغى أن تقال ، إن التنازع السياسى بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأخباريين شوائب فى التاريخ الإسلامى ليست هى منه فى شىء ، وإنما هى من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك ، أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية أو الدينية .

ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملفقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة ، لم يكن فى إنكاره إلا على حق لما عرف عنه من بعد النظر فى التاريخ وصحة بحثه فى طبائع الاجتماع وأخلاق الأمم ومنازعها ،

شأن كل مؤرخ بحاث لا يلقى الـكلام على عواهنه ، ولا يأخذ الحوادث بظواهرها ، ولا شك عند كل منصف أن ابن خلدون أوثق وأصدق كلاما من أبى نواس وأمثاله من المجونيين ، هـذا إذا صحت كل أخبار المجون المنسوبة إلى هؤلاء .

أما القصص أو كتب القصاصين فلها شأن آخر ، لأن واضعيها إنما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية ، أو سياسية ، أو دينية . أما الأغراض التجارية فهى الكسب والانتفاع ، وأما البواعث السياسية أو الدينية ، فهى منع العامة عن الخوض فى سياسة الخلفـاء والحكام ، والخوض فى أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن ؛ إذ من المعلوم أنه لم يكن فى القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العـامة ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ ، وهم بالضرورة فى حاجة إلى الاجتماع ، فكانت أكثر أحاديثهم فى مجتمعاتهم ، تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصدر الأول لقرب العهد به ، ثم سياسة الخلفاء وحكامهم ، وقد كان ذلك يجر فى كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما نقرأ فى أخبار أهل السنة والشيعة فى بغداد عاصمة الملك والخلافة ، وكانت هذه المنازعات والفتن تفضى أحياناً إلى إهراق الدماء بين العامة . الذين يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه ، بلا علم ينفع ، أو فهم يردع .

فكان هذا سبباً على ما يظهر لتفكير العلماء فى وسيلة من الوسائل تشغل العامة عن الخوض فى مثل تلك الأخبار ، فأخذ بعض الأذكياء فى وضع قصص تتلى فى المجتمعات ، فيلهو بها العامة عن الأخبار المثيرة للعواطف أو الأحقاد ، فكان منها المختصر المبعثر فى ثنايا الكتب ، ومنها المطول المجموع فى كتب على حدة ، ومن ذلك أخبار الفتوحات ، كفتوح الشأم ، وفتوح مصر ، وفتوح اليمن ، المنسوبة إلى الواقدى وهى ليست له . وكتاب قصة عنترة العبسى وواضعها مجهول ، وكتاب ألف ليلة وليلة وكاتبها مجهول أيضاً ، وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك .

ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار ، وأصبحت ضرورة من

ضرورات الحياة ، لأن فيها نوعاً من التلهى وترويح النفس ، تنافس الرواة والقصاصون فى تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة فى كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك . . . فكان منها الغث والسمين ومنها الملفق والقريب من الصحة .

وقد غالى بعض الأخباريين فى إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس فى الشهوات ، مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلوّ والتلفيق ، لما فيها من العبث بالأخلاق ، والتجرد عن معنى الأدب ، الذى أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم بسبب كبير ، ينافى ما ينسب إليهم من اطراح رداء الحشمة والمروءة . ولا أظننى مخطئاً إذا قلت إن ما نقل من هذا القبيل عن أبى نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر ، ويسميه حضرة الأستاذ طه حسين عصر الشك والمجون ، ويتخذه دليلا على حكمه على أهل ذلك العصر ، إنما هو تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، وإما سد نهمات العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة . على أنه لو صح شىء منه ، لما كان لنا أن نتخذه دليلا على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر ؛ لأنه مجون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول إلى النيل من سواه باسم المجون .

على أنى أعتقد كما قلت إن ما نسب إلى أولئك الشعراء كأبى نواس وبشار ومن فى طبقتهما محل للشك ، ولا سيما إذا صح أن شعر أبى نواس لم يجمع فى كتاب (ديوان) على حدة فى حياته ، وإنما جمعه رواة القصص وأخبار شعراء المجون ، وتناولوه بعد وفاته بزمن قريب أو بعيد ، ومحل هؤلاء الرواة من الثقة أو عدمها ، لا يحتاج إلى تعريف بعد الذى قدمناه ، وحسبنا أن الأستاذ طه حسين نفسه تردد فى قبول رواية عبدوس عن المقاطيع الشعرية التى قال إن أبا نواس أنشدها له قبيل وفاته فى أيام متتابعة فى التوبة والاستغفار ، تردد الأستاذ فى صحتها: وقال إنها قصة متكلفة من غير شك ، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر فى أوقات مختلفة من حياته .

فالذى جوّز للأستاذ الشك فى صحة هذه القصة يجوز الشك فى صحة

أكثر القصص ، والروايات التى نقلت عن أبى نواس وغـيره من شعراء المجون ، ويثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية ، فلا يصح أن تتخذ مثالا صادقاً لذلك العصر ، وإذا قرئت فإنما تقرأ لأن فيها فكاهة وترويحاً للنفس لا لأنها أمثـلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جدّ لا هزل ، وعصر نهضة علمية بلغت فيه أقصى ما يمكن أن تبلغـه أمة فى عشـرات من السنين .

ولقد أحسن الأستاذ فى مقالته الأخيرة بالإشارة إلى ذلك فى قوله « إنه لا يرغب أن تكون حياتنا كلها خلاً ، وإنما يريد ألا تخلو من الفكاهة واللذة ». فإن فى قوله هذا دليلا على أنه يريد أن يخفف عن أبى نواس عبء الحمل الذى ألقاه على عاتقه ، وأن يستدرجنا ، ونعم ما فعل ، إلى الشك فى صحة تلك القصص المخزية ، وأنه إنما أوردها للفكاهة ، ولا سيما بعد أن عزز ذلك بقوله « إن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ، ولا رجلا لا يؤبه له ، وإنما كان ذا مكانة عالية ، وعالية جداً » ثم سرد عن تاريخ الحافظ بن عساكر أسماء من رووا عن أبى نواس ، وروى عنهم أبو نواس .

ولا جرم أن المجاهرة بالمجون ، والاستمتاع باللذات ، ثم رواية الحديث ، نقيضان لا يجتمعان ، وهذا ما يؤيد رأينا فى أن أكثر ما نقل عن أبى نواس وأضرابه من شعراء المجون ، إنما هى روايات قصصية بعيدة عن الصحة ، وأنه لا يصح أن تتخذ دليلا على حالة الأمة الروحية والخلقية فى ذلك العصر ، وفوق كل ذى علم عليم .

رفيق العظم

رد على نقد[1]

كيف تفهم التاريخ ؟– المؤرخون فى عصور المجد – المؤرخون فى عصور الانحطاط .

ما زلت أذكر هذا المقال الرائع الذى نشرته « السياسة » للأستاذ رفيق بك العظم منذ أسبوعين ، ووعدت بالرد عليه ، ثم حالت حوائل بينى وبين هذا الرد إلى الآن . ما زلت أذكر هذا المقال ، وأريد أن أرد عليه ؛ فإن الخلاف بين هذا العالم الجليل وبينى لا يتناول أشياء مفصلة فحسب ، وإنما يتناول مبدأ عامًّا قبل كل شىء .

وقد عرف الناس رأى هذا العالم الجليل فى هذا المبدأ ، وأريد أن يعرف رأيى فيه ، ولست أدرى أأطمع فى إقناع هذا العالم الجليل أم أيأس منه ؟ لأن الخلاف بينه وبينى جوهرى جدًّا ، وشديد جدًّا ، يذهب مذهباً فى التاريخ وفهمه ، وأذهب مذهباً آخر فى التاريخ وفهمه ، ويخيل إلىّ أن ليس إلى الاتفاق بين هذين المذهبين من سبيل .

لايزال العالم الجليل رفيق بك العظم ، وكثير من العلماء المعروفين فى الشرق ، يسبغون على التاريخ الإسلامى صفة من الجلال والتقديس الدينى ، أو الذى يشبه الدينى . تحول بين العقل وبين النظر فيه نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح ، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجـلال خطرهم وتقديس مكانتهم ، وهم يضيفون إليهم كل خير ، وينوهونهم عن كل شر ، وهم يصفونهم بجلائل الأعمال ، ويرفعونهم عن صغائرها ، وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث ، ومقياساً من مقاييس النقد ، فإذا أضفت إلى الرشيد شيئاً فليس هذا الشىء صحيحاً إلا إذا كان فى نفسه خليقاً بالرشيد ، يليق به وبمكانته ، وليست هذه المكانة هى مكانته فى نفسها ، وإنما هى المكانة

(١) نشرت بالسياسة فى ٦ رجب سنة ١٣٤١ – ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٣ .

التى خلعها عليه القدم ، وبعد العهد ، وجلال الخلافة ، وكرامة الدين ، وسطوة الأمة العربية .

فأما النقد التاريخى من حيث هو نقد تاريخى ، فأما النظر إلى الناس من حيث هم ناس ، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم ، والملاءمة بين هـــذه الأخلاق والعادات ، وما اكتنفها من الظروف والأحوال ، فذلك شىء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه .

ولست أغض من هؤلاء العلماء ، وإنما أجلهم وأكرمهم ؛ وحسبك أن إمامهم فى هذا المذهب هو ابن خلدون . ولعلك تعلم أنى أجل ابن خلدون وأكبره ، ولكنى أخالفهم فى الرأى، وأرى أن مذهبهم فى التاريخ غير مستقيم ، وأنه خليق بأن يتغير ، وأنه سيتغير بدون شك ، بل أنا أرى أكثر من هذا ، أرى أن هذا المذهب — مذهب تقديس السلف وتنزيهه عن الصغائر ، مذهب إسباغ الدين على التاريخ — طور من أطوار التاريح لا بد من أن يمر به ، بل طور من أطوار الحياة العقلية والسياسية للناس ، لا بد من أن يمروا به ، وقد خضعت لهذا الطور أمم أخرى غير العرب ، فكتب مؤرخوها كما يكتب الأستاذ رفيق بك العظم ، ورأوا فى الآباء والأجداد ما يرى فى قدماء العرب .

ذلك أن هذه الأمم إذا اضطرتها صروف الحياة إلى أن تنزل عن مجدها ، وتنحط عن مكانتها العـــالية ، فتخضع لحطوب الدهر حيناً ، وتنام عن العزة والسلطان ، ثم استفاقت من هذا النوم ، وتنبهت بعد الغفلة ، وطمحت إلى أن تسترد المجد القديم ، وتستأنف سيرها فى سبيل العلياء ، فأول شعور تجده فى نفسها إنما هو الشعور بهذا المجد القديم ، والحاجة إلى إجلال أصحابه وإكبارهم واتخاذهم مثُلا عليا .

فأنت لا تنظر إلى هؤلاء الناس نظراً علمياً مجرداً بريئاً، وإنما تنظر إليهم نظراً متهماً ، ملؤه الإعجاب والإكبار ؛ لأنك تتأثرهم ، وتحتذى على مثالهم . وإذن فرأيك فيهم غير صحيح ، وحكمك لهم أو عليهم متهم ، وكيف تستطيع أن تجمع بين الإعجَاب الذى لا حد له ، وبين النقد العلمى الذى

لايعرف الهوى ، ولا يتأثر بالميول والعواطف ! ومن هنا يتأثر بحثك ونقدك بهذ الإعجاب ، وهذا الميل إلى الاحتذاء والتقليد ، فتصرف همتك إلى أن تبرئ موضع إعجابك من كل عيب ، وتدفع عنه كل مكروه ، وتبذل ما تستطيع من قوة وجهد ، لتوجد فنًّا من النقد التاريخي له قيمته وخطره .

ولكن الغاية التي يسمو إليها ليست علمية بالمعنى الصحيح . لأنه يسمو إلى التنزيه والتمجيد ، لا إلى التحقيق الذى لا يسمو إلى مدح ولا إلى ذم . والذى لا يحفل بحمد أو هجاء .

انظر إلى مقدمة ابن خلدون ، وإلى القسم الأول من هذه المقدمة ، انظر بنوع خاص إلى منهجه التاريخي ، وإلى هذا النقد الذى بسطه ليبين أغلاط المؤرخين وتورطهم فى ضروب من الخطأ فى الحكم ، تجده قد تصور قواعد علمية لا بأس بها ، فهو يكره الغرض والهوى ، ويحذر من أخطار كثيرة تحيط بكاتب التاريخ ، ويحبب إليك ، أو يحتم عليك ، تحكيم العقل فيما يروى لك من الحوادث ، وهو يصل من هذا كله إلى استكشاف قوانين قيمة فى النقد التاريخي ، ولكنه لا يكاد يعرض لتطبيق هذه القوانين كما يقولون ، حتى يتورط فى مثل ما تورط فيه المؤرخون من قبل ، لأنه متأثر بمجد القدماء ، وصلاح القدماء ، وطهارة القدماء ، وانحطاط المعاصرين ، وفساد أخلاقهم وأحوالهم .

فهو إذا أراد مثلا أن يصحح نسب الدولة الإدريسية فى المغرب الأقصى لم يعمد إلى بحث تاريخي ، وإنما استدل على صحة هـــذا النسب بحديث شريف ، فيه أن الولد للفراش وللعاهر الحجر . وهو إذا أراد أن يدفع عن الرشيد ما اتهم به من العبث والمجون ، لم يذهب مذهب المؤرخين فى ذلك ، وإنما تحدث إليك بأن الرشيد كان يصلى مائة ركعة فى اليوم ، وكان يحج سنة ويغزو سنة أخرى ، وإذا كان هذا شأنه فليس من الممكن أن يعبث ، ولا أن يلهو .

ولم يفكر ابن خلدون فى أن من حق مؤرخ آخر ، أن ينكر عليه أن الرشيد كان يصلى مائة ركعة فى اليوم ، أو أن يزعم له أن الرشيد كان يجمع بين

الصلاة وبين العبث ، ولم يخطر ذلك لابن خلدون ، لأن ابن خلدون كان يعجب بالرشيد ويكبره ، ويريد أن يضعه هو وأمثاله من الخلفاء موضع القدوة الصالحة والمثل الأعلى .

ولقد أذكر رسالة صغيرة قرأتها للمؤرخ اليونانى « بلوتارك » « Plutarque » قصد بها إلى نقد « هيرودوت » « Hérodote » واتهمه فيها بالكذب والافتراء ، وكان لهذه الرسالة فى العصر القديم شهرة أساءت إلى « أبى التاريخ » فظن فيه الناس الظنون ، لأنه اتهم قدماء اليونان وأبطالهم فى الحرب الفارسية اليونانية بالنقائص المختلفة ، فوصف بعضهم بالخيانة ، وبعضهم بالغدر ، وبعضهم بالجبن ، وبعضهم بالرشوة . ونهض « بلوتارك » للدفاع عن هؤلاء الأبطال فزعم أن « أبا التاريخ » كاذب . وأن هؤلاء الأبطال أرفع مكانة ، وأعلى منزلة ، وأجل خطراً ، من أن يقعوا فى مثل هذه الآثام .

وفتن اليونان بهذا النقد لأنه يبرئ الآباء والأجداد من هذه النقائص ، فلما كان العصر الحديث ، وكان استكشاف الآثار اليونانية ، وكان استكشاف مناهج النقد الحديثة فى التاريخ ، ظهر أن « هيرودوت » لم يكذب ولم يتكلف ، وأن « بلوتارك » هو الذى تكلف تقديس الناس وتبرئتهم مما لا يبرأ منه الناس

وليس هذا بغريب ، فقد عاش « أبو التاريح » فى أيام مجد اليونان وعزتهم ، فلم يكن يؤذيه ، ولم يكن يؤذى اليونان ، أن يصف أبطالهم بما لا يسلم منه الناس من العيوب ، وعاش « بلوتارك» أيام ذلة اليونان ، وانحطاطهم السياسى ، فكانت هذه النقائص تؤذيهم . وكانوا محتاجين إلى المبالغة فى مجدهم التليد حين أعوزهم المجد الطريف .

هذه حالنا . . . ليس لنا مجد ولا مأثرة ؛ فنحن ننتحل مجد الآباء. والأسلاف زينة لنا وافتخاراً . ويخيل إلينا أن وصف هذا المجد بأوصافه الطبيعية لا يغض من الأسلاف وحدهم ، وإنما يغض منهم ومنا . أليس كذلك وإلا فما مفاخرتنا بالعرب ؟ وما مفاخرتنا بالفراعنة؟ وما مفاخرتنا بآثار العرب والفراعنة ؟ ضرب من الغرور ، نخفى به ما نحن فيه من جهل وانحطاط وضعف .

لقد كان رواة العرب ومؤرخوهم الذين عاشوا أيام مجد العرب وعزتهم ، لا يكرهون أن يصفوا خلفاء العرب وأمراءهم ، بما يتصف به الناس من نقص لأن هذا الوصف لم يكن يؤذيهم ، ولا يؤذى العرب فى أيامهم ، وحسبك أن تقرأ ، لا أقول كتاباً بعينه ، وإنما أقول فى أى كتاب من كتب الأدب والتاريخ ، لترى خلفاء العرب وأمراءهم وذوى المكانة فيهم ، يوصفون بالخير والشر ، وبالرفعة والضعة ، بما هو مشرف وبما هو مزر ، ذلك لأن هؤلاء الناس كانوا ناساً لا ملائكة .

يقول الأستاذ وأصحابه إن هذه الأخبار مختلقة منتحلة ، وأنا أول من يعترف بأن كثيراً من الأخبار مختلق منحول ، ولكنى لا أستطيع أن أومن بأن كل خبر يصف القدماء بما لا يرضى منحول ، وأن كل خبر يصفهم بما يرضى صحيح .

هذا إسراف ، وإسراف كثير ، وإنما القصد والإنصاف هو أن تعرض لهذه الأخبار المختلفة بالنقد والتمحيص ، فتتبين بقدر ما تستطيع ما كان منها صادقاً ، وما كان منحولا ، وأنا أزعم أن كثيراً جداً من هذه الأخبار صادق ، وأزعم أن كثيراً جداً من خلفاء بنى أمية وبنى العباس كانوا كما يقول الرواة يعبثون ويصطنعون ضروب اللهو ، ويستمتعون بفنون من اللذات كان يكرهها الدين . لقد كان « أغسطس » و « تيبريوس » و « نيرون » كبار الكهنة فى روما ، ولكنهم كانوا قياصرة أيضاً ، فكانوا يؤدون للدين حقه ، وكانوا يؤدون للدنيا حقها .

ولقد كان لويس الربع عشر والخامس عشر مظهراً لقوة المسيح فى فرنسا ، ولكنهما كانا فى الوقت نفسه مظهراً لسلطان الفرنسيين ، وثروة الفرنسيين ومجون الفرنسيين ، فكانا يصليان ، وكانا يعبثان ، وكانا يسمعان وعظ آباء الكنيسة وخطباتها ، وكان هذا الوعظ يوجه إليهما عنيفاً مخيفاً كأنه الصواعق ، فيعجبان ويفزعان من سخط الله ، ثم ينصرفان إلى القصر فما هى إلا أن يتورطا فى الموبقات .

ولا تقل كان هذان مسيحيين ، وكان قياصرة الرومان وثنيين ، وكان

خلفاؤنا مسلمين . فقد تختلف الديانات فى جوهرها . ولكن الأثر الدينى فى نفوس الناس واحد لا يكاد يختلف . فمن المسيحيين والوثنيين أتقياء ورعون . كما أن من المسلمين والإسرائيليين أتقياء ورعين ، ولا تقل إن مجد العرب وما كانوا يأتون من جلائل الأعمال وما كانوا يقومون به من فتح وبسط للسلطان ، كان يحول بينهم وبين اللهو والعبث ، فأنا أؤكد لك أن « أغسطس » لم يكن خاملا ولا عاجزاً . وأن لويس الرابع عشر لم يكن كسلا ولا مغرقاً فى النوم .

وما رأيك فى أن عصر الثورة الفرنسية ، وهو عصر هذا الجد المفزع المخيف ، كان أشد العصور الفرنسية دعابة ومجوناً ، وكانت تجرى فيه أنهار الدماء وأنهار الخمر !

وما رأيك فى هذا العصر الذى نعيش فيـــه ؟ وما رأيك فى الحرب الكبرى ، وما جرّت على أوربا من هول ؟ أتظن أن الأوربيين انصرفوا إلى جد هذه الحرب وأخطارها ، عما فى الحياة من عبث ولهو ؟ كلا ! لقد ازداد سلطان اللهو فى أوربا ، ولقد كان الجندى يقتتل ويتعرض لألوان الهول ، حتى إذا ظفر باليوم أو الأيام بعيداً عن ساحة القتال ، اندفع فى لذاته وشهواته اندفاعاً لم يكن يعرفه قبل الحرب . . . ماذا أقول ؟ لقد كانت تحمل إليهم اللذات فى ميدان القتال ، فكانت أصوات المدافع ودويها لا تمنع أصوات المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات أن تصل إلى آذان الجند ، وكانت المنايا ترقص أمام هؤلاء الجند فتروعهم ، فإذا سلموا منها وظفروا بوقت الراحة ، ذهبوا فاستمتعوا برقص الراقصات ، ولم يمنعهم هذا كله أن يظفروا بالمجد سواء منهم الغالب والمغلوب .

فلم يكن إذن ليمنع الأمويين والعباسيين أن يستمتعوا بلذات الحياة ، ولم يكن الفتح ليمنعهم أن يستمتعوا بهذه اللذات ، ولم يكن العـــلم ليحول بينهم وبين ذلك ، فما كان حظهم من العلم ، بأكثر من حظ المعاصرين من أهل أوربا وأمريكا ، ولقد كان حظهم من اللذة أقل من حظ المعاصرين من أهل أوربا وأمريكا .

خليق بنا أن نتدبر حين نقرأ التاريخ ، ونحاول فهمه وتفسيره . خليق بنا أن نفهم قانونين وضعهما ابن خلدون ، ولكن أن نفهمهما أحسن مما فهمهما ابن خلدون . وهما : أن الناس جميعاً متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم ، وأن الناس جميعاً مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبه .

يجب أن نفهم هذين القانونين ، وأن نحسن الملاءمة بينهما . وأن نعرف فيم يختلف الناس ، وفيم يتشابهون ، وما أثر هذا الاختلاف وهذا التشابه ؟ ونحن إذا فهمنا هذين القانونين عرفنا أن العصر العباسي قد كان كغيره من عصور المجد والحضارة ، فيه جد وهزل ، وفيه شك ويقين .

وأنا أزعم — وأعتقد أني قادر على إثبات ما أزعم — أن القرن الثاني للهجرة قد كان عصر لهو ولعب ، وقد كان عصر شك ومجون ، وكل شيء يثبت صحة هذا الرأي ، فقد كان هذا العصر عصر انتقال من بداوة إلى حضارة ، ومن سذاجة إلى تعقيد ، ومن فطرة خالصة إلى علم وفلسفة ، وقد كان فوق هذا كله عصر امتزاج بأمم مختلفة ، وشعوب متباينة ، منها البدوي والحضري ، ومنها الجاهل والعالم ، ومنها الغني والفقير .

أفتريد أن تختلط هذه الأمم وتمتزج هذه الشعوب ، دون أن تضطرب لهذا الاختلاط والامتزاج أخلاق وعادات ونظم ؟ دون أن ينهار بناء قديم ويقوم بناء جديد ؟ إنك لا تستطيع أن تمزج طائفة من عناصر الكيمياء المختلفة دون أن يحدث لهذا الامتزاج اضطراب وانقلاب جديدان ، أفتريد أن يمتزج العربي والفارسي والمصري والرومي ، وأن تبقى الأخلاق والعادات كما كانت دون أن ينالها فساد أو اضطراب ؟ ذلك شيء تستطيع أن تفترضه في الخيال ، فأما في الحياة الواقعة فليس إليه من سبيل .

ها نحن أولاء عاشرنا الأوربيين معاشرة ليست بالقوية ولا المتصلة ، فانظر إلى أثرها القوي العميق في حياتنا العامة والخاصة ، ثم حدثني عما يمكن أن يحدث لو أن الاتصال بيننا وبين الأوربيين كان من القوة والعمق مثل الاتصال بين العرب والفرس والروم ، لست أدري لم تفرق بين هذه العصور والأجيال المتشابهة وإن اختلفت ، المتفقه وإن افترقت .

يجب أن نفهم قانونى ابن خلدون . فالناس جميعاً متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم . مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبه .

أنا أزعم إذن أن القرن الثانى للهجرة كان عصر شك ومجون ، وأزعم أن كل شىء فى هذا العصر يؤيدنى فى هذا الرأى . وحسبى أن ألفت الأستاذ رفيق بلك إلى أن هذا القرن قد بدأ بخلافة الوليد بن يزيد ، وختم بخلافة الأمين ابن الرشيد ، وأحب أن يقارن بين هذين الخليفتين ، ثم ألفت الأستاذ إلى بشار ، ومطيع ، وأبى نواس ، والرقاشى ، والعباس بن الأحنف ، ومسلم ابن الوليد ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، وابن المقفع ، وأبان بن عبد الحميد ، وغيرهم من الشعراء والكتاب والمفكرين ، ولا أريد أن أذكر الفقهاء وأصحاب الكلام مخافة أن يغضب المتحرجون .

ألفت الأستاذ إلى هؤلاء جميعاً ، وأحب أن يقرأهم ويدرس حياتهم على هذه القاعدة وهى أنهم ناس لا ملائكة . ولكنى أخشى ألا يفعل الأستاذ لأنه اتخذ لنفسه قاعدة تقديس القدماء ، أما أنا فلا أقدس القدماء ، وإنما أنظر إليهم كما أنظر إليك وإلى نفسى ، وأعلم أنهم مثلك ومثلى يجدّون ، ويمزحون ، يحسنون ويسيئون ، وعلى هذه القاعدة وحدها حدثتك فيما مضى ، وعلى هذه القاعدة نفسها سأحدثك فى الأسبوع الآتى عن الخمر عند أبى نواس .

الخمر قبل أبي نواس[1]

الأعشى – عدى بن زيد العبادى –
المنخل اليشكرى – عصر الخلفاء –
عصر الأمويين–الأخطل–الوليد بن يزيد.

لا يمتاز أبو نواس من معاصريه بالمدح ولا بالهجاء ، ولا بالفخر ، ولا بالوصف ، ولا بغير هذه الفنون مما ألف الشعراء المتقدمون أن يخوضوا فيه ، وإن كانت شخصية أبي نواس ظاهرة محببة إليك وإلىّ فى هذه الفنون نفسها ، كما سنرى ذلك عند ما نعرض لهذا النحو من شعره ، وإنما يمتاز أبو نواس بشعره فى الخمر ، وبافتنانه فى المجون كما يمتاز بغزله وحسن مداعبته للنساء والغلمان .

ومع هذا فأبو نواس لم يخترع هذه الفنون ، ولم يسبق إليها ، بل هو لم ينفرد بها فى عصره ، وإنما سبقه إليها كثير من الشعراء فى الجاهلية وفى الإسلام ونافسه فيها كثير من معاصريه إن لم نقل جميع معاصريه ، سبقه إليها كثيرون ، ونافسه فيها كثيرون ، ولكنه امتاز ممن سبقه ومن عاصره ومن لحقه ، وظل زعيم القدماء ، وزعيم المحدثين فى الخمر والغزل والمجون .

ولو أننا نعنى فى هذه الأحاديث بالتعميق فى البحث العلمى ، لكان من الحق علينا قبل أن نصف خمريات أبي نواس أن ندرس مع شىء من التفصيل خمريات الشعراء الذين سبقوا أبا نواس ، وأن نجتهد فى أن نتبين المقدار الذى سبق إليه أبو نواس ، لنعرف ما اخترع وما استحدث ، وليكون حكمنا له أو عليه صحيحاً من كل وجه ، ولكنك تذكر أنا لا نزعم لهذه الأحاديث صفة البحث العلمى المستقصى ، لأن هذا البحث لا يليق بالصحف السيارة ، ولا بالأحاديث التى تقرأ ، أو تسمع فى أى مكان وعلى أى حال ، دون أن يختصها القارئ أو السامع بعناية أشد من عنايته بما ينشر فى هذه الصحف من ضروب الكلام .

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١٢ رجب سنة ١٣٤١ – ٢٨ فبراير ١٩٢٣ .

قليل من شعراء الجاهلية من لم يعرض للخمر فى شعره ، فأكثر هؤلاء الشعراء كانوا يشربون الخمر ، ومنهم من كان شربه لها متصلا ، ومنهم من كان يلم بها إلماماً ، وكانوا يصفون الخمر وأقداحها وآنيتها المختلفة ، ولهم فى ذلك الكلام الجيد الكثير ، لا سيما « الأعشى » الذى أكثر فى الخمر وأطال ، واشتهر بأنه من وصافها المجيدين ، واستطاع ابن الأعرابى أن يزعم للمأمون أنه أشعر من وصف الخمر لقوله :

تُرِيكَ القَذَى مِنْ فَوْقِها وَهِيَ فَوْقَهُ ‏ ‏ ‏ ‏ إذا ذاقَهَا مَن ذاقَهَا يَتَمَطَّقُ

بل ربما كان لنا أن نقول إن أبا نواس نفسه قد عدا على الأعشى فأخذ منه شيئاً ليس بالقليل ، وأخذ منه بنوع خاص نصف هذا البيت المشهور :

دَعْ عَنكَ لَوْمِى فَإنَّ اللَّوْمَ إغْراءُ ‏ ‏ ‏ ‏ وَداوِنى بالَّتى كانَتْ هِىَ الدَّاءُ

فالصلة ظاهرة بين هذا الشطر الأخير « وداونى بالتى كانت هى الداء » وبين قول الأعشى :

وَكأْسٍ شَرِبْتُ علَى لَذَّةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

فليس من شك فى أن أبا نواس قد ذكر هذا البيت حين قال شطره السابق ، ولكنّ أبا نواس لم يأخذ اللفظ ، بل ولم يأخذ المعنى دون أن يصلح ويغير ويضيف ، فإن قوله « دع عنك لومى فإن اللوم إغراء » ليس فى شعر الأعشى ، وهو يكفى لأن يحتفظ لأبى نواس بالبيت كله ، وقوله « وداونى بالتى كانت هى الداء » يذكّر بقول الأعشى ، ولكنه ليس إياه ، لأن الأعشى لم يرد أن يقول إلا أنه كان يشرب كأساً ويتداوى بكأس أخرى ، فمعناه ضيق محدود ، فى حين قد مدّ أبو نواس هذا المعنى وبسط أطرافه ، فأصبح لا حد له ، أصبح يرافق الحياة ، أصبحت الخمر داء ملازماً لمن يشربها ، وأصبحت هى لهذا الداء ، فهو يتداوى طول حياته من الخمر بالخمر . أما الأعشى فكان يتداوى من كأس بكأس ، كان لا يذكر الداء والدواء إلا إذا شرب ، بينما أبو نواس لا ينفك يذكرهما ، لأنه لا ينفك فى داء ودواء .

وللأعشى غـــير هذا كثير ، ولكننا لا نعرض له ، لما قدمنا ، وهناك شاعر آخر جاهلى ، يظهر أنه قد عنى بالخمر وأجاد فيها إجادة لا بأس بها . وكان مسيحياً عاش قبل الإسلام ، ولم يكن بادياً بمعنى الكلمة ، وإنما كان حاضراً أو كالحاضر ، وكان يعيش فى هذا الإقليم الذى عاش فيه أبو نواس ، وكان يختلف إلى الأديرة ومساكن الرهبان التى ربما اختلف إليها أبو نواس بعده بنحو قرنين ، وكان هذا الشاعر يجيد فى معان أجاد فيها شعراء العراق ، كان يجيد فى الخمر ، وكان يجيد فى الزهد ، والنسك ، وضرب الأمثال ، وإطلاق الحكم البالغة ، كان يجيد حيث أجاد أبو نواس ، وكان يحسن حيث أحسن أبو العتاهية ، ويروى له غزل لا بأس به ، وهو « عدى بن زيد العبادى » الذى عاش فى الحيرة فى أواخر العصر الجاهلى . لم يرو الرواة له كثيراً فى الخمر ، ولكن مايروى عنه يدل على أنه كان بها كلفاً ، وفى وصفها مجيداً ، وانظر إلى هذه الأبيات القليلة ، التى يختلف فيها الرواة اختلافاً كثيراً ، والتى كانت تغنى للوليد بن يزيد فيستعذبها ويشرب عليها حتى يسكر :

بَكَّرَ الْعَاذِلُونَ فى وَضَحِ الصُّبْـ ـحِ يَقُولُونَ لِى أَمَا تَسْتَفِيقُ
وَيَلُومُونَ فِيكِ يَا ابنَةَ عبدِ اللّـ ـهِ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ
لَسْتُ أَدْرِى إِذْ أَكْثَرُوا الْعَذْلَ فِيها أَعَدُوٌّ يَلُومُنِى أَمْ صـــدِيقُ
ثُمَّ ثَارُوا إِلى الصَّبُوحِ فَقَامَتْ قَيْنَـــةٌ فى يَمِينِها إِبْرِيق
قَدَّمَتهُ عَلَى عُقَارٍ كَعَيْنِ الـ ـدِّيكِ صَفَّى سُلَافَهَا الرَّاوُوقُ
مُزَّةٌ قَبْلَ مزْجِهَا فَإِذا مَا مُزِجَتْ لَذَّ طَعْمَهَا مَنْ يَذُوقُ
وطَفَتْ فَوْقَهَا فَقَاقِيعُ كالدُّ رِّ صِغَارٌ يُثِيرُهَا التَّصْفِيقُ

فى هذه الأبيات على جاهليتها رقة الحضارة ، دون أن تخلو من رصانة البداوة ، ولا بأس بهذا البيت الأخير الذى يوصف ما يبدو على الخمر حين تمزج ، فيذكر على بعد بقول أبى نواس :

كَأَنَّ صُغْرى وَكبْرَى مِنْ فَقَاقِعِهَا حَصْباءُ دُرٌّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهب

ولا بأس بهذه الصورة التي يظهرها قوله :

ثُمَّ ثَارُوا إلى الصَّبوح فَقَامَتْ قَيْنَــةٌ فى يَمِينِهــا إبْرِيقُ

ولو أن لدينا شيئاً كثيراً من شعر هذا الشاعر فى الخمر وغير الخـــمر . لاستطعنا أن نتبين شيئاً من الصلة القوية بينه وبين شعراء العراق فى العصر العباسى . وأن نستخلص من هذا بوضوح أثر الإقليم العراقى . والبيئة العراقية فى الشعراء على اختلاف عصورهم وأحوالهم الاجتماعية . ولكن ما يروى عن هذا الشاعر قليل جداً ، وأكثره مشكوك فيه ، وأحسب أن الحظ الموفور منه — ولا سيما الزهد والحكم — قد نحل فى العصر الإسلامى وأضيف إلى هذا الشاعر ؛ لأن ذاكرة الرواة حفظت عنه قليلا من الزهد ، فأضاف المنتحلون إلى هذا القليل ما يجعله كثيراً ، وهذا الانتحال على الجاهليين معروف مشهور .

فالجاهليون إذن وصفوا الخمر ، وأجادوا فيها بعض الإجادة ، ولكن وصفهم لم يكن عميقاً ، ولم يصطنع فيه التدقيق ، وإنما كانوا يقنعون بالظواهر فيصفون لون الخمر ومظهرها ، ويصفون أقداحها وأباريقها وصفاً مجملا ، ويصفون طعمها ، ويصفون ما تحدث من نشوة ، غير مبالغين فى هذا الوصف ولا مسرفين فى البحث عن الدقائق ، بل إنما كانوا يقصدون ، حين يصفون الخمر ، إلى الفخر والتمدح بالمحاسن وكرام الخلال ، فكثير جداً فى ذلك العصر ما يشبه قول عنترة :

وإذَا شرِبْتُ فإنَّنِى مُسْتَهْلِكٌ مَالى وَعِرْضِى وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ

وكثيراً جــداً ما يشبه هذه الأبيات التى قالها « المنخل اليشكرى » فى وجهتها ، وهى الفخر ، لا فى معانيها . وهى من أبدع ما يروى عن الشعراء الجاهلين ، ولكن لا تنس أن المنخل اليشكرى شاعر من شعراء العراق أيضاً . كان يعيش فى الحيرة ، وينادم النعمان ، ويعاصر النابغة ، وهذه هى الأبيات :

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَـــا ةِ الخِدْرَ فى الْيَوْمِ المطِيرِ

الْكاعِبِ الْحَسنَاءِ تَرْ فُلُ فى الدِّمَقْسِ وفى الْحرير

فدَفَعْتُهَا فَتَــدَافَعتْ مَشْىَ الْقَطَاةِ إلى الْغَدِيرِ
فَلَثِمْتُهَــا فَتَنَفَّسَتْ كَتَنَفُّسِ الظَّبْيِ الْبَهِيرِ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِن المُدَا مَةِ بِالصَّغِيرِ وَبِالْكَبِيرِ
فَإِذَا سَكِرْتُ فَإِنَّنِى رَبُّ الخَوَرْنَقِ وَالسدِيرِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَإِننِى رَبُّ الشُّوَيْهَةِ والْبعِيرِ
يَا هِنْدُ مَنْ لِمُتَيَّمٍ يَا هِند لِلعَانِى الأَسِيرِ

فانظر إلى أول هذا الشعر ، كيف أحسن تصوير هذه الفتاة . وكيف ذكر يوم لهوه . ثم انظر إلى هذين البيتين ، أحدهما يشبِّه تدافع الفتاة بمشى القطاة إلى الغدير ، والآخر يصور رغبة الفتاة ورهبتها ، ويتخذ اضطراب تنفسها صورة لانخلاع قلبها ، ثم انظر إليه كيف عرض للخمر ، فلم يزد على أنه قد شرب منها بالكأس ، وشرب منها بالقدح ، وعلى أنه قد يسكر فيخيل إليه أنه الملك ذو القصر . وينسى حياته الحقيقية فلا يذكرها ، إلا إذا صحا فرأى الشاة ورأى البعير .

وانظر إلى قول الآخر . من شعراء الجاهلية :

وَمُعَرَّسٍ عرَضِ الرَّدَى عَرَّسْتُهُ وَالصُّبْحُ سَاطِعُ لَوْنِهِ لَمْ يَنْجلِ
فَأَتَيْتُ حانُوتاً بِهِ فَصَبحْتُهُ مِنْ عَاتِقٍ بِمِزَاجِهَا لَمْ تُقْتَلِ
صهْبَاءَ صَافِيةِ الْقَذَى أَغْلَى بِهَا يَسَرٌ كَرِيمُ الخِيمِ غَيْرُ مُبَخَّلِ

فالجاهليون كانوا يصفون الخمر ، ولكنهم لم يكونوا يمعنون فى هذا الوصف إمعانهم فى وصف الخيل والإبل ، وما إلى الخيل والإبل ، لأنهم لم يكونوا من النعمة ولين العيش بحيث يستطيعون أن يعكفوا عليها ، ويعاشروها معاشرة متصلة . كما كانوا يعاشرون الإبل والشاة . وإنما كانت تسنح للكثير منهم فرصة اليوم أو الساعة ، يشرب فيها ويلهو . فإذا فرغ من شربه ولهوه تحدث بذلك مفاخراً ، وربما وصف الخمر وذكر اللهو وهو لم يشرب ، ولم يأخذ من اللهو بحظ ، وإنما دعاه إلى ذلك الفخر والفن ؛ فقد دخل وصف

الخمر والإلمام بها فى فن الفخر ، والتحدث بما يمتاز به المفاخر من الكرم والسخاء ، ومن العفة حين يدعو كل شىء إلى اطراح العفة إلى غير ذلك من هذه المعانى الشائقة ، التى تجدها عند الجاهليين جميعاً .

فإذا أردت أن تذكر هذا الفن عند الجاهليين بشىء يشخصه . وجدت صفتين اثنتين : الأولى أن الشعراء كانوا يلمون بالخمر إلماماً ، ولا يلحون فى وصفها ولا يكثرون منه ولا يدققون فيه ، وإنما كانوا يعرضون له مع شىء من الاحتياط . الثانية أنهم لم يتخذوا وصف الخمر فناً مستقلا من فنون الشعر ، كما اتخذوا المدح والهجاء والفخر وما يشبه هذه الفنون .

ولم يكن من الممكن أن يستقل وصف الخمر فى هذا العصر . ويصبح فناً قائماً بنفسه يقصد من حيث هو ، لأن الحياة الجاهلية لم تكن تسمح بذلك ولا تدعو إليه ، ولهذا اشتهر الأعشى ، وعدى بن زيد بإكثارهما فى وصف الخمر ؛ لأن ذلك لم يكن شيئاً مألوفاً . فلما جاء الإسلام سكت الناس عن الخمر حيناً ، صرفهم عنها الدين ، وصرفهم عنها جد الخلفاء ، وصرفهم عنها الفتح والاستعمار . ومع ذلك فيظهر أن الشعر وحده ، هو الذى سكت عن الخمر خوفاً وإشفاقاً ، وأن كثيراً من العرب ، البادين والمتحضرين ، كانوا لا يضنون على أنفسهم باللهو ، يختلسونه اختلاساً ويسترقونه استراقاً ، وللرواة فى ذلك أحاديث منها الصحيح ، ومنها المتكلف المنحول . فهناك بيت يحضرنى ولست أدرى لمن هو . ولكنى أعلم أنه قيل أيام عمر رضى الله عنه ، وأنه موجه إليه وهو :

لَعَلَّ أميرَ المُؤْمِنينَ يَسُوءهُ ... تَنَادُمُنَا فى الجَوْسَقِ المُتَهدِّمِ

وقصة الوليد بن عقبة — عامل عثمان رضى الله عنه على الكوفة — شائعة معروفة ، والرواة يزعمون أنه كان يدمن على الشراب . وأنه صلى بالناس الصبح مرة وهو سكران ، فركع ثلاثاً ثم التفت إلى المصلين وقال « إن شئتم زدناكم ! » ويروى الرواة أن عثمان أمر بحدّه ؛ وأن علياً رضى الله عنه هو الذى ضربه ، والرواة يتحدثون بشىء كهذا عن عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، فيزعمون أنه كان يحب الخمر ، ويعكف عليها ، وكأنه كلم فى ذلك ، وذكر بآيات الله فقال كلاماً لا نرويه ! . .

وما كاد ينتهى عصر الخلفاء ، ويثبت سلطان بنى أمية ، حتى ضعف سلطان الدين ، وانصرف الخلفاء وولاتهم عن الحدود والشرائع ، إلى الخصومة السياسية والجهاد بين الأحزاب والعصبيات ، وكثرت الغنائم ، وعظمت الثروة ، واضطر أفراد كثيرون من أحفاد المهاجرين والأنصار وأشراف قريش ، إلى أن يقيموا فى الحجاز مستمتعين بثروة ضخمة وغنى كثير ، وقد حيل بينهم وبين العمل السياسى خوفاً منهم أو عقاباً لهم ، فانصرفوا إلى اللهو ، وعكفوا على اللذة وأسرفوا فيهما وتغيرت الآية . . . فكانت مكة والمدينة وطن الشعراء الغزلين وموطن المغنين ومجتمع طلاب اللهو ، وكانت لهؤلاء الناس جميعاً مجالس معروفة مشهورة ، كثر ذكرها فى كتب الأدب والتـــاريخ ، وكثرت حولها الأخبار والشائعات ، واضطر الخلفاء من بنى أمية إلى أن يظهروا فى بعض الأحيان ضرباً من القسوة ، فنكلوا ببعض هؤلاء الناس ، وعذبوا بعضهم ثم نفوه ، وخبر الأحوص بن محمد الأنصارى معروف ، وخبر المخنثين فى المدينة معروف أيضاً ، وشعر عمر بن أبى ربيعة ، وأخبار الدلال، أكثر وأشهر من أن نلح فى ذكرها .

ومع هذا فقد كان المسلمون يشربون ويلهون . ولكنهم كانوا يحتشمون فلا يكادون يذكرون ذلك فى الشعر إلا إلماما ، كانوا يحتشمون إشفاقاً ووقاراً ، ولم يكن المسيحيون مكلفين أن يحتشموا ، ولا أن يخافوا ، بل كانوا يجهرون بلذاتهم ، وظهر فى ذلك وبرع فيه الأخطل شاعر بنى أمية ، ولسانهم الناطق بسياستهم ، المناضل عن حزبهم ، كان مسيحيا ، وكان كلفاً بالخمر مشغوفاً بها ، حتى كره ذلك منه القسس ، ويقال إنهم عذبوه وضربوه ، لأنه كان شديد الخضوع للدين ، وكان يقبل من رؤساء دينه ما لم يكن يقبل من خلفاء المسلمين.

أكثر الأخطل من الشرب ، وأكثر من وصف الخمر ، وأجاد فيه ، وجاهر بشربه ، ولهوه ، واستخدمه فى السياسة . فيروى أنه دخل ذات يوم على عبد الملك بن مروان وهو سكران يترنح ، فأنشده هذين البيتين .

إذا مَا نَدِيمِى عَلَّنِى ثُمَّ عَلَّنِى   ثَلَاثَ زُجَاجَاتٍ لَهُنَّ هَدِيرُ

خَرَجْتُ أَجُرُّ الذَّيْلَ تِيهاً كأنّني ... عليكَ أميرَ المؤمنينَ أميرُ

وكان زُفر بن الحارث جالساً مع عبد الملك على السرير ، وقد كان عادى بنى أمية ، وكلّفهم ضروباً من العناء ، فلما أنزلوه على حكمهم ، قربه عبد الملك وأخذ يحبه ، فاغتاظ لذلك الزعماء ، وأغروا به الأخطل ، فدخل على الخليفة فى هذه الحال ، وأنشده البيتين ، ثم روى من شعر زفر هذين البيتين :

أَرِينِى سِلَاحِى لا أَبَالَكِ إِنَّنِى ... أَرَى الحَرْبَ لَاتَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيا

فَقَدْ يَنْبُتُ المرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرى ... وَتَبْقَى حَزَازَاتُ الصُّدُورِ كمَا هِيَا

فيقال إن عبد الملك ضرب برجله فى صدر زفر ، فألقاه على السرير ، وكاد يقتله .

ولسنا نريد أن نطيل فى شعر الأخطل ووصفه للخمر ، فشعر الأخطل معروف ، وديوانه مطبوع ، ولكننا نستطيع أن نقول بالإجمال : إن الأخطل على إكثاره فى وصف الخمر ، لم يكد يتجاوز ما سبقه إليه الأعشى وغيره من شعراء الجاهليه ؛ فهو أكثر فى وصف الخمر ، ولكنه لم يخترع شيئاً كثيراً .

ثم أخذ الزمن يتقدم ، وأخذ الناس يترفون ، وأخذ الاحتشام يقل ويضعف فى الطبقات المختلفة ، وأخذ الميل إلى اللذة والإسراف فيها ينتقلان من مكة والمدينة إلى دمشق ، ولسنا نذكر يزيد بن معاوية ، فقد كان الإنكار عليه شديداً ، وكان سخط الناس عليه يدل على أن عهدهم بالاحتشام لم يزل قريباً ، وحرصهم عليه لم يزل قوياً ، بل لا نذكر أبناء عبد الملك ؛ فقد كانوا يحتاطون فى اللهو ، ويتستّرون .

ولكن القرن الأول للهجرة لم يكد ينتهى ، حتى كان الجيل قد تغير ، والعهد قد تبدل ، وحتى كان الاختلاط بين العرب ، والفرس ، وهذه الأمم الكثيرة المتباينة فى الشأم ، قد عمل عمله ، وأخذ يظهر آثاره الكثيرة المختلفة ؛ ومن أعظمها وأشدها خطراً ، المجون ، وحب اللهو ، وحرية الفكر والسيرة ، ولقد أشرنا فى الحديث الماضى إلى أن هذا القرن الثانى للهجرة قد كان عصر مجون وشك ، وقلنا يكفى أن يكون هذا القرن قد بدئ بالوليد بن يزيد ، وختم بالأمين بن الرشيد .

ولقد كنا نود لو أتيح لنا البحث عن حياة الوليد بن يزيد ، وعما سلك من طرق الهزل، وما ابتدع من ألوان المجون ، حين كان وليًّا للعهد ، وحين كان أميراً للمؤمنين ، ولسنا نود ذلك حبًّا فيه ، أو كلفاً به، بل لأن للوليد بن يزيد أثراً قويًّا جدًّا عرفه المتقدمون أنفسهم فى شعر أبى نواس، فإن صاحب الأغانى مثلا يتحدث بأن الشعراء العباسيين أخذوا كثيراً عن الوليد فى الخمر ، ويختص منهم أبا نواس ؛ لأنه أكثر الانتفاع بشعر الوليد .

وليس فى هذا شىء من الغرابة ، فقد كان الوليد سيئ الحظ فى حياته وبعد موته ، ولم يجمع شعره بل تفرق وضاع أكثره ، فعدا عليه الشعراء ، وأمنوا أن يتهموا بالسرقة ؛ كان الوليد سيئ الحظ ، فقد كان عمه هشام يكرهه ويحقد عليه ، ويريد أن يخلعه من ولاية العهد ، ويضع ابنه مكانه ، فكان لذلك يضطهده، ويضطهد أولياءه . فلما مات هشام واستخلف الوليد، لم يطل عهده بالخلافة ، وما أسرع ما ثار الناس به وقتلوه ! .

وليس يعنينا أن يكون الوليد ظالماً أو مظلوماً ، وليس يعنينا أن نحكم فى أمر الوليد من جهة الدين والسياسة ، وإنما الذى يعنينا الآن ، هو أن نقول: إن الوليد كان شاعراً مجيداً ، وماجناً ماهراً فى المجون ، مفطوراً عليه ، وإنه هو الذى فتح هذا الباب لمن جاء بعده من الشعراء . وهو من هذه الجهة سيئ الحظ ؛ لأن شعره ضاع ولم يحفظ ، وتفرقت شخصيته بين الشعراء ، فلم يبق منها إلا خيال ضئيل تنم به أخباره فى الأغانى .

نقول : إن الوليد هو الذى فتح للشعراء باب المجون ، ونريد مع هذا أن نتحفظ ونحتاط ، حتى لا يغضب الأستاذ رفيق بك العظم وأصحابه ، فنحن نعلم أن الوليد كان مضطهداً فى حياته أيام عمه هشام ، وأنه اضطهد بعد موته ، ولا سيما أيام بنى العباس ، وأن خصومه وأعداءه من الأمويين والعباسيين قد أضافوا إليه من الشعر والحوادث ما لم يقل ، ولم يعمل ، وإذن فيجب الاقتصاد ، والحذر ، عند قراءة ما يضاف إليه ، ومع هذا الاقتصاد والحذر فليس من شك فى أن الوليد كان ماجناً خليعاً ، وكان مسرفاً فى الخلاعة والمجون .

ولم يكن إسرافه فى الخلاعة والمجون أثراً من آثار اللذة ، والكلف بها

فحسب . وإنما كان فيما يظهر أثراً من آثار اضطراب الدين ، وفساد العقيدة في نفسه ، كان أثراً من آثار البدع الجديد ، الذى نشأ من اختلاط المسلمين بأهل النحل المختلفة ، فأحدث الشك والإلحاد فى نفوس نفر منهم غير قليل ؛ فلم يكن مؤمناً بالبعث ، ولا بالعقاب والثواب ، وكان مع هذا يؤدى فرائضه الدينية ، فيصلى ويصوم لأن الناس كانوا يصلون ويصومون ، ولأنه كان وليًّا لعهد الناس ، أو خليفة على الناس ، وانظر إلى هذه الأبيات :

أَدِرِ الْكَأْسَ يَمِيناً لاَ تُدِرْهَا لِيَسَارِ
اِسْقِ هٰذَا ثُمَّ هٰذَا صَاحِبَ الْعَودِ النُّضَارِ
مِنْ كُمَيْتٍ عَتَّقُوهَا مُنْذُ دَهْرٍ فى جِرَارِ
خَتَمُوهَـا بِالأَفاوِيـ ـهِ وَكافُورٍ وَقارِ
فَلَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنِّى غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ

. . . .

وَذَرُوا مَنْ يَطْلُبُ الْجَنَّـ ـةَ يَسْعَى لِتَبَـارِ

فى هذا الشعر شيء من روح أبى نواس ، ولكنه لم يبلغ من الصقل ، وصفاء الأديم ، ما بلغه أبو نواس ، والوليد يعترف فيه بأنه لن يبعث ولن يعذب ؛ وإذن فليستمتع باللذات ، وليدع الأتقياء يشقون بخيال الجنة الذى يسعون إليه ، بل هو لا يريد أن يدع هؤلاء الناس ، وما يسعون إليه من نعيم ، حق أو باطل ، وإنما يريد أن يروضهم ، حتى يصل بهم إلى ما يريد من إنكار كل شيء ، والعبث بكل شيء ، سواء فى ذلك الدين والخلق والعادة .

ولقد تحدث بعض الرواة أنه حضر الوليد وهو خليفة ، فلما كانت العصر نهض فصلاها ، ثم جلس يتحدث ، فلما كانت المغرب نهض فصلاها ، ثم تعشى ، ثم صلى العشاء ، وأخذ يتحدث ، ثم قال : اسقينى ، فأقبلت جوار ، فقمن بينه وبين الراوى ، فسقينه ، وأخذ يقول : اسقينى ، وأخذ الجوارى يسقينه ، حتى أقبل الفجر ، قال الراوى : فأحصيت له سبعين قدحاً .

ومثل هذا كثير فى أخبار الوليد ، والناس يرونه أنه سكر يوماً ، فأمر جارية له ، فصلت بالناس ، ولم يكن الوليد مغرقاً ، ولا مندفعاً فى اللذات اندفاعاً غير منظم ، لم يكن سكيراً معربداً ، وإنما كان فى قلبه مكان للحب ، وللحب القوى المتين ، فقد كلف بسلمى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان ،. وكان قد تزوج أختها فطلقها وأراد أن يتزوج سلمى ، فحال هشام بينه وبين ذلك ، فأنطقه هذا الحب بشىء من الغزل كثير ، فيه نقاء وجودة ، وفيه رقة ووفاء ، فلما ولى الخلافة وصل إلى ما أراد ، ولكن سلمى لم تقم عنده إلا أربعين يوماً ، ثم ماتت فجزع الوليد ، ورثاها بالشىء الكثير ، وأكثر ما قال الوليد فى سلمى غُنِّى فيه ، وروى أبو الفرج منه طائفة لا بأس بها ، فإذا أردت أن تتعرف روح الوليد وشخصيته الشعرية ، فاقرأ هذا الشعر فى الأغانى ، ولكنى أروى لك أبياتاً له فى الخمر لا تشك ، حين تقرؤها فى أنك تقرأ أبا نواس :

اِصْدَعْ نَجِيَّ الْهُمُومِ بالطَّرَبِ ... وانْعِمْ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ الْعِنَبِ
وَاسْتَقْبِلِ العَيْشَ فى غَضَارَتِهِ ... لاَ تَقْفُ مِنْهُ آثَارَ مُعْتَقِبِ
مِنْ قَهْوَةٍ زَانَهَا تَقَادُمُها ... فَهْىَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الحِقَبِ
أَشْهَى إلى الشَّربِ يَوْمَ جَلْوَتِها ... مِنَ الْفَتَاةِ الْكَرِيمَةِ النَّسَبِ
فَقَدْ تَجَلَّتْ ورقَّ جَوْهَرُهَا ... حتى تَبَدَّتْ فى مَنْظَرٍ عَجَبِ
فَهْىَ بِغَيْرِ الْمِزاجِ مِنْ شَرَرٍ ... وهْىَ لَدَى المَزْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ
كأَنَّها فى زُجَاجِهَا قَبَسٌ ... تَذْكُو ضِيَاءً فى عَين مُرْتَقِبِ
فى فِتْيَةٍ مِنْ بنى أُمَيَّةَ أَهْـ ... ـلِ المَجْدِ والمَأْثُرَاتِ والحَسَبِ
مَا فى الْورى مِثْلُهُمْ وَلَا بِهِمُ ... مِثْلِى وَلَا مُنْتَمٍ لِمِثْلِ أَبى

فانظر إلى هذا الشعر الجيد السهل ، وانظر إلى ما فيه من تشبيه بديع ينم عن حضارة وترف .

فَهْىَ بِغَيْرِ الْمِزاجِ مِن شرَرٍ ... وَهْىَ لَدَى المَزْجِ سائِلُ الذَّهَبِ

ثم ألست تحس فى هذا الشعر كله ، رقة أبى نواس ، وخفة روحه ! ومع هذا ، فالوليد محتفظ بالسنّة القديمة ، يتخذ الخمر وسيلة إلى الفخر ...

لم يكد يبتدئ القرن الثانى إذن حتّى ظهر المجون ، وانتشر ، ووصل إلى قصور الخلفاء ، ثم كانت ثورة العباسيين ، فتم انتصار الفرس على العرب ، وانتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق، وأصبح الأدب عراقيًّا ، لا شاميًّا ولا بدويًّا ، أى أصبح خاضعاً من كثب ، لتأثير الفرس ، وحضارة الفرس . فتم انتصار العبث والمجون ، وتمت استحالة الطبع العربى ، وانقطع — أو كاد ينقطع — العهد بين هذا الطبع وبين بداوة العصر الأموى ، وأقبل أبو نواس وأصحاب أبى نواس ، فوجدوا سنة موروثة وطريقاً ممهدة ، فأحيوا السنة ، وسلكوا الطريق ، ورثوا الوليد وأصحاب الوليد ، فلم يضيعوا الميراث ، ولم يفسدوه . وإنما نمَّوْه ورقَّوْه، وكان هذا الشعر العباسى الذى نزعم أن أبانواس يمثله، والذى سنحدثك عنه فى الأسبوع الآتى .

الخمر عند أبى نواس[1]

سحر الشعر — إدمان الخمر — وعبادتها — المذهب السياسى — تفضيل الفرس على العرب .

رأيت فى الأسبوع الماضى أن الخمر قد وصفت قبل أبى نواس بنحو قرنين ، فأحسن وصفها ، وأن الشعراء قد كلفوا بها وتهالكوا عليها ، وأن الوليد ابن يزيد كان أول من اتخذ وصف الخمر وسيلة إلى إعلان المجون فيما نعلم ، وأن شعراء آخرين قد تبعوا الوليد واقتفوا أثره . فأحسنوا وأجادوا ، ولكن أبا نواس هو زعيم هذا الفن كما قلنا .

والناس مجمعون على ذلك ، فلا نعرف من يقدم أحداً على أبى نواس فى وصف الخمر ، والافتنان فيها ، ولقد كان بعض الرواة يغلون فى ذلك ، فيزعم أن أبا نواس قد وصف الخمر وصفاً لو سمعه الحسنان لهاجرا إليها ، ولعكفا عليها (يريد الحسن البصرى وابن سيرين) ولسنا ندرى إلى أى حد تصح هذه الرواية ، ولكنا نعلم أن أبا نواس قد أحسن وصف الخمر إحساناً لم يسبق إليه ، ولم يلحق فيه ، ونعلم أيضاً أن هذه الأوصاف التى نستحسنها ونستعذبها ، ليست من الجودة أو الحسن بحيث ترغبنا فى الخمر ، أو تحملنا على أن نهاجر إليها ، ونعكف عليها ، بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك ، فنزعم أن كثيراً من هذا الإحسان ، وهذه الإجادة قد يمر بنا دون أن نلاحظه أو نلتفت إليه ، إلا إذا كنا قد أتقنا درس هذا العصر الذى عاش فيه أبو نواس ، وتبينا ذوق أهله ، وما كانوا يحبون ويكرهون ، فنى هذا الإحسان والإجادة شىء كثير إضافى ، أى أنه إحسان وإجادة بالقياس إلى العصر الذى قيل فيه ، وإلى الناس الذين سمعوه ؛ فإذا تغير الزمان واستحال الذوق . فليس بالإحسان ولا بالإجادة ، وربما كان أدنى إلى الثرثرة ولغو الكلام ، ولهذه الملاحظة خطرها ؛ فهى تدل على شيئين قيمين .

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١٩ رجب سنة ١٣٤١ — ٧ مارس سنة ١٩٢٣ .

أحدهما : أن الحكم على شعر القدماء — ولا سيما الشعر الغنائى — لا ينبغى أن يتخذ فيه الذوق العصرى وحده مقياساً للجودة والرداءة ، وإنما ينبغى أن يكون مقياس ذلك ذوق العصر الذى عاش فيه الشاعر ؛ فإن الشعر الغنائى بطبعه مرآة لعواطف الشاعر ومعاصريه ، ممثل لما كان يحس الشاعر قومه وما كانوا يشعرون به ، وواضح أن هذه العواطف ليست متحدة على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، وأن أهل بغداد كانوا يحبون ما لا نحب ، ويكلفون بما لا نكلف به ، ويميلون إلى ما لا نميل إليه ، فليس غريباً أن يستعذبوا من الشعر ما لا نستعذب، وأن يُفْتَنُوا منه بما نقرؤه نحن غير مكترثين .

والآخر : أن قليلا جداًّ من هذا الشعر الغنائى ما يبقى على الدهر ، ويخلد على مر الأيام ، وأن قليلا جداًّ من الشعراء المغنين من يظفرون بإعجاب الجيل الذى يعيشون فيه ، والأجيال التى تليه ، فإذا ظفر أحدهم بهذا الإعجاب المتصل فذلك آية نبوغه ، وقدرته على وصف العواطف ، التى تهز قلوب الناس من حيث هم ناس ، لا من حيث إنهم بغداديون أو مصريون ، ولا من حيث إنهم من أهل القرن الثانى أو الرابع عشر للهجرة .

ولأبى نواس حظ غير قليل من هذا الإعجاب ، كما رأينا فيما مضى ، وكما سنرى فيما نعرض له من شعره ، ولكن لأبى نواس شعراً كثيراً عجب به الناس فى عصره ولا نحفل به نحن الآن ، وهذا الشعر كثير فى الخمر ، وربما كان أحسن مثال له هذه القصائد الطوال ، التى قالها أبو نواس وغير أبى نواس فى قدم الخمر وتعتيقها ، وأنها قد شهدت عصر نوح ، ثم عاد وثمود ، وأنها تستطيع أن تتحدث إليك بأخبار الأولين ، إلى آخر ما هناك ، مما هو كثير يملأ شعر القدماء ولا نعجب به نحن إلا إعجاباً إضافياًّ، لأننا نعلم أن القدماء كانوا يعجبون به ويتنافسون فيه ، ومن ذلك أيضاً هذا الشعر الكثير الذى يصف الشعراء فيه بحثهم عن الخمر ، وارتيادهم إياها ، ومغالاتهم فى ثمنها ، فيشبهونها بالعذراء تخطب إلى أبيها الدهقان ، ويغالى هذا الدهقان فى مهرها ، ويتمنع فى تزويجها من شاربيها ؛ لأنه يريد أن يتخذ لها الأكفياء، ومن ذلك أيضاً الإكثار فى وصف طعم الخمر وريحها ، وأنها تقطب الجبين ، وتزيل

الزكام ، إلى آخر ما هنـــاك مما لا نحفل به الآن . ثم هذا الكلام الكثير فى أن الخمر لا تطبخ على النار ولم ترها الشمس وإنما عتقت وتخمرت فى جوف الأرض بمعزل عن حر الشمس والنار ، وقد نقرأ الشعر الذى يتناول هذه المعانى فنعجب به لأن لفظه جيد ، أو لأن فيه مغالاة تدهشنا ، وتخالف ما ألفنا ، أو لأن فيه شيئاً من الإحالة والبعد عن معقول الناس .

فإذا أردنا أن نحلل هذا الشعر ونلتمس ما فيه من الجمال الصحيح ، ونلائم بينه وبين ميولنا وأهوائنا وعواطفنا وأذواقنا ، لم نجد شيئاً . وأغرب من هذا أن الشعراء المعاصرين الذين يحتذون القدماء ، ويقتفون آثارهم قد يبلغون منا هذه المنزلة ، ويسحروننا بكلام نسمعه فنعجب به ، حتى إذا حاولنا فهمه واستقصاء ما فيه لم نجد شيئاً ، أو وجدنا ما لا يروق ، فأى الناس سمع هذا الشعر من قول حافظ ثم لم يفتن به :

يَا غُلَامُ المُدَامَ والْكَاسَ وَالطَّا ... سَ وَهَيِّئْ لَنَا مَكَاناً كَأَمْسِ

واسقنـــا يا غلامُ حتى ترانا ... لا نطيق الكلام إلا بهمس

خَمْرَةً قِيلَ إِنَّهُم عَصَرُوهَـــا ... مِن خُدُودِ المِلَاحِ فى يَوْم عُرْسِ

فانظر إلى هذا البيت الأخير كيف يفتنك لفظه ويسحرك ؟ وكيف لا تفتنك خدود الملاح فى يوم عرس ؟ ولكن تكلف أن تتبين هذه الخمر التى تعصر من خدود الملاح ، وحدثنى أتستطيع أن تشربها ، أو تستطيع أن تنظر إليها دون أن تتأذى وينالك شىء من الألم غير قليل ؟ إذن فينبغى أن نحتاط ونقتصد فى الإعجاب بالشعر عامة ، وبشعر القدماء خاصة ، فإن سحر الشعر كثير قوى ، مختلفة أسبابه وبواعثه .

والآن وقد بسطنا هذه المقدمه التى لم يكن منها بد ، نستطيع أن نعرض لوصف الخمر فى شعر أبى نواس ، وأول ما نذكر من ذلك هذه القصيدة التى نستطيع أن نعتبرها مقياساً لذوق الشعراء فى ذلك العصر ، وللموضوعات التى كانوا يلمون بها ، ويقصدون إليها ، وهى :

يَا خَاطِبَ القَهْوَةِ الصَّهْبَاءِ يَمْهُرُهَا ... بالرِّطْل يَأْخُذ مِنْهَا مِلْئَهُ ذَهَبَا

قَصَّرْتَ بِالرَّاحِ فَاحْذَرْ أَنْ تُسَمِّعَهَا . فَيَحْلِفَ الْكَرْمُ أَلَّا يَحْمِلَ العِنَبَا
إِنِّى بَذَلْتُ لَهَا لَمَّا بَصُرْتُ بِهَا صَاعاً مِنَ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا ثُقِبَا
فَاسْتَوحَشَتْ وَبَكَتْ فِى الدَّنِّ قَائِلَةً يَا أُمُّ وَيْحَكِ ! أَخْشَى النَّارَ واللَّهَبَا
فَقُلْتُ لا تَحْذَرِيهِ عِنْدَنَا أَبَدًا قالَتْ وَلَا الشَّمْسَ ؟ قُلْتُ الحَرُّ قَدْ ذَهَبَا
قَالَتْ فَمَنْ خَاطِبِى هٰذَا ؟ فَقُلْتُ أَنا قالَتْ فَبعْلِى ؟ قُلْتُ المَاءُ إِنْ عَذُبَا
قَالَتْ لِقَاحِى ؟ فَقُلْتُ الثَّلجُ أُبْرِدُهُ قالَتْ فَبَيْتِى ؟ فَمَا أَسْتَحْسِنُ الخَشَبَا
قُلْتُ الْقَنَانِىُّ وَالْأَقْدَاحُ وَلَّدَهَا فِرْعَوْنُ قَالَتْ لَقَدْ هَيَّجْتَ لِى طَرَبَا
لَا تُمْكِنَنِّى مِنِ العِرْبِيدِ يَشْرَبُنِى وَلَا اللئِيمِ الَّذِى إِنْ شَمَّنِى قَطَبَا
وَلَا الْمَجُوسِ فَإِنَّ النَّارَ رَبُّهُمُ وَلَا اليَهُودِ وَلَا مَنْ يَعْبُدُ الصُّلُبَا
وَلَا السَّفَالِ الَّذِى لا يَسْتفيقُ وَلَا غِرِّ الشَّبَابِ وَلَا مَنْ يجْهَلُ الْأَدبا
وَلَا الْأَرَاذِلِ إِلَّا مَنْ يُوَقِّرُنِى مِنَ السُّقَاةِ وَلٰكِنْ أَسْقِنِى العربَا
يا قَهْوَةً حُرِمَت إِلَّا عَلَى رَجُلٍ أَثْرَى فَأَتْلَفَ فِيهَا الْمَالَ والنَّشَبَا

فانظر إلى هذه القصيدة ، فلن تجد فيها معنى يخلبك ، أو شيئاً يستهويك ، ومع ذلك ، فأستطيع أن أؤكد لك أن القدماء كانوا يكلفون بهذه المعانى ، ويستعذبون الشعر الذى ترد فيه ، وكانوا يحبون هذا التشبيه « تشبيه الخمر بالعروس تخطب ويغالى فى مهرها » وكانوا يحبون هذا الحوار يجرى بين الخمر ومن يرتادها ، وكانوا يحبون هذه الأبيات الأخيرة التى تقص عن الخمر من ليس لشربها أهلا ، وكانوا يعجبون بنوع خاص بهذا البيت الأخير الذى يحل الخمر للغنى يتلف ثروته فيها ، أما نحن فلعلنا لا نحب من هذا كله شيئاً . ولعلنا نقرأ هذه القصيدة ، فلا نجد فيها ما يستخف ، ولا ما يرغب فى الخمر . . .

ولكن أبا نواس كان يحب الخمر حبًّا ربما كان أشبه بالدين ، كان يعبدها ويقدسها تقديساً ، فانظر إلى هذه الأبيات ، ولست أشك فى أنك

ستستحسنها ، وتعجب بها الإعجاب الكثير ، وتشعر بأنها ليست مدحاً للخمر ، وإنما هى صلاة إلى الخمر :

أَثْنِ عَلَى الْخَمْرِ بِآلَائِهَا   وَسَمِّهَا أَحْسَنَ أَسْمائِهَا
لا تَجْعَلِ المَاءَ لَهَا قاهِرًا   ولَا تُسَلِّطْها عَلَى مَائِهَا
كَرْخِيَّةٌ قَدْ عُتِقَتْ حِقْبَةً   حَتَّى مضَى أَكْثَرُ أَجْزَائِهَا
فَلَمْ يَكَدْ يُدْرِكُ خَمَّارُهَا   مِنْهَا سِوى آخِرِ حَوْبَائِهَا
دَارَتْ فَأَحْيَتْ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ   نُفُوس حَرَّاهَا وَأَنْضَائِهَا
وَالْخَمْرُ قَدْ يشْرَبُهَا مَعْشَرٌ   لَيْسُوا إِذَا عُدُّوا بِأَكْفَائِهَا

فانظر إلى هذا البيت :

أَثْنِ عَلَى الْخَمْر بِآلَائِهَا   وَسَمِّهَا أَحسَنَ أَسْمَائِهَا

أليس الشطر الأول منه تسبيحاً للخمر ؟ ! أليس الشطر الثانى منه تقديساً للخمر ؟ أليس فى هذا البيت على سهولته وبراءته من ألفاظ المجون أشد ألوان المجون ؟ أليس فيه الاستهزاء بالدين والسخرية منه ؟ أليس يذكرك القرآن ؟ أليس يذكرك قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الحُسْنَى فادْعُوهُ بِهَا ﴾ . ثمّ انظر ما جاء بعد هذا البيت ، انظر إلى سهولة اللفظ ، وخلوه من التكلف ، انظر إلى هذا النظم يكاد يكون نثراً ، وانظر إلى دقة هذا المعنى الذى قد لا يعجبك فى نفسه ، ولكنه على هذا جميل دقيق ، يمثل عقل أبى نواس ، واصطباغه بالصبغة الفلسفية التى كانت عامة فى عصره :

كَرْخِيَّةٌ قَدْ عتِّقَتْ حِقْبَةً   حَتَّى مَضَى أَكْثَرُ أَجْزَائِهَا
فَلَمْ يكَدْ يُدْرِكُ خَمَّارُهَا   مِنْهَا سِوَى آخِرِ حوْبَائِهَا

فهذه الدقة لا تستهويك ولا ترغبك فى الخمر ، ولا تنزع بك إلى حب الشراب ، ولكنها فى نفسها جميلة محببة . وانظر إلى استئناف الثناء على الخمر ، فى لفظ حلو سهل غير متكلف ولا متصنع :

دَارَتْ فَأَحْيتْ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ نُفُوسَ حَرَّاهَا وأَنْضَائِهَا
والْخَمْرُ قَدْ يَشْرَبُهَا مَعْشَرٌ لَيْسُوا إِذَا عُدُّوا بِأَكْفَائِهَا

فقد رأيت فى هاتين القصيدتين شيئين مختلفين :

رأيت فى الأولى معانى لا تعجبك ولا تروقك ، وكانت تعجب القدماء وتروقهم ، ورأيت فى الثانية معانى ليست جميلة لأنها تصف الخمر وتحث عليها ، وإنما هى جميلة لنفسها ؛ لأنها تدل على قدرة الشاعر ودقته ، وحسن غوصه على المعانى ، وهى تعجبك كما كانت تعجب المتقدمين .

وانظر إلى هذه الأبيات التى تجمع بين إعجابك وإعجاب القدماء؛ لأنها تصف شيئاً ترغب أنت كما كان يرغب القدماء فى وصفه :

كَمْ مُتْرَفٍ عَقَلَ الحَيَاءُ لِسانَهُ فَكَلَامُهُ بِالْوَحْيِ وَالْإِيماءِ
لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى الْكَرى فى عَيْنِهِ قَدْ عَقَّلَ الجَفْنَيْنِ بِالإِغْفَاءِ
حَرَّكْتُهُ بِيدِى وَقُلْتُ لَهُ انْتَبِهْ يَا سَيِّدَ الْخُلَطَاءِ والنُّدَمَاءِ
حَتَّى أُزِيحَ الْهَمَّ عَنْكَ بِشَرْبَةٍ تَسْمُو بِصَاحِبِهَا إِلَى العَلْيَاءِ
فَأَجَابنِي وَالسُّكْرُ يَخْفِضُ صوْتَهُ وَالصُّبْحُ يَدْفَعُ فى قَفَا الظَّلْمَاءِ
إِنِّى لَأَفْهَمُ مَا تَقُولُ وَإِنَّمَا رَدَّ التعَافِى سوْرَةُ الصهْبَاءِ

ومع ذلك فأنت لا توقظ نديمك من نومه ، ولا تحركه بيدك ، ولا تستأنف الشراب إذا أقبل الصباح كما كان يفعل القدماء ، ولكن انظر إلى هذا البيت بنوع خاص :

فَأَجابنِي والسُّكْرُ يَخْفِضُ صَوْتَهُ وَالصُّبْحُ يَدْفَعُ فى قَفَا الظَّلْمَاءِ

كان أبو نواس إذن يعبد الخمر ويدمن شربها ، فيشربها إذا أمسى ، ويشربها إذا أصبح ، وربما عكف عليها ليله ويومه . وربما عكف عليها الأسبوع كله ، لا ينصرف عنها إلا حين يثقله النوم ، كما ترى ذلك فى قصيدته التى مطلعها :

يَا طِيبَنَا بِقُصُورِ الْقَفْصِ مُشْرِقَةً فِيهَا الدَّسَاكِرُ وَالْأَنْهارُ تَطَّرِدُ

وقد اشتهر ذلك عنه وعن مولاه الأمين الذى كان ينادمه ويساقيه ، واتخذ أنصار المأمون فى خراسان هذا سلاحاً يحاربون به الأمين ، فكان ينشد مجون أبى نواس فى المسجد الجامع عند الصلاة ، ويلعن من قاله ، ومن أحبه ، وكأن هذا قد وصل إلى الأمين فى بغداد فأشفق منه ، وأراد أن يحتاط ويصطنع الوقار ، فنهى أبا نواس عن شرب الخمر ، وأظهر أبو نواس الطاعة ، ولكن ذلك شق عليه ، فقال فيه شعراً كثيراً جداً ، منه هذه الأبيات :

أَعَاذِلَ أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ وأَعْتَبَا ... وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فى الضَّمِيرِ وَأَعْرِبا

وَقُلْتُ لِسَاقيهَا أَجِزْهَا فَلَمْ أَكُنْ ... لِيَأْبَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَشْرَبا

فَجَوَّزَهَا عَنِّى سُلافاً تَرى لَهَا ... إِلَى الْأُفُقِ الْأَعْلَى شُعَاعاً مُطَنَّبَا

إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خِلْتَهُ ... يُقَبِّلُ فى دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ كَوْكَبَا

وقال هذه القصيدة الأخرى التى تبين مقدار ما يعانى من الألم والحرمان لطاعة الأمين :

أَيُّهَا الرَّائحَان بِاللَّوْمِ لُومَا ... لاَ أَذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا شمِيمَا

نَالَنِى بِالْمَلاَمِ فِيهَا إِمَامٌ ... لَا أَرَى لِى خِلَافَهُ مُسْتَقِيمَا

فَاصْرِفَاهَا إِلَى سِوَاى فَإِنِّى ... لَسْت إلا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمَا

كُبْرُ حَظِّى مِنْهَا إِذَا هِى دَارَتْ ... أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشُمَّ النَّسِيمَا

فَكَأَنِّى ومَا أُزَيِّنُ مِنْهَا ... قَعَدِىٌّ يُزَيِّنُ التَّحْكِيما

كَلَّ عَنْ حَمْلِهِ السِّلاَحَ إِلَى الْحَرْ ... بِ فَأَوْصَى الْمُطِيقَ أَلَّا يُقِيمَا

وليس كل الناس قادراً على أن يفهم هذين البيتين الأخيرين على أنهما لا يخلوان من جمال ، فهو يشبه نفسه فى وصفه للخمر وحثه الناس على شربها ، دون أن يستطيع لها مذاقاً ، بالخارجى الذى عجز عن الحرب ، فقعد وأخذ يحث الناس عليها .

على أن أبا نواس لم يتب قط عن الخمر ، ولم يكن يستطيع أن يتوب . ولعل التوبة لم تدركه إلا حين أدركه الموت ، وقد ذكرنا لك فى غير هذا الفصل

ما كان من أمر صديقه الكوفى الذى ما زال به حتى حمله على خلاف الأمين ، فشرب الخمر ، وسب زبيدة ، وعاد إلى الأمين فأخبره أنه قد خرج عن طاعته ، فلم يغضب لذلك الأمين ، بل حمده ورضى عنه ، وأمر أبا نواس فحمل إليه صديقه الكوفى ، فاتخذه نديماً ! . .

على أن من الحق أن نعرف لأبى نواس شيئاً غير هذا الفسق والإغراق فى المجون ، وهو أنه كان يريد أن يتخذ — ويتخذ الناس معه — فى الشعر مذهباً جديداً ، وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة ، بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل فيها الحياة ، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء ؛ لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء ، وما ألفوا من ضروب العيش ، فإذا تغيرت ضروب العيش هذه ، وجب أن يتغير الشعر الذى يتغنى بها ، فليس يليق بساكن بغداد ، المستمتع بالحضارة ولذاتها ، أن يصف الخيام والأطلال ، أو يتغنى الإبل والشاء ، وإنما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ، ويتغنى الخمر والقيان ، فإن فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف .

أراد أبو نواس أن يشرع للناس هذا المذهب ، فجد فيه ووفق التوفيق كله ، واتخذ وصف الخمر وما إليها من اللذات وسيلة إلى مدح طريقته الحديثة ، وذم طريقة القدماء .

ولولا ما نعرفه من سيرته وإدمانه ، لكان من الحق أن نشك فى أنه من اللهو والمجون بحيث يصف نفسه ، وأن نتساءل أليس هذا الغلو والإسراف ، أثراً من آثار التعصب لمذهبه الجديد ؟

على أن هذا المذهب الجديد ، على حسنه واستقامته ، وعلى أن أبا نواس موفق فيه ، لم يسلم من أشياء تمكننا من أن نفهم بغض الناس له ، ونعيهم عليه ، فهو ليس مذهباً شعريًّا فحسب ، وإنما هو مذهب سياسى أيضاً .

يذم القديم — لا لأنه قديم — بل لأنه قديم ، ولأنه عربى ، ويمدح الحديث — لا لأنه حديث — بل لأنه حديث ، ولأنه فارسى ، فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب ، مذهب الشعوبية المشهور .

ومن هنا نفهم سخط كثير من العرب وأنصار العربية ، على هذا المذهب الجديد ، ونفهم أيضاً أن الرشيد حبس أبا نواس لقصيدة هجا بها العرب ، ومهما يكن من شيء ، فالخمريات التي عرض أبو نواس فيها لتأييد مذهبه الجديد ، وذم المذهب القديم ، هي أجود ما يروى عن أبي نواس ولا بد من أن نلم بكل هذه القصائد ، لنستطيع أن نستخلص أصول هذا المذهب الجديد ، كما كان يتصوره أبو نواس ، ولكننا نرجئ هذا إلى الأسبوع الآتي ونختم حديث اليوم بهذه الأبيات في هذا الموضوع :

لا تَبْكِ لَيْلى وَلَا تطْرَبْ إلَى هِنْدِ ... وَاشْربْ عَلَى الْوردِ مِنْ حَمْراءَ كالْوَرْدِ

كَأْساً إذا انحَدَرَتْ مِنْ حَلْقِ شَارِبِها ... أَجْدَتْهُ حُمْرَتَهَا فِى الْعَيْنِ وَالخَدِّ

فَالْخَمْرُ يَا قُوتةٌ وَالْكَأْسُ لُؤْلُؤَةٌ ... فِى كَفِّ جَارِيَةٍ مَمْشُوقَةِ الْقَدِّ

تَسْقِيكَ مِنْ يَدِهَا خَمْرًا وَمِنْ فَمِهَا ... خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سُكرَيْنِ مِنْ بُدِّ

لى نَشْوَتَان وَلِلنُّدْمَانِ وَاحِدَةٌ ... شَىْءٌ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بينِهِمْ وَحْدِى

ويتحدث الرواة أن أبا نواس أنشد هذه الأبيات طائفة من أصحابه ، فخروا له سجداً ؛ فقال : فعلتموها ! أعجمية ! والله لا كلمتكم ثلاثاً وثلاثاً وثلاثاً ! ! ثم ندم ، وقال : تسعة أيام في هجر الإخوان كثير ! وربما كان أصحاب أبي نواس مسرفين حين سجدوا له إعجاباً به .

ولكن الشيء الذي لا شك فيه ، هو أن هذه الأبيات من أحسن شعره وأجوده ، وليس من السهل أن تقول لماذا حسنت هذه الأبيات ، ولكنك تشعر فيها بجمال يجذبك ويستهويك ، دون أن تستطيع له تحديداً ؛ جمال في اللفظ وجمال في المعنى ، فليس في اللفظ كلمة غريبة أو حرف ينبو على السمع ، بل هي ألفاظ متخيرة ليست بالمبتذلة ، ولا التي لا يفهمها عامة الناس ، وليس في المعنى شيء مستغلق أو شيء مبتذل ، بل هي معان مألوفة ، ولكن استطاع الشاعر أن يقارب بينها ، فيحدث من هذه المقاربة جمالا ولذة ، ما كنت لتحسهما ، لولا أن قرن لك الشاعر هذه المعاني بعضها إلى بعض ، انظر إلى قوله « واشرب على الورد من حمراء كالورد » وانظر إلى قوله :

فَالْخَمْرُ يَا قُوتَةٌ وَالْكَأْسُ لُؤْلُؤَةٌ ... فِى كَفِّ جَارِيَةٍ مَمْشُوقَةِ الْقَدِّ

تَسْقِيكَ مِنْ يَدِهَا خَمْرًا ومِنْ فَمِهَا ... خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدِّ

فهذه الطائفة من التشبيهات يتلو بعضها بعضاً ، ويكمل بعضها بعضاً ، هى التى تحدث فى نفسك اللذة ، وتبعثها على الإعجاب . وانظر إلى هذا البيت الأخير ، وإلى شطره الثانى بوجه خاص ، تجده حضريًّا ، فانياً فى الحضارة ، ومترفاً مغرقاً فى الترف ، يعبر عن حضارته وترفه ، بلفظ يكاد يصل إلى قلبك ، دون أن تسمعه :

لِى نَشْوتَانِ وَللنُّدْمانِ وَاحِدَةٌ ... شَىْءٌ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بينِهِم وَحْدِى

ولست أدرى لماذا لم أسمع هذا البيت مرة ، إلا وددت لو سمعته من فم مغن يجيد الغناء ! .

الخمر عند أبي نواس [1]

الشعر لسان الحياة — تجديد فى الأساليب
والمعانى — صعوبة الاعتراف بالتطور —
المجون من مظاهر الحياة — الحنين إلى الفرس

بعد العهد بيننا وبين أبى نواس ، فقد مضت أشهر بيننا وبين آخر مقال ، كتبناه عن وصف الخمر فى شعره ، وما إخالك إلا قد نسيت هذا المقال ، كما هو شأن القارئ لما يكتب فى صحيفة سيارة ، مهما يكن هذا الذى يكتب ، سياسة أو أدباً أو غير السياسة والأدب ، وما إخالك إلا نسيت هذا المقال ، على أنه لم يكن إلا مقدمة لما نريد أن نقوله موجزين عن خمريات أبى نواس .

فقد رأينا أن أبا نواس كان — بعد الوليد بن يزيد — أشد الشعراء عناية بالخمر وأكثرهم افتناناً فيها ، وأن الناس جميعاً شهدوا له فى ذلك بالسبق والتقدم ، لم يفضلوا عليه أحداً من الشعراء ، الذين جاءوا قبله أو بعده ، ورأينا أن الناس محقون فى هذا ، ولكننا رأينا أن معانى أبى نواس فى الخمر — على أنها كثيرة مختلفة — يكاد ينالها الإحصاء ، ونستطيع أن نقسمها إلى قسمين اثنين :

القسم الأول ، هذه المعانى الكثيرة ، التى كانت تعجب القدماء ، وتفتن النقاد منهم ، ثم أصبحت لا تعجبنا ، أو لا تفتننا على أقل تقدير ، كتشبيه الخمر بالعذراء تخطب إلى أبيها الدهقان ، وكالإسراف فى وصف قدم الخمر وما مر عليها من الأجيال والعصور ، وكالافتنان فى وصف طعم الخمر وريحها .

القسم الثانى ، هذه المعانى التى أعجبت القدماء وفتنتهم ، وما زالت تعجبنا وتفتننا ، لأنها لاءمت ذوق القدماء وحياتهم ، وما زالت تلائم ذوقنا وحياتنا ، ولأنها حببت إلى القدماء شرب الخمر ، وما زالت تحبب إلى المحدثين شرب الخمر . وهذه المعانى قليلة فى شعر أبى نواس ، قليلة فى شعر غيره من الشعراء ،

---

[1] نشرت بالسياسة فى ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٤١ — ١١ يونية سنة ١٩٢٣ .

قليلة فى الحمريات قلتها فى غير الحمريات ، ذلك لأن المعانى التى تتفق على استحسانها العصور المتباعدة ، والأجيال المتباينة ، قليلة بطبعها فى كل فن من فنون الشعر والأدب .

ثم مثلنا فى ذلك المقال لهذه المعانى وتلك ، وأشرنا إلى أن شعر أبى نواس فى الخمر لم يكن هزلا كله ، ولم يكن الغرض منه المجون وحده ، أو الإسراف فى وصف اللذات ، وإنما كان أبو نواس يتخذ الخمر وسيلة إلى شىء من الجد ، له خطره فى الأدب ، ووسيلة إلى شىء آخر من الجد ، له خطره فى غير الأدب .

كان أبو نواس إذن حين يصف الخمر ، أو حين يتغزل ، يقصد إلى ما يقصد إليه الشعراء المجيدون من وصف الحس والشعور ، وتمثيل العاطفة تمثيلا صحيحاً ولكنه كان يقصد — مع هذا الشىء المشترك بينه وبين الشعراء — إلى شيئين آخرين ، أشرنا إليهما فيما مضى ونعود إليهما اليوم .

كان أبو نواس يريد أن ينهج بالشعر منهجاً جديداً ، لم ينهجه المتقدمون ، أو قل إنهم نهجوه ، ولكنهم لم يشعروا بذلك ، ولم يتخذوه عقيدة أو مذهباً فى الأدب ؛ كان يريد أن ينهج بالشعر منهجاً يشبه المنهج الذى نريد نحن وأصحابنا أن ننهجه بالكتابة ، كان يريد أن يتخذه الشعر لساناً للحياة الحاضرة ، وأن يلائم بين الشعر وبين ذوق الشعراء ، والذين يسمعون للشعراء ، كان يريد — بعبارة مجملة — أن يعدل عن أساليب القدماء فى وصف الأطلال والبكاء عليها ، وفى تغنى الإبل والشاء ، إلى وصف الحياة التى يحياها الشعراء والمستمعون لهم ، إيثاراً للصدق وبعداً عن الكذب .

كان أبو نواس إذن فى هذا الشعر المخالف للأخلاق وأصول الفضيلة ، محباً للأخلاق وأصول الفضيلة ، كان يؤثر الصدق وينكر الكذب ، ولكن يجب أن تفهم هذا على وجهه ، فلم يكن أبو نواس مؤثراً للصدق لأنه صدق لم يكن واعظاً ولا ناسكاً ، لم يكن حكيماً يبشر بالحكمة ، أو فيلسوفاً يدعو إلى الفلسفة ، وإنما كان شاعراً يصدق فى شعره ، ويحب أن يتحدث إلى الناس بما يفهمونه ، فينال منهم موضع الإعجاب والفتنة ، كان يحب الصدق حباً

عملياً ، أو قل كان يحب الصدق حباً فنياً ، ولم يكن يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الدين ، أو ترضى الفضيلة ، وإنما كان يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الذوق ، وترضى الجمال الفنى .

وهو لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدماء فى وصف الأطلال والبكاء عليها وحدها ، لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدماء فى المعانى فحسب وإنما كان يدعو إلى تجنب سنة القدماء فى المعانى ، وفى الألفاظ جميعاً ، كان يريد ألا يستعير المحدثون معانى القدماء ، لأن لهم معانيهم ، ولهم حياتهم ، وكان يريد ألا يسرف المحدثون فى استعارة ألفاظ القدماء ، لأن لهم ألفاظهم ، أى لأن لغتهم تطورت كما تطورت حياتهم ، أو لأن حياتهم تطورت ، فيجب أن تتطور اللغة لتلائم هذه الحياة .

حدثت معان لم يكن يألفها القدماء ، فيجب أن تحدث لهذه المعانى ألفاظ غير الألفاظ التى ألفها القدماء ، رقت حاشية الحياة الحديثة ، وظهر فيها الترف ولين العيش ، فيجب أن تصطنع الألفاظ الرقيقة لهذه الحياة الرقيقة .

ويجب أن نلاحظ هنا شيئين: الأول : أن هذا التطور فى اللغة واقع على كل حال ، سواء أراد الشعراء والكتاب أم لم يريدوه ، وآية ذلك ظاهرة فى اللغة العربية وغير العربية ، فشعر الأمويين ليس كشعر الجاهليين ، وإن كان الشبه بين هذين النوعين من الشعر قوياً ، وشعر العباسيين ليس كشعر الأمويين ، وقل مثل ذلك فى النثر أيام بنى أمية وأيام بنى العباس ؛ التطور إذن واقع ، لأنه قانون لا منصرف عنه لأى جماعة من الجماعات ، والناس خاضعون لهذا التطور ، راضون عنه ، ولكن المشقة كل المشقة ليست فى خضوعهم له ورضاهم عنه ، وإنما هى فى « اعترافهم » به ، واتخاذه مذهباً وطريقاً .

وهذا هو الشىء الثانى الذى نريد أن نلاحظه : وهو أن الخلاف بين القدماء والمحدثين ، يكاد يكون فى « الاعتراف » بالحديث لا فى « قبول » الحديث ؛ فالحديث مقبول بطبعه ، لأنه الحياة ، ولكن الاعتراف به شاق ، لأننا فطرنا على المحافظة والاتصال بالسنن الموروثة .

ومن هنا نفهم أن أبا نواس كان أشد الناس إلحاحاً فى تغيير الأسلوب الشعرى ، وتجديد اللفظ والمعنى ، ونفهم أنه لم يكن وحده مغير الأسلوب الشعرى ولا مجدد اللفظ والمعنى ، وإنما كان الشعراء المعاصرون له — سواء منهم أنصاره وخصومه — يغيرون الأسلوب الشعرى ، ويجددون اللفظ والمعنى أيضاً ، وكان منهم من يعترف بهذا التغيير ، ويرى أنه مشروع ، فيمضى فيه ، ويحرص عليه ، وكان منهم من ينكر هذا التغيير ، ويتكلف الفرار منه .

وقع هذا أيام أبى نواس ، ووقع هذا فى القرن السابع عشر الفرنسى ، ووقع هذا فى كل عصر من العصور التى تطورت فيها الأمم ، وتطورت فيها اللغات أيضاً .

كان أبو نواس إذن يطالب الشعراء بأن يكونوا صادقين ، غير منافقين مع أنفسهم ، وانظر إلى طريقته فى الدفاع عن رأيه ، وأخذ الناس بهذا الرأى :

عَاج الشَّقِىُّ عَلَى رَسْمٍ يُسَائِلُهُ ... وَعُجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَّارةِ الْبَلَدِ
يبْكِى علَى طَلَل المَاضِينَ مِنْ أَسَدٍ ... لاَ دَرَّ دَرُّكَ قُلْ لِى مَنْ بَنُو أَسدِ
وَمَنْ تَمِيمٌ وَمَنْ قَيْسٌ وَلَفُّهُمَا ... لَيْسَ الْأَعَارِيب عِنْدَ اللهِ مِنْ أَحدِ
لاَجَفَّ دَمْعُ الَّذِى يبْكِى عَلَى حَجَرٍ ... وَلاَ صَفَا قَلْبُ مَنْ يَصْبُو إِلَى وَتِدِ
كَمْ بَيْنَ نَاعِتِ خَمْرٍ فِى دَسَاكِرِهَا ... وَبَين باكٍ عَلَى نُؤْىٍ وَمُنْتَضَدِ
دَعْ ذَا عدِمْتُكَ واشْرَبْهَا مُعَتَّقَةً ... صفراءَ تَفْرُقُ بَينَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ
مِنْ كَفِّ مُضْطَمِرِ الزُّنَّارِ مُعْتَدِلٍ ... كأَنَّهُ غُصْنُ بَان غَيْرُ ذِى أَوَدِ
أَمَا رأَيْتَ وجُوه الْأَرْضِ قَدْ نَضرتْ ... وَأَلْبَسَتْهَا الزَّرَابِى نَشْرَةُ الْأَسدِ
حَاكَ الرَّبِيعُ بِهَا وَشْياً وجَلَّلَهَا ... بِيَانِعِ الزَّهْرِ مِنْ مَثْنَى وَمِنْ وَحَدِ

فانظر إليه ، كيف آثر العنف فى خطاب خصمه ، فأسرف فى ذم القديم ، والنعى على من يتكلفه ، وأسرف فى مدح الجديد ، والحث عليه ، وانظر إلى تبرمه بأسد ، ومن يبكى على أسد ، وإلى ذمه لتميم وقيس والعرب كافة ، ثم

انظر إليه كيف يحقر هذا القديم ، ويرفع من شأن الجديد ، ويأخذ الناس بأن ينظروا إلى ما حولهم ، من جمال الطبيعة ، فيألفوه ويصفوه ، ولا يشغلوا عن رياض العراق وجناته ، بطلول الجزيرة العربية وصحاريها ؛ ومثل هذا الشعر كثير فى خمريات أبى نواس ، كثير فى غير الخمريات أيضاً ، يكفى أن ترجع إلى ديوانه ، لتقنع منه بما تريد .

هذا أحد الشيئين اللذين كان يقصد إليهما أبو نواس ، حين يَتَفَنَّنُ فى وصف الخمر واللذة .

والشيء الآخر . مذهبه فى الحياة لا فى الأدب ، وذكرناه كثيراً ، فسخط الناس وأشفقوا ، وغلا بعضهم فى السخط والإشفاق ، حتى ظن بنا أنا نأتمر بالدين والعادة والخلق ، حين لم نكن نفكر إلا فى شيء واحد ، هو التاريخ ، هذا الشيء الذى نريد اليوم أن نمر به مسرعين ، هو المجون ، فقد كان أبو نواس مجدداً فى كل شيء ، مجدداً فى الشعر ، ومجدداً فى الحياة ، ويقيننا نحن أن أبا نواس لم يكن مجدداً وحده ، وإنما كان أهل عصره كلهم مجددين أيضاً .

والفرق بين أبى نواس وغيره من معاصريه ، أنه كان يريد أن يحمل هؤلاء المعاصرين على أن يعترفوا بحياتهم ، ولا يكذبوا على أنفسهم ، فإذا كانوا قد نبذوا القديم واجتنبوه فى واقع الأمر ، فمن الحق عليهم ألا يخفوا هذا ولا يفروا منه ، فهو إذن فى قضية المجون ، يسلك نفس الطريق التى يسلكها فى قضية الأسلوب الأدبى ، يرى أن هناك تطوراً واقعاً ، وأننا خاضعون لهذا التطور ، وأننا ننكر هذا التطور ، ولا ننكر خضوعنا له ، وإنما نؤمن به إيماناً ، ونعترف به اعترافاً ، وحجته فى ذلك أن هذا سبيل الصادقين ، وأنك قد تستطيع أن تخفى ما تشاء على من تشاء ، ولكنك لن تستطيع أن تخفى على الله شيئاً والله وحده هو الذى يجب أن تصدقه فى سرك وجهرك ، فإذا اجترأت على معصية الله ومخالفة حدوده ، فما يعنيك أن يقول الناس فيك ! وانظر هذه الأبيات :

. . . .

لاَ تَسْقِنِى إنْ كُنْتَ بِى عالِماً   إلاَّ الَّتِى أَضْمَرْتُ فِى صدْرِى

هَاتِ التِى تَعْرِفُ وَجْدِى بِها ... وَاَكْنِ بِما شِئْتَ عَنِ الخَمْرِ
يا حَبَّذَا الجهْرُ بِأَمْرِ الصِّبَا ... مَا كُنْتَ مِنْ رَبِّكَ فى سَتْرِ

هو إذن مقتنع بوجوب العدول عن القديم ، والاعتراف بالجديد ، وهو شديد الاقتناع ، قد يتكلف فى سبيله ما يتكلفه المقتنعون ، من الإسراف والتعصب والخروج عن الطور ، وانظر إلى هذه الأبيات ، التى لم يحفل فيها أبو نواس بقاعدة دينية أو خلقية ، وإنما اتخذ الإباحة والصراحة مذهباً وسبيلا :

أَلاَ فَاسْقِنِى خَمْرًا وَقُلْ لِى هِى الخَمْرُ ... وَلاَ تَسْقِنِى سِرًّا إذَا أَمْكَنَ الجَهْرُ
فَعَيْشُ الْفَتَى فِى سَكْرَةٍ بعْدَ سَكْرَةٍ ... فَإن طَالَ هذَا عِنْدَهُ قَصرَ ٱلدَّهْرُ
ومَا الْغَبْنُ إلاَّ أَنْ تَـرَانِىَ صَاحِياً ... وَلاَ الْغُنْمُ إلاَّ أَنْ يُتَعْتِعَنِىَ السُّكْرُ
فَبُحْ بِاسْمِ منْ أَهْوَى ودَعْنِى مِنَ الْكُنَى ... فَلاَ خَير فِى اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ
وَلاَ خَيرَ فِى فَتْكٍ بِغَيرِ مَجَـانَةٍ ... وَلاَ فِى مُجُونٍ لَيْس يَتْبَعُهُ كُفْرُ

ولا تحسبن أبا نواس شاذًّا فى هذا أو منتحلا إياه انتحالا ، وإنما هو أثر البيئة فيه ، وهو نفسه يحدثنا بهذا ، فيقول :

وقائِلٍ هلْ تُرِيدُ الحَجَّ قُلْتُ لَهُ ... نَعمْ إذَا فَنِيَتْ لذَّاتُ بَغْدَاذِ
أَمَّا وَقُطْرُبُلٌّ مِنْها بِحَيْثُ أَرَى ... فَقُنَّةُ الْفَرْكِ مِنْ أَكْنَافِ كَلْوَاذِ
فَالصَّالِحِيَّةُ فَالْكَرْخُ التِى جمَعَتْ ... شُذَّاذَ بغْدَاد مَا هُمْ لِى بِشُذَّاذِ
فكَيْفَ بِالحجِّ لِى مَادمْتُ مُنْغَمِساً ... .
وَهَبْكَ مِنْ قَصْفِ بَغْدَادتُخَلِّصُنى ... كَيْفَ التَّخَلُّصُ لِى منْ طَيْرِ نَاباذِ

ويقول بعد أن حج :

قَالُوا تَنَسَّكْ بَعْدَ الحَجِّ قُلْتُ لَهُمْ ... أَرَى وأَرْجُو وَأَخْشَى طَيْرَ نَاباذَا
أَخْشَى قُضَيِّب كَرْمٍ أَنْ يُنازِعَنِى ... رَأْسَ الْقِطَارِ وَإنْ أَسْرَعْتُ إغْذَاذَا
مَا أَبْعَدَ النُّسْكَ مِنْ قَلْبٍ تَقَسَّمَهُ ... قُطْرُ بُلٌّ فَقُرَى بُنَّى فَكَلْوَذَا
فَإنْ سَلِمْتُ ،وَمَا قَلْبِى عَلَى ثِقَةٍ ... مِنَ السَّلاَمَةِ لَمْ أَسْلَمْ بِبَغْدَاذَا

مَا شِئْتُ مِنْ بَلَدٍ دَانٍ مَنَازِهُهُ . . . .
وُقْحاً تَوَاصَوْا بِتَرْكِ الْبِرِّ بَيْنَهُمُ تَقُولُ ذَا شَرُّهُمْ بَلْ ذَاكَ بَلْ هذَا
لَيْسُوا كَقَوْمٍ إِذَا حَاذَيْتَ مَجْلِسَهُمْ أُنْفِذْتَ بِالتَّرْكِ وَالْأَرْكَانِ إِنْفَاذَا
هُنَاكَ لَا نَتَخَطَّى الْأُذْنَ لَائِمَةٌ وَلَا تَرَى قَائِلاً مَنْ ذا وَلَا مَاذَا

فقد رأيت مما روينا ، أن أبا نواس لم يبتدع مذهبه في القديم ، ولا فى المجون ابتداعاً ، ولم يتكلفه تكلفاً ، وإنما عاش فى عصر وبيئة ، كانا يضطرانه إلى أن يرى هذا الرأى ، وينهج هذا المنهج ، وكل الفرق بينه وبين خصومه وأنصاره — كما قلنا — أنه كان صريحاً يؤثر الاعتراف بحياته التى يحياها ، على التستر والتكتم ، ولسنا نقول إنه مصيب ، ولسنا نقول إنه مخطئ ، فقد يختلف الناس فى أن الصراحة خير أو شر ، إذا كان موضوعها الإثم والمجون ، وليس يعنينا أن تكون صراحة أبى نواس شرًّا أو خيراً ، وليس يعنينا الآن إثم أبى نواس أو مجونه ، أو بغضه للقديم وحبه للحديث ، ليس يعنينا شىء من هذا فى نفسه ، فنحن لا نتخذ أبا نواس قدوة ولا إماماً ، ولا نعتقد أن أبا نواس يصلح قدوة أو إماماً فى ضروب الحياة المختلفة ، وإنما نحن نذهب مذهب المؤرخ ، ويخيل إلينا أن هذا البحث على إيجازه ، ينتج لنا أن شعر أبى نواس فى الخمر على ما فيه من جمال فنى يعجب الأدباء والنقاد ، كان يرمى إلى غرضين اثنين : الاعتراف بالجديد فى الأدب : والاعتراف بالجديد فى الحياة ، بل نستطيع أن نوجز فنقول ، كان شعر أبى نواس كله ، رفضاً للقديم فى كل شىء ، وكلفاً بالجديد فى كل شىء .

والآن وقد عرفنا فلسفة أبى نواس فى الخمر ، لا ينبغى أن ننصرف عن هذا البيت من شعره ، دون أن نشير إلى ما له من المقطوعات ، والقصائد التى تنظر إليها فى نفسها النظر الفنى الخالص ، فلا تستطيع إلا أن تعجب بها وترضى عنها ، فتقرأها ، وتقرأها ، وتميل إلى حفظها ، وتميل إلى أن تسمعها فى الغناء .

كثير جدًّا هذا النوع من شعر أبى نواس فى الخمر ، وكأنه كان يريد

حين يضع هذه المقطوعات أن تتخذ للغناء والتلحين ، تمجيداً للخمر ، وتأييداً لمذهبيه فى الأدب والمجون ، فأنت تذكر همزيته المشهورة :

«دع عنك لَومى فإن اللوم إغراء»

وتذكر أنى قد حللتها فى غير هذا المكان ، وتذكر قصيدته الأخرى :

أَعَاذِلُ أَعْتَبْتُ الْإِمَامُ وَأَعْتَبَا وأَعْرَبْتُ عَمَّا فى الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا

وانظر إلى هذه القصيدة ، وقد كان فيها جدال بينه وبين مسلم بن الوليد :

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بِسُحْرَةٍ فَارْتَاحا وَأَمَلَّهُ دِيكُ الصَّبَاحِ صِيَاحَا
أَوْ فَى عَلَى شَرَفِ الجِدَارِ بِسُدْفَةٍ غَرِدًا يُصَفِّقُ بِالجَنَاحِ جَنَاحَا
بَادِرْ صَبَاحَكَ بِالصَّبُوحِ وَلاَ تَكُنْ كَمُسَوِّفِينَ غَدَوْا عَلَيْكَ شِحَاحَا
وَخَدِينِ لَذَّاتٍ مُعَلِّلٍ صاحِبٍ يَقْتَاتُ مِنْهُ فُكاهَةً وَمُزَاحَا
نَبَّهْتُهُ واللَّيْلُ مُلْتَبِسٌ بِهِ وَأَزَحْتُ عَنْهُ نِقَابَهُ فَانْزَاحَا
قَالَ ابْغِنِى المِصْبَاحِ قُلْتُ لَهُ اتَّئِدْ حسْبِى وَحَسْبُكَ ضَوْءُهَا مِصْبَاحاَ
فَسَكَبتُ مِنْهَا فى الزُّجاجةِ شَرْبَةً كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحَا
مِنْ قَهْوَةٍ جَاءَتْكَ قَبْلَ مِزَاجِهَا عُطُلاً فَأَلْبَسَهَا المِزَاجُ وِشَاحا
شَكَّ الْبِزالُ فُؤَادَهَا فَكأَنَّمَا أَهْدَتْ إِلَيْكَ بِرِيحِهَا تُفَّاحَا
صَهْبَاءُ تَفْتَرِسُ النُّفُوسَ فَمَا تَرَى مِنْهَا بِهِنَّ سِوَى السُّبَاتِ جِرَاحَا
عمِرَتْ يُكَاتِمُكَ الزَّمَانُ حَدِيثَهَا حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّآمَةَ بَاحَا

وانظر إلى هذه المقطوعة ، التى تكلف أبو نواس فيها البديع ، فأحسن التكلف :

عَاذِلِى فى الْمُدَامِ غَيْرَ نَصِيحِ لَا تَلُمْنِى عَلَى شَقِيقَةِ رُوحى
لَا تلُمْنِى عَلَى التى فَتَنَتْنِى وأَرَتْنِى الْقَبِيحَ غَيْرَ قَبِيحِ
قَهْوَةٌ تَتْرُكُ الصَّحِيحَ سقِيماً وَتُعِيرُ السَّقِيمَ ثَوْبَ الصَّحِيحِ

إنَّ بَذْلى لَهَا لَبَذْلُ جَــوَادٍ   واقْتِنَائِى لَهَا اقْتِنَاءُ شَحِيحِ

وانظر إلى هذه الأبيات ، التى لا يشك قارئها أنها قيلت أمس أو اليوم ، لأنها تصف شيئاً مما نحن فيه ، وأحسب أنها ستظل جديدة على الدهر :

تَفْتِيرُ عَينَيْكَ دَلِيلٌ عَلَى   أَنَّكَ تَشْكو سَهَرَ الْبَارِحَهْ

عَلَيكَ وَجْهٌ سَيِّئٌ حَالُهُ   مِنَ لَيْلَةٍ بِتَّ بِهَا صَالِحَهْ

وَنَفْحَةُ الْخَمْرِ وَأَنْفَاسُهَا   وَالْخَمْرُ لَا تَخْفَى لَهَا رَائحَهْ

وَغَادَةٌ هارُوتُ فِى طَرْفِهَا   وَالشَّمْسُ فِى مَفْرِقِهَا جَانِحَهْ

تَسْتَقْدِحُ العُودَ بِأَطْرَافِهَا   وَنَغْمَهُ فِى كَبِدِى قَادِحَــهْ

وانظر إلى هذه الأبيات أيضاً ، وحدثنى ، أليست وضعت لتغنى :

أَلْهُ بِالْبِيضِ الْمِلَاحِ   وَبِقَيْنَــاتٍ وَرَاحِ

لَا يَصُــدَّنَّكَ لَاحٍ   هُوَ عَنْ سُكْرِكَ صَاحِ

لَيْسَ لِلْهَمِّ دَوَاءٌ   كَاغْتِبَــاقٍ واصْطِبَــاحِ

فَلَعَمْرِى مَا يُدَاوَى الْ   هَمُّ بِالْمَــاءِ الْقَرَاحِ

ولو أنى أردت أن أروى لك كل ما يعجب من هذا الشعر لما فرغت ، ولكنى أريد أن أختم هذا الفصل بقصيدة كلها جد ، وقد أعجب بها العلماء والنقاد فى القرن الثالث ، لأن أبا نواس عرض فيها للوصف فأجاده ، وأحسنه إحساناً عظيماً ، وأعجب بها أنا ، لأن أبا نواس أراد أن يبكى الأطلال والديار فبكاها ، ولكنه لم يبك أطلال البادية ، وإنما بكى أطلال الحاضرة . لم يبك أطلال حى ارتحل ، وإنما بكى أطلال الشرب وأصحاب اللهو ، بعد أن فرغوا من لهوهم ، وانصرفوا عن ملهاهم ، فتركوا فيه ما ترك أمثالهم من الآثار ، فأبو نواس لا يذكر الخيمة ولا النؤى ولا الوتد ، وإنما يذكر ما ستسمع :

وَدارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا   بهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدارِسُ

مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزِّقاقِ عَلَى الثَّرَى   وَأَضْغاثُ رَيْحانٍ جَنِىٌّ ويَابِسُ

حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ وَإِنِّى عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ
وَلَمْ أَدْرِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدَتْ بِهِ بِشَرْقِىِّ سَاباطَ الدِّيَارُ البَسَابِسُ
أَقَمْنَا بِهَا يَوْماً وَيَوْمَيْنِ بَعْدَهُ وَيَوْماً لَهُ يَوْمُ التَّرحُّلِ خَامِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ فِى عَسْجدِيَّةٍ حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فارِسُ
قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِى جَنَبَاتِهَا مَهًى تَدَّرِيهَا بِالْقِسِىِّ الْفَوَارِسُ
فَلِلْخَمْرِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلاَنِسُ

أرأيت إلى هذه الآثار التى تركها جر الدنان ؟ أرأيت إلى هذا الريحان جنيه ويابسه ؟ هذه هى أطلال أبى نواس ، ثم أتحس فى هذه القصيدة شيئاً من الميل إلى الفرس والإعجاب بهم ، والحنين إلى عهدهم القديم ! ثم أترى وصف الكأس وما فيها من صورة ، وتقسيم هذه الصورة بين الخمر ومزاجها ! ثم انظر إلى هذا البيت الذى يبتدئ به أبو نواس إحدى قصائده ، وانظر إلى ما فيه من هذه السخرية العصرية بأصحاب الأطلال والباكين عليها ، بامرئ القيس وأصحابه :

قُلْ لِمَنْ يَبكِى عَلَى رَسْمٍ دَرَسْ وَاقِفاً مَا ضَرَّ لَوْ كانَ جَلَسْ
تَصِفُ الرَّبْعَ وَمَنْ كانَ بِهِ مِثْلَ سَلْمَى وَلُبَيْنَى وَخَنَسْ
اُتْرُكِ الرَّبْعَ وَسَلْمَى جَانِباً وَاصْطَبِحْ كَرْخِيَّةً مِثْلَ الْقَبَسْ

هذه طائفة من شعر أبى نواس فى الخمر ، لم نتكلف اختيارها ، ولا نشك فى أن لأبى نواس خيراً منها ، ولكننا أطلنا فى هذا الباب ، فلننتقل منه إلى الغزل فى الأسبوع الآتى .

الغزل فى شعر أبى نواس [1]

غزله بالنساء — غزله بالغلمان — الإماء فى بغداد — الحرائر فى العصر العباسى — حبه لجنان .

رأينا مذهب أبى نواس فى وصف الخمر وتمجيدها ، وعرفنا أنه لم يصف الخمر عبثاً ، وإنما وصفها وسيلة ، إلى إعلان رأيه فى تجديد الأدب ، وإعلان مذهبه فى المجون ، وإعلان ما يكن للخمر من حب ، وما يختصها به من كلف .

ونريد اليوم أن نعرف مذهب أبى نواس فى الغزل ، ولكنى أتعجل فألفتك إلى أن هذا غير ميسور ، لأن أبا نواس لم يتغزل كغيره من الشعراء الذين سبقوه ، ولم يسلك السبيل التى مهدت من قبله ، وإنما سلك سبلا أخرى ليس يباح لنا ، فى صحيفة سيارة ، أن نسلكها معه ، أو نتبعه فيها .

لأبى نواس غزلان : غزله بالنساء ، وغزله بالغلمان ، وهو مجيد فى الثانى ، محسن الإحسان الفنى كله ، صادق أيضاً أشد الصدق ، ولكنك تقرنا على أننا لا نستطيع أن نطرق هذا الباب ، إلا فى كتاب مخصص لأبى نواس ، يقرؤه الخاصة ، ولا تصل إليه يد العامة ، إلا مصادفة وبعد مشقة .

أما غزله بالنساء فكثير ، وفيه الجيد ، ولكن فيه الردىء ، ولعلك إذا أردت أن تميز هذا الغزل ، أو تصفه بوصفه الصحيح ، لم تستطع أن تعدل عن هذا الحكم ، وهو أن أبا نواس لم يكن جاداً ولا صادقاً حين كان يتغزل بالنساء ، وإنما كان مازحاً ، أو بعبارة أصح كان مخادعاً ، وكان كذاباً ، كان مغروراً وكان مفتوناً ، وكان مع هذا كله شاعراً ، يريد أن يطرق أبواب الشعر جميعها ، ومنها التغزل بالنساء ، فتغزل بهن ، حتى لا يفوته هذا الفن ، وفى الحق أنه لم يقصّر فى هذا الفن ، فقد وصف النساء فأحسن وصفهن ،

---

(١) نشرت بالسياسة فى ١٨ من ذى الحجة سنة ١٣٤١ — أول أغسطس سنة ١٩٢٣ .

وقد وصف ما بين النساء والرجال من صلة ، فأجاد الوصف ، وأتقن التصوير .

ولكنه لم يصف النساء جميعاً ، وإنما وصف منهن طائفة خاصة ، ولم تكن هذه الطائفة أقرب النساء إلى الطهر والعفاف ، ولا إلى البر والصون ، وإنما كانت طائفة مبتذلة ممتهنة ، حظها من الطهر والعفاف قليل . لم يعرض أبو نواس أو لم يكد يعرض للمحصنات من النساء ، ولا للحرائر منهن ، وإنما عرض للإماء ، فأحسن وصفهن ، وترك لنا منهن صورة إن لم تكن صحيحة صادقة كل الصدق ، فهى قريبة جداً من الحقيقة الواقعة ، عرض للإماء ولطائفة بعينها من الإماء ، لهذه الطائفة التى كانت تتألف من إماء مهذبات ، قد أحسن تأديبهن ، فروين الشعر وقرضنه ، وأحسنّ الموسيقى ، ونبغن فيها ، وأخذن من العلم والأدب المعروفين حينئذ بطرف لا بأس به ، فكن يثبتن لمناظرة الشعراء والعلماء وأئمة اللغة ، وكن يمتزن بذلك ، ويتقدمن على الحرائر والمحصنات ، لأن حرية هؤلاء وإحصانهن كانا يحولان بينهن وبين التحدث إلى الرجال ، والتبذل فى هذا الحديث .

كان الإماء إذن مظهر المرأة فى بغداد ، ولكنه كان مظهراً سيئاً جداً من جهة ، وحسناً جداً من جهة أخرى ، كان مظهراً سيئاً ، لأنهن كن مبتذلات خليعات ، يتهالكن على الخلاعة ، ويسرفن فى المجون ، ويتخذن من تهالكن على الخلاعة ، وإسرافهن فى المجون سلاحاً قوياً ، يتملقن به لذة الرجال وشهواتهم ، ويحاربن الحرائر المحصنات حرباً غير متكافئة . وكن مظهراً حسناً لأنهن كن أديبات عالمات ، يتصرفن فى فنون الأدب والعلم على اختلافها .

ومن هنا وجب القصد والاحتياط فى الحكم على نساء هذا العصر ، بما نرى فى شعر أبى نواس وغير أبى نواس ، وبما نرى فى الأغانى وغير الأغانى ، مما يشهد بتفوقهن العقلى من جهة ، وانحطاطهن الخلقى من جهة أخرى ، يجب القصد والاحتياط ؛ لأن الكثرة المطلقة من هؤلاء النساء لا تمثل المرأة العربية الحرة ، بل لا تمثل المرأة المسلمة الحرة ، وإنما تمثل هذا الرقيق الذى كان يجلب إلى بغداد وغير بغداد من حواضر المسلمين ، فيتخذ فيها تجارة

ولهواً ، كما يتخذ تجارة ولهواً فاخر الأثاث وحسن الرياش .

هؤلاء النساء لا يمثلن المرأة الحرة ، وإنما يمثلن الرجل الحر ، فقد كن له لذة ولهواً ، وكن لأخلاقه وحياته خارج البيت مرآة مجلوة ، تمثلها أحسن تمثيل ، فلو أن هؤلاء الإماء اللاتى ذكرهن أبو نواس كن يحببن اللهو ، ويتهالكن على المجون ، ويقبلن فيه من ضروب الخلاعة والابتذال ما لا يقبله الحرائر ، لما استطاع أبو نواس وغير أبى نواس أن يقولوا فيهن ما قالوا ، أو أن يصفوهن بمثل ما وصفوهن به .

كا فى جاهلية العرب وصدر الإسلام وأيام بنى أمية شعراء يحبون الفتك ، ويتحدثون به ، فلامرئ القيس وعمر بن أبى ربيعة فى ذلك شعر كثير ، ولكن هؤلاء الشعراء كانوا يؤثرون العفة وحسن القول ، حتى فى الفتك والفحش ، وكان شعرهم الفاحش قليلا جداً ، بالقياس إلى شعرهم العفيف ، وكان الشعراء الصادقون فى الحب ، المؤثرون للعفة والطهارة فى كل ما يقولون ، كثيرين جداً بالقياس إلى هؤلاء الشعراء الفاتكين ، ذلك لأن سلطان الإماء كان ضعيفاً جداً ، أو لم يكن موجوداً فى هذه العصور ، ولأن الرجال الأحرار كانوا يؤثرون . كرامتهم على لذاتهم ، فكانوا يؤثرون نساءهم على إمائهم . أما فى أيام بنى العباس فقد تغيرت الحال تغيراً شديداً ، كثر الإماء كثرة فاحشة ، وتفوقن تفوقاً فاحشاً ، فى الأدب والشعر والغناء ، وفى ضروب الزينة واستهواء الرجال ، وتغيرت أخلاق الرجال ، فتهالكوا على اللذة ، واستبقوا إلى الشهوات ، فاعتقلوا الحرائر المحصنات ، وكلفوهن ما تتكلفه المرأة الحرة المحصنة ، من الإشراف على حياة الأسرة فى عفة وكرامة ، ولكن من وراء حجاب ، ثم أسرفوا فى اتخاذ الرقيق ، وأباحوا لأنفسهم مع هذا الرقيق من ضروب اللذات ، ما تأبى الكرامة وإكبار الحرائر اتخاذه مع الزوجات ، فكان هذا الفساد العظيم ، الذى يمثله غزل أبى نواس بالنساء والغلمان . . . أتظن أن أبا نواس كان يستطيع أن يقول فى حرة محصنة مثل هذه القصيدة :

وَنَابِهٍ فى الهَوى لَنَا نَاسِى قَطَّعَ بِالهِجْرَانِ أَنْفَاسِى

لَسْتُ لَهَا وَاصِفاً مَخَافَةَ أَنْ ... يَعْرِفَ مَا بِي جَمَاعَةُ النَّاسِ
أَكثر وَصْفِي لَهَا شِكايَةُ مَـا ... فِيهَا قَضَى ٱللهُ لِي عَلَى رَاسِي
يُطْمِعُنِي لَحظُهَا ويُؤْيِسُنِي ... باللَّفْظِ ، مِنْهَا فُؤَادُهَا الْقَاسِي
فَصُرْتُ بِاللَّحْظِ مِن مُعَذِّبَتِي ... وَاللَّفْظِ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَاليَاسِ
أَسْعَدُ يَومٍ لَهَا حَظِيتُ بِهِ ... مَقَالُهَا لِي وَلَسْتُ بِالنَّاسِي
لِذلِكَ الْيَوْمِ ما حَيِيتُ ومَـا ... تَرْجَمَ قَوْلِي سَوادَ أَنْفَاسِي
تَقُولُ لِي وَالْمُدَامُ مُرْسَلَةٌ ... تَفِيضُ حَوْلِي نُفُوسُ جُلَّاسِي
هَلْ لَكَ أَنْ تَطْرُدَ النُّعَاسَ فَقَدْ ... طَابَ انْضِوَاعُ الْمُدَامِ وَالْآسِ
قُلْتُ لَهَا فَابْتَدِي وَهَاتِي فَمَا ... حَسَوْتِ مِنْهَا فَإِنَّنِي حَاسِي
وَغَايَتِي أَنْ أَنَالَ فَضْلَتَهَا ... فِي الْكَأْسِ مِنْ شُرْبِهَا أَو الطَّاسِ
ثُمَّ أَظُنُّ الحِذَارَ نَبَّهَهَا ... وَمَا بِهَا قَدْ أَرَدْتُ مِن باس
قَالَتْ فَدَعْ عنْكَ الاحْتِيَالَ لِما ... أَرَدْتَ سُكْرِي لَهُ وَإِنْعَاسِي
أَعْرَضْتُ عَنْهَا وَقَدْ فَهِمْتُ لكِي ... تَحْسَبَ أَنِّي لِقَوْلِهَا نَاسي
ثُمَّ دَعَتْهَا الْمُدَام مِنْ كَثَبٍ ... وَاللَّيْلُ ذُو سُدْفَةٍ وَإِدْمَاسِ
فَاحْتَلَبَتْ زِقَّنا فَمَج بِهَا ... فِي الكَأْسِ رَاحاً كَضَوْءِ مِقْيَاسِ
ثُمَّ تَحَسَّتْ حَتَّى إِذَا شَرِبَتْ ... نِصْفاً كَمَا قِيسَ لِي بِمِقيَاسِ
نَازَعْتُهَا الْكَأْسَ فِيهِ فَضْلَتُهَا ... فَفُزْتُ بِالكَأْسِ بَعْد إِمْرَاسِ
فَكَادَتِ النَّفْسُ لِلسُّرُورِ بِهَا ... تَخْرُجُ بَيْنَ الْمُدَامِ وَالْكَاسِ

أترى إلى امرأة حرة محصنة تستحث أبا نواس على المنادمة ومنازعة الكأس ؟ أترى إليها تذهب هذه المذاهب الملتوية فى اجتذابه إليها ، وترغيبه فيها ، تطمعه حيناً ، وتؤيسه حيناً آخر ؟ بل أترى إلى امرأة حرة محصنة تبتذل نفسها ، فتنزل إلى المنادمة والمداعبة ؟ كلا ! وإنما هى أمة من

الإماء ، وامرأة من هؤلاء النساء اللاتى يبذلن أنفسهن ، فابتذلهن الرجال ، ومن هنا لم يكن أبو نواس صادقاً ،ومتحدثاً عن عاطفة قوية متقدة فى أكثر الأحيان ، حينما كان يذكر هؤلاء النساء ، أو يتغزل بهن ، وإنما كان يترضاهن ترضياً ، ويتملقهن تملقاً ، ويتخذهن وسيلة إلى إرضاء مجونه من جهة ، وفنه من جهة أخرى.

أضف إلى هذا أن أبا نواس كان معتدلا جدًّا فى الميل إلى النساء ، وكان مسرفاً جدًّا فى ميل آخر ... فمن المعقول ألا يتحدث عن نفسه وعواطفه حين يتغزل بالنساء ، ولا تكاد تقرأ قصيدة أو مقطوعة من شعر أبى نواس فى هذا الفن من الغزل ، إلا رأيت فيها التكلف ظاهراً ، والكذب واضحاً ، لا أريد التكلف اللفظى ، وإنما أريد تكلف المعنى ، وانتحال الحب .

وربما كان من الحق أن نستثنى من هذا الشعر شعره فى « جنان » ؛ فقد يظهر أنه كلف بها حقًّا ، وهام بها بعض الهيام ، وتجشم فى سبيلها مالا يتجشمه الماجن المداعب ، ولكنه مع ذلك لم يكن مقتصداً ولا عفيفاً فى كل ما قال فى « جنان » ، وإنما أسرف وورط نفسه فى شىء من الإثم ، فانظر إلى هذه الأبيات :

وَعاشِقَيْنِ الْتَفَّ خَدَّاهُمَا عِنْدَ الْتِثَامِ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ
فَالْتَفَيَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْثَمَا كَأَنَّمَا كَانَا عَلَى مَوْعِدِ
لَوْلاَ دِفَاعُ النَّاسِ إِيَّاهُمَا لَمَا اسْتَفَاقَا آخِرَ الْمُسْنَدِ
قُلْنا كِلاَنَا سَاتِرٌ وَجْهَهُ مِمَّا يَلِي جَانِبَهُ بِالْيَدِ
نَفْعَلُ فِى الْمَسْجِدِ ما لمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ الأَبْرَارُ فِى المَسْجِدِ

وليس من شك فى أنهما كانا على موعد ، فانظر إلى هذه الأبيات :

أَلَمْ تَرَ أَنَّنِى أَفْنَيْتُ عُمْرِى بِمَطْلَبِهَا وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبَباً إِلَيْهَا يُقَرِّبُنِى وَأَعْيَتْنِى الأُمُورُ
حَجَجْتُ وَقُلْتُ قَدْ حَجَّتْ جِنَانٌ فَيَجْمَعُنِى وَإِيَّاهَا المَسِيرُ

وأنا أحسب أن حب أبى نواس لجنان لم يكن من الحب الصادق العفيف ، وإنما كان نوعاً من الأمل ، يتحرق الرجل لتحقيقه ، ويعسر عليه هذا التحقيق ، فأما إيثارها بالخير ، وتقديم لذتها على لذته ، وأمنها على أمنه ، فعاطفة أحسب أنها لم تجد إلى نفسه سبيلا ، وهذه الأبيات أصدق دليل على ذلك :

يَا قَمَرًا أَبْصَرْتُ فِى مَأْتَمٍ ... يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ
يَبْكِى فَيُذْرِى الدُّرَّ مِنْ نَرْجِسٍ ... وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بِعُنَّابِ
أَبْرَزَهُ الْمَأْتَمُ لِى كَارِهاً ... بِرَغْمِ بَوَّابٍ وَحُجَّابِ
لاَ زَالَ مَوْتاً دَأْبُ أَحْبابِهِ ... وَكَانَ أَنْ أُبصِرهُ دابِى

أتظن أنه يحبها حقًّا حين يتمنى أن يموت أحبابها فى كل يوم ، لتظهر معولة ، نادبة ، وليستطيع هو أن يراها ؟ ألست ترى فى هذا أن الرجل كان أثراً مسرفاً فى حب نفسه ولذته ، يريد أن يستمتع بمنظر هذه المرأة ، مهما تكلف هذه المرأة فى هذا من شر ، واحتملت من خطوب ! لم يكن أبو نواس إذن صادقاً فى حب النساء ، وليس شعره صادقاً فى تمثيل النساء كماهو صادق فى تمثيل الرجال ، ولكنه على هذا كله يظهرنا على وجه من وجوه الحياة الأدبية والعادية فى بغداد أيام بنى العباس .

ومن الحق أن نتبين هذا الوجه ونحسن درسه ، فقد يعيننا ذلك على فهم أشياء كثيرة لم نفهمها بعد من أمر هذا العصر ، وإذن فمن الحق أن نتناول هذا الفن من شعر أبى نواس بشىء من البحث المفصل الدقيق ، وأن نعرض فى شىء من التفصيل لمن عرف من هؤلاء الإماء اللاتى تعشقهن أبو نواس . ونرجو أن نفى بذلك فى مقال آخر.

الغزل عند أبي نواس [1]

صدق الغزل الأموى – تكلف الغزل
العباسى – الغزل بالغلمان .

بعيداً جداً ما بين هذا الغزل النُّواسى العباسى ، الذى أشرت فى الفصل الماضى إلى أنه ضعيف متكلف ، وذلك الغزل الأموى العربى ، الذى أشرت فى فصل مضى أول هذا العام إلى صدقه وقوته .

نعم ! إن الفرق عظيم بين هذا الغزل النواسى ، وبين ذلك الغزل الذى كان ينشره جميل أو كُثَيِّر أو عمر بن أبى ربيعة . الفرق عظيم جداً ، وليس عظم هذا الفرق شيئاً غريباً فى نفسه ، فيكفى أن تنظر إلى العصر الأموى والعصر العباسى من جهة ، وتنظر إلى نفسية الشعراء الأمويين ، ونفسية أبى نواس من جهة أخرى ، لتقتنع بأن هذا الفرق لا ينبغى أن يكون غريباً ، بل ينبغى أن يكون واجباً محتوماً . يجب أن تنظر إلى العصرين ، لترى فى أولهما ، على رقيه وعناية الناس فيه باللذة والعاطفة ، سذاجة ظاهرة ، مصدرها أن الاختلاط بين العرب وغير العرب لم يشتد ، ولم ينته إلى نتائجه المعقولة . ولترى فى ثانيهما أن النفس العربية قد أخذت تبرأ قليلا قليلا من عربيتها ، وتتأثر بهذه الأجناس المختلفة من الناس ، التى كانت تفد على العراق ، وعلى بغداد بنوع خاص ، فتحمل أمزجتها وأهواءها ولذاتها ، وكل ما فيها من خير وشر بعيد ما بينه وبين ما فى نفس الأجناس العربية من صلة .

يكفى أن تنظر إلى هذا كله . لتعرف هذا الفرق بين الغزل العباسى عامة ، وبين الغزل الأموى عامة ، فإذا فهمت هذا ، وعرفت له أثره فى نفس أبى نواس ، وجب عليك أن تنظر إلى أبى نواس نفسه ، وإلى ما قدمت من حياته وميوله وأهوائه ، وأن تنظر بعد ذلك إلى أئمة الغزل من شعراء العصر الأموى ،

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٨ صفر سنة ١٣٤٢ – ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٣ .

وإلى نفسياتهم المختلفة ، فتزداد بهذا الفرق إيماناً ، ويزداد هذا الفرق أمامك وضوحاً .

كان « جميل » وأمثال « جميل » قوماً غزلين بطبيعتهم ، غزلين لأنهم يحبون النساء ، أو يحبون امرأة بعينها بين النساء ، يحبونها ويكلفون بها ، فيملك عليهم هذا الحب نفوسهم وحياتهم ، حتى لا يعيشون إلا به وله ، وحتى لا يصدرون إلا عنه ، ولا يردون إلا عليه ، وكانت نفوسهم صافية لم تكدرها آثام الحضارة ، سهلة لم تعقدها حاجات المدنية ، فكانوا إذا ذكروا النساء ، أو تغنوا بحبهن ، وصفوا عواطف قوية صادقة ، فصدقوا فى الوصف ، وكانوا فيه أقوياء .

ثم كان « كُثَيِّر » وأمثال « كثيِّر » يحبون النساء ، ويحبون ذكر النساء يتخذونه فنًّا ، ويحاولون الإجادة فيه ، فلم يكونوا من صدق العاطفة وقوتها بمكان جميل وأصحاب جميل ، ولكنهم كانوا قريبين منهم ، لأنهم كانوا يتأثرونهم ، ويسلكون سبيلهم ، ويريدون أن يخدعوا الناس عن أنفسهم ، وأن يمثلوا أنفسهم فى صورة العاشقين حقًّا ، كان الأولون صادقين ، وكان الآخرون يريدون أن يظهروا مظهر الصادقين ، وربما لم يحرموا الصدق حرماناً تامًّا .

أما عمر بن أبى ربيعة ، ومن سار سيرته من شعراء بنى أمية ، فلم يكونوا يصدرون عن عاطفة عذرية ، ولم يكونوا يتكلفون هذه العاطفة العذرية ، لم يكونوا ينظرون إلى المرأة من حيث هى المثل الأعلى للجمال والحب ، وإنما كانوا ينظرون إليها من حيث هى المثل الأعلى للجمال واللذة ، والفرق بين هاتين الوجهتين عظيم . كان ابن أبى ربيعة رجلا يحب الحياة ، ويحب المرأة ، لأنها زينة الحياة ، أو لأنها اللذة فى الحياة ، وكان صادقاً فى حب المرأة ، من حيث هى لذة الحياة ، فكان غزله على بعده من العذرية أو من الأفلاطونية ، كما يقول المحدثون ، مؤثراً ، لأنه كان صادقاً ، ولأنه كان يترجم عن عواطف صحيحة ، تؤثر فى نفس الشاعر ، وتؤثر فى حياته العملية أيضا . . . كذلك كان شعراء بنى أمية ، سواء منهم العذريون حقًّا ، ومن تكلفوا العذرية ، ومن

أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إلى إلا اللذات ، وضروب اللهو بالنساء .

أما أبو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذرياًّ ، وما كان يستطيع أن يكون عذرياًّ ، وهو الرجل الذى شك فى كل شىء ، أو قل أنكر كل شىء ، ولم يؤمن إلا بالمجون واللذة ، يلتمسهما حيث يجدهما ، لا يتقيد فى ذلك بحرج أو جناح ، لم يكن عذرياًّ ولم يكن يتكلف أن يكون عذرياًّ ، وإنما كان يسخر من العرب ، ومما كان العرب يتكلفون ، لم يكن يتكلف العذرية ، وإنما كان يهيم باللذة ، وبلذة غير التى كان يهيم بها عمر بن أبى ربيعة ، لم يكن أبو نواس يحب النساء ، وكان ينفر منهن نفوراً شديداً ، حتى لم يفلح الذين أرادوه على أن يتزوج ، على رغم إلحاحهم عليه ، وتوسلهم إليه . لم يفلحوا ، لأن أبا نواس لم يكن يتصور حياة الزوجية ، ولم يكن يستطيع أن يعيش عيشة متصلة مع امرأة .

لم يكن إذن يحب النساء ، فلم يكن من الميسور أن يهيم بهن ، أو يحسن الغزل فيهن ، ومع ذلك فقد تغزل ، تغزل لأنه شاعر ، ولأنه من الحق على كل شاعر أن يتغزل ؛ فالغزل فن من فنون الشعر . يجب على الشعراء المجيدين أن يطرقوه ، ويأخذوا منه بنصيب ، وقد طرقه أبو نواس ، وأخذ منه بنصيب ولكنا نظلم أبا نواس إن قلنا : إنه لم يكن قط صادقاً فى غزله ، نظلمه لأنه كان صادقاً فى غزله ، بل كان شديد الصدق فيه ، بل قد نستطيع أن نقارن بينه وبين عمر بن أبى ربيعة فى صدق العاطفة ، وإجادة الوصف ، وقوة التأثير إذا احتفظنا بشيئين : أحدهما الفرق بين العصر العباسى والعصر الأموى ، والآخر أن أبا نواس لم يكن يجيد الغزل بالنساء ، وإنما كان يجيد الغزل بالغلمان . . . فلأبى نواس فى هذا الباب ما لابن أبى ربيعة فى الغزل بالنساء ، بل أنا أزعم أن أبا نواس فى هذا الباب أشعر من ابن أبى ربيعة فى الغزل بالنساء ، ولست أستدل على هذا إلا بشىء واحد ، وهو أن أبا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على أن تعجب بهذا الغزل ، على رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين ، أما ابن أبى ربيعة فهو لا يكرهك على أن تعجب بغزله ، بل كل شى يحملك على أن تعجب بغزله ، فطبيعتك تحبب إليك ذكر النساء والتغزل بهن ، وإذا

أسرف ابن أبى ربيعة فتجاوز الخلق أو الدين ، فليس فى هذا الإسراف خروج عن الطبيعة ، أو تجاوز لها ، وإنما هو جزء من الطبيعة ، أو قل إنه الطبيعة بنفسها ، جاء الدين والأخلاق لتقييدها وإصلاحها .

أبو نواس إذن مجيد حين يتغزل بالغلمان ، ولكنه فاتر أو كاذب أو متكلف حين يتغزل بالنساء ، وهو على كل حال لا يصف حين يذكرهن عاطفة قوية فى نفسه ، أو حباً صحيحاً ، وإنما يصف ضروباً من اللهو ، وفنوناً من المجون ، وقد يصف أحدنا الحب فيحسن الوصف ، لا لأنه يشعر به ، بل لأنه شاعر مجيد ، يتكلف الشيء فيحسنه أحياناً .

وقد يمتاز غزل أبى نواس بشيء فسرته فى الفصل الماضى ، وهو أنه لم يتغزل بحرة ، وإنما وقف غزله كله على الإماء ، وذلك واضح ؛ فقد عرفنا أنه يكره الزواج ، وعرفنا أنه كان ماجناً مسرفاً فى المجون ؛ فلم يكن من السهل عليه ، ولا من الميسور له ، أن يخالط الحرائر ، أو يتحدث إليهن ، حين كان من اليسير عليه أن يداعب الإماء ، ويسرف فى مداعبتهن ، ولا سيما بعد ما قدمت لك فى الفصل الماضى من رقى الأمة فى هذا العصر ، وتفوقها على الحرة ، وتهالكها على اللهو والمجون . فإذا عرفنا هذا كله ، وأنزلنا غزل أبى نواس منزلته الصحيحة ، كان من اليسير أن نتبين شيئاً مما فى هذا الغزل من جودة اللفظ والمعنى ، لا على أن نتخذ هذه الجودة مقياساً لنبوغ أبى نواس فى الشعر ، أو لصدقه فى الحب ، فإذا أردنا أن نبحث عن مقياس لنبوغ أبى نواس فى الشعر ، أو لصدقه فى الحب ، فليس أمامنا إلا وصفه للخمر ، وغزله بالغلمان ، وإنما نبحث عن غزله بالنساء ، لنعرف شيئاً من أخلاق العصر ، ومن أخلاق الإماء فيه ، ولنعرف أيضاً شيئاً من ظرف النساء فى بغداد ، وإن شئت فقل : من ظرف الغزل بالنساء فى بغداد ، ولهذه الأشياء قيمتها فى الأدب وفى التاريخ .

وانظر إلى هذا العبث الذى يمثل الحياة البغدادية ، حياة المجون والدعابة تمثيلا صحيحاً :

أَرْسَلَ مَنْ أَهْوَى رَسُولاً لَهُ إِلَيَّ وَالمَنْسُوبُ محْبُوبُ
فَقُلْتُ أَهْلاً بِكَ مِنْ مُرْسَلٍ وَمِنْ حَبِيبٍ زَانَهُ طِيبُ
جَمَّشْتُهُ فِى كِلْمَةٍ فَانْثَنَى وَقَالَ هذَا منكَ تجريبُ
مِثْلكَ لاَ يَعْشَقُ مِثْلِى وَقَدْ هَام بِهِ بَيْضَاءُ رُعْبُوبُ
وَجاءت الرُّسْلُ بِأَنْ آتِنا فَجِئْتُهَا وَالْقَلْبُ مرْعُوب
قالتْ : تعشَّقْتَ رسولِى لقدْ بدتْ لنَا مِنْكَ الأَعَاجِيبُ
ذَاكَ وَهٰذَا لَكَ يَا غَادِرًا فِى دَفْتَرِ الْحَاصِلِ مَكْتُوبُ
منْ يَأْمَنُ الذِّئْبَ عَلَى معْزَةٍ أَهلٌ لأَنْ يَخفْرَهُ الذيبُ
فَقُلْتُ فِى رِفْقٍ وَفِى تُؤْدةٍ مَقَالةً قَدْ قَالَ يَعْقُوبُ
الذِّئْبُ لاَ يُؤْمَنُ لَكِنَّهُ عَلَيْهِ فِى يُوسُفَ مَكْذُوبُ
هُمْ طرَحُوا يُوسف فى جُبِّهِ عمْدًا وَقَالُوا خَانَهُ الذِّيبُ

أترى إليه كيف كان يحب صاحبته حبًّا قويًّا صادقاً ، حتى خانها فى رسولها ، فداعب هذا الرسول ، وهو يعترف بهذه المداعبة فيما بينه وبينك ، ولكنه حين يلقى حبيبه ، ويريد أن يدافع عن نفسه ، يضع نفسه موضع الذئب فى قصة يوسف ، ولكن أعجب من هذا أن تكتفى صاحبته منه بهذا الدفاع ، بل أن تلومه فى هذا الرفق واللين ، ولكننا فى بغداد ، وبين قوم يلهون لا أكثر ولا أقل .

وانظر إلى هذه الأبيات الأخرى التى يسخر فيها من نفسه ، فيحسن السخرية :

وقَصْرِيَّةً أَبْصَرْتُهَا فَهَوِيتُهَا هَوى عُرْوَةَ الْعُذْرِىِّ والعاشِقِ النهْدِى
فَلمَّا تَمادَى هَجْرُهَا قُلْتُ وَاصِلِى فقَالَتْ بِهذَا الْوَجْهِ تَرْجُو الْهوَى عِنْدِى
فَقُلْتُ لَهَا لَوْ كانَ فى السُّوقِ أَوْجُهٌ تُبَاعُ بنَقْدٍ حاضرٍ وَسوَى نقدِ
لغَيَّرْتُ وَجْهِى واشْتَريْتُ مَكانَهُ لَعَلَّكِ أَنْ تَهْوَىْ وِصَالىَ مِنْ بَعْدِ
وإِنْ كُنْتُ ذَا قُبْحٍ فإِنِّى شَاعِرٌ فَقَالَتْ وَلَوْ أَصْبَحْتَ نَابِغَةَ الجَعْدِى

ثم انظر إلى هذا الظرف :

سَأَلْتُهَا قُبْلَةً فَفُزْتُ بِهَا ... بَعْدَ امْتِنَاعٍ وَشِدَّةِ التَّعَبِ
فَقُلْتُ بِاللهِ يَا مُعَذِّبَتِي ... جُودِي بِأُخْرَى أَقْضِي بِهَا أَرَبِي
فَابْتَسَمَتْ ثُمَّ أَرْسَلَتْ مَثَلاً ... يَعْرِفُهُ الْعُجْمُ لَيْسَ بِالْكَذِبِ
لَا تُعْطِيَنَّ الصَّبِيَّ وَاحِدَةً ... يَطْلُبُ أُخرَى بِأَعْنَفِ الطَّلَبِ

وانظر إلى هذه القصيدة ، التى لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها بغدادية ، لأنها تمثل رقة بغداد ، وتمثل هذه النزعة الدينية التى تجدها فى العامة ، والتى تحملهم على أن يقسموا بالقرآن ، وسور القرآن ، وبالحج ، ومناسك الحج ، حين ينبغى أن يقسموا بشىء آخر :

مَالِي وَلِلْعَاذِلَاتِ ... زَوَّقْنَ لِي تُرَّهَاتِ
سَعَيْنَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ ... يَلُمْنَ فِى مَوْلَاتِى
يَأْمُرْنَنِى أَنْ أُخَلِّى ... مِنْ راحَتَىَّ حَيَاتِى
وذَاكَ مَالاَ ولا لَا ... يَكُونُ حَتَّى الْمماتِ
و « اللهِ » مُنزِلِ « طه » ... و « الطُّور » و « الذَّارِياتِ »
و« الر» و «صادٍ» و«قاف» ... وَ «الحَشْر» و« المُرسلَات » [1]
وَرَبِّ « هُودٍ » و « نُونٍ » ... و « النُّورِ » و « النَّازعاتِ »
لَا رُمْتُ هَجْرَكِ حِبِّى ... حَتَّى وَإِنْ لَمْ تُوَاتِى
تَجَمَّعُوا عَلِّمُونِى ... يَا إِخْوَتِى كَيْفَ آتِى
يَا وَيْلَنَا أَىُّ شَىْءٍ ... بيْنَ الْحَشَى وَاللَّهَاةِ
مِنْ لَوْعَةٍ لَيْسَ تُطْفَى ... تطِيرُ فى جَانِحَاتِى
أَنَا المُعَنَّى وَمَنْ لِى ... يَرْثِى لِطُولِ شَكَاتِى

(١) يريد ألف لام را ، وهو مفتتح سور من القرآن .

الظَّاهِـــرُ العَـــبرَاتِ الْبَاطِنُ الزَّفَـــرَاتِ
مُنِيتُ بِالْمُتَحَـــرِّى فِى كُلِّ أَمْرٍ مَسَاتِى[١]
يَا سَائِلِى عَنْ بَلَائِى أُنْظُرْ إِلَى لَحَظَاتِى
يَخْفَى الْهَوَى فِى سُكُونِ المحِـــبِّ والْحَـــركَاتِ
واللهِ لَوْ كُنْتُ أَعْمَى عُرِفتُ فِى سَـــحَنَاتِى
حَلَفْتُ بِالرَّاقِصَـــات فى لُجَّـــةِ الْفَلَوَاتِ
وَمُثْخَنٍ بِالْهَـــدَايا يُطَعَنَّ فى اللَّبَّاتِ
وَمَا تَـــوَافَى بِجَمْعٍ و «الشِّعبِ» فى «عَرَفات»
لَوْ جَاءَ مِنْكِ رَسُولٌ يَقُـــولُ نَفْسَكَ هَاتِ
لَقُلْتُ هَاكَ خُذَنْهَا مُسَـــلِّماً لِوَفَاتِى
وَيْلَاهُ نارُ التَّصَابِى رَقَتْ إِلَى اللَّهَوَاتِ
فَأَبكَتِ الْعينَ مِنِّى بِمِثْلِ مَاءِ الْفُـــرَاتِ
وَصَاحِبٍ كانَ لِى فى هَـــوَاىَ ذَا تُهُماتِ
لَمْ يَطَّلِعْ طَلْعَ شَأْنِى إلَّا اتِّهَامَ هَنَاتِى
فَبَيْنَما نَحْنُ نُمْسِى نَسِـــيحُ فى الطُّرُقاتِ
إذْ قِيلَ شَمْسٌ ضُحاهَا فى أَرْبَعٍ عَطِرَاتِ
فَقُلْتُ شَمْسٌ وَرَبِّى قَدْ جَلَّتِ الظُّلُمَـــاتِ
وَقَدْ نَسِيتُ الَّذِى بِى مِنهـــا مِنَ الكرُباتِ
لِريحِ حُبٍّ جَرَتْ لِى فَأَنْشَأَتْ عَـــبَرَاتِى
وَأَنْزَفَتْ مَاءَ عَيْـــنِى وأَصْعَـــدَتْ زَفرَاتِى

---

(١) يريد : مساءتى .

وقَدْ تَغيَّرَ لَوْنِي كَمِثْلِ نِقْسِ ٱلدَّوَاةِ
فَالْحُبُّ فِيهِ هناةٌ مَوْصُولهٌ بهنَاةِ
يُعْقِبْنَ طَوْرًا سُرُورًا وَتَارَةً حَسَراتِ

ألست ترى أنه قد أحسن التحدث إلى النساء ، بلغة النساء ، ولهجة النساء !

ولقد أراد أن يسلك سبيل امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة ، فيما كانا يقصان من زيارتهما لعشيقاتهما ، فقال في ذلك شعراً لا بأس به ، ولكن لا أروى لك منه إلا هذين البيتين ، لأن في أولهما إيجازاً ظريفاً ، وفي الآخر تمثيلا لأمر بغداد :

فَكِدْنَا وَلَمَّا غَيْرَ أَنَّ شِفَاهَنَا تَعَاطَتْ خَلِيطَىْ سُكَّرٍ وعُقَارِ
وَوَدَّعْتُها صُبْحاً وَلَمْ أَنْسَ صَدَّهَا وَقَدْ بَادَلَتْنِي خَاتَماً بِسِوَارِ

وانظر إليه كيف يمازح صاحبته ، ويتمنى عليها الوصل ، وينكر عليها الهجر ، ويعدها بأن لا يكون ثقيلا ، ولا مطيلا إن وصلته . كل ذلك في بيت واحد ظريف ، وهو :

فَرَاجِعِي الوَصْلَ فَإِنْ زُرْتُكُمْ قَدْرَ فُوَاقِ فاحْلِقِي رَاسِي

وانظر إلى هذه الأبيات التي لا أصفها إلا بأنها تصلح للغناء إذا أسقطت منها بيتاً واحداً ، لأن لفظ « الأنقاس » فيه غريب قد نستثقله :

إِنِّي عَشِقْتُ وَمَا بالعِشْقِ مِنْ باسٍ مَا مَرَّ مِثْلَ الهَوَى شيءٌ عَلَى رَاسِي
مَالِي ولِلنَّاسِ كَمْ يَلْحَوْنَنِي سَفَهاً دِينِي لِنَفْسِي ،وَدِينُ النَّاسِ للنَّاسِ
مَا لِلْعُدَاةِ إِذَا مَازُرْتُ مَالِكَتِي كَأَنَّ أَوْجُهَهُمْ تُطْلَى بِأَنفاسِ!
اللهُ يَعْلَمُ مَا تَرْكِي زِيارَتَكُمْ إِلاَّ مخَافَةَ أَعْدَائِي وحُرَّاسِي
ولَوْ قَدرْنَا علَى الإِتْيانِ جِئْتُكُمُ سعْياً عَلَى الْوَجْهِ أَوْمشْياً عَلَى الرَّاس
وقَدْ قَرَاتُ كِتاباً في صَحَائِفكُمْ «لاَ يَرْحَمُ اللهُ إِلاَّ رَاحِمَ النَّاس»

ولأبى نواس من هذا شيء كثير ، لا أستطيع أن أرويه ، وتستطيع أنت أن تقرأه فى ديوانه ، فتجد فيه ما شاء الله أن تجد من ألوان الكذب ، والغرور ، والدعابة ، والمجون ، والعبث بكل شيء ، وتجد فيه من القصص ما يلذ وما يضحك ، ولكنى قلت لك إن أبا نواس يمتاز فى غزله بأنه كاذب . وأريد أن أختم هذا الفصل ببيتين يشهدان عليه بأنه كاذب فى غزله ، وبأنه إنما يتكلف الغزل بالنساء ليرضى حاجته الفنية ، أو ليخدع النساء عن أنفسهن ، على أن أحد هذين البيتين فى نفسه حكمة صادقة ، يحسن أن يفكر فيها كثير من الناس :

يَا مَنْ يُوَجِّهُ أَلفَاظِى لِأَقْبَحِهَـــا ... لِأَنَّهُ سَاحِرُ العَيْنَيْنِ مَعْشُوقُ

لَوْ كَانَ مَنْ قالَ نَارٌ أَحْرَقَتْ فَمَهُ ... لَمَا تَفَوَّهَ بِاسْمِ النَّارِ مَخْلُوقُ

* * *

سأحدثك فى الفصل الآتى عن شعر أبى نواس فى الصيد والطرد .

جد أبى نواس [1]

المدح

وما رأيك فى أن نترك القديم والجديد ، وكلاماً لن يفيد ، ونعود إلى أبى نواس ، فنستأنف البحث عن شعره ، بعد أن انصرفنا عنه حيناً طويلا ، على أنا حين نستأنف البحث عن شعر أبى نواس ، لن نترك القديم والجديد ، وإنما نوغل فيهما إيغالاً ؛ فلقد كتبنا عن أبى نواس فى السنة الماضية فصولا طوالا ، أثبتت — فيما نعتقد — أنه صاحب الجديد وحامل لوائه ، وأنه خصم القديم وأشد أعدائه ، حتى خيل إلى الناس أن الأسباب كانت قد انقطعت بين هذا الرجل ، وبين الأدب العربى القديم ، وأنه كان يريد أن يهدم كل شىء ويبنى على أنقاضه شيئاً آخر ، فمن الناس من أحب أبا نواس لهذه الخصلة ، لأنها صادفت فى نفسه هوى ، وفى قلبه ميلا ، ومن الناس من كره أبا نواس لهذه الخصلة ، لأنه من أنصار القديم المشغوفين به ، الملحين فى البكاء عليه .

ولكن أبا نواس خليق بأن يحبه أولئك وهؤلاء معاً ، لأنه على حبه للجديد ، وإلحاحه فى الدعوة إليه ، كان محبًّا للقديم ، ملحًّا فى الحرص عليه ، كأنه كان يعرف أن الناس سينقسمون إلى فريقين مختلفين ، وكان يحرص على أن يأخذ من رضا كليهما بنصيب ، وما لنا نتحدث بشىء من ذلك وقد قلنا ألف مرة ومرة : إن انقسام الناس إلى أنصار الجديد وأنصار القديم ، فطرة فى الناس ، تلزمهم فى كل زمان ومكان ، إن كان لهم حظ من حياة !

وقد كان الناس أحياء أيام أبى نواس ، فكان منهم محب الجديد ، وكان منهم محب القديم ، وكانوا جميعاً أقوياء فى حبهم ، وكان من المعقول أن يتحدث إليهم جميعاً شاعر كأبى نواس بما يحبون وما يفهمون . بل ما لنا نذكر شيئاً كهذا ، ونحن نعلم أن الشاعر المجيد والكاتب البارع ، مهما

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٣ رجب سنة ١٣٤٢ — ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٤ .

يسرفا فى حب الجديد والتهالك عليه ، فهما لم ينشآ من لا شىء ، وهما لن يستطيعا أن يقطعا الصلة بينهما وبين القديم ، الذى غذاهما وأنشأهما ، فهما بطبيعة الحال يمثلان الجديد الذى يصبوان إليه ، ويمثلان القديم الذى نشآ منه .

ولقد كان أبو نواس من أكثر الشعراء رواية للقديم وحفظاً له ، قالوا إنه تحدث عن نفسه أنه روى لستين امرأة ، فكيف بالرجال ! ولسنا نستطيع أن نتصور أبا نواس إلا على أنه قد حفظ أو قرأ ما كان يرويه أئمة الشعر واللغة من شعر الجاهليين والإسلاميين وأحاديثهم ، وليس من اليسير ولا من الممكن ، أن يخلص أبو نواس من هذا كله ، فيكون جديداً صرفاً فى كل ما يقول .

فإذا تحدثنا عن أبى نواس فنحن نتحدث عن القديم والجديد ، ولن نستطيع أن نتحدث عن شاعر مجيد حقًّا ، أو عن كاتب بارع حقًّا ، إلا إذا تحدثنا عن القديم والجديد ، لأن إجادة الشعر ، والبراعة فى الكتابة ، تستلزمان شيئين لا بد منهما : الأول : الاحتفاظ بالخير من القديم ، والثانى : استغلال الجديد واجتناء ثمراته الطيبة . فنى الشاعر المجيد والكاتب البارع شخصان : أحدهما قديم ، والآخر جديد ، أو فيهما شخصية واحدة ، هى المزاج المعتدل لاتصال القديم بالجديد ، ونشوء أحدهما عن الآخر .

على أن الحياة فى عصر أبى نواس ، كانت تضطر هذا الشاعر وأصحابه إلى أن يظهروا مظهرين ، يكادان يختلفان اختلافاً تامًّا . أحدهما مظهر المجدد المسرف فى التجديد ، والآخر مظهر الحريص على القديم ، المسرف فى الاستمساك به . ذلك أن أبا نواس وأصحابه كانوا يعيشون عيشتين مختلفتين : إحداهما عيشتهم الخاصة ، يعكفون فيها على لذاتهم ، ويفرغون فيها لحاجاتهم المادية والمعنوية المختلفة ، فيتصلون فيها بعامة الناس وأوساطهم ، وأصحاب الحرف والصناعات منهم ، ويتصلون فيها أيضاً بأولئك الذين كانوا يقومون على اللذات يبيحونها للناس ، ويمهدون لهم أسبابها ووسائلها ، من الخمارين والمغنين ، والحسان ، من الذكور والإناث ، فيتحدثون إلى هؤلاء الناس جميعاً

بلغة يفهمونها ويذوقونها ، وتعبر حقًّا عما يجدون ويشعرون . وأما عيشتهم الأخرى ، فهى تلك العيشة المتصلة بالأمراء وأشراف الناس فى حياتهم الظاهرة الرسمية ، إن صح هذا التعبير ، وهم فى هذه العيشة مضطرون أن يتخذوا ما ألف الناس من شكل وصورة ، ترضاهما الأخلاق ، وتقرهما النظم الاجتماعية والسياسية ؛ وهم مضطرون إلى أن يتحدثوا إلى أمراء الناس وأشرافهم لغة شريفة مختارة ، ترتفع عن الابتذال ، وتبرأ من تافه القول ، وربما اشتد فيها التكلف ، وعظم حظها من التصنع .

كانوا مضطرين إذن إلى أن يصدقوا فى حياتهم الأولى ، ويتكلفوا الكذب والنفاق فى حياتهم الثانية ، وهذا دأب الأجيال المختلفة ؛ فلك فى بيتك وبين أصدقائك وخلانك عيشة ولغة ، تخالفان كل المخالفة أو بعضها عيشتك ولغتك حين تكون الصلة بينك وبين الناس عامة ، وحين تكون الصلة بينك وبين الكبار والزعماء خاصة ، فليس عجيباً إذن أن تقرأ لأبى نواس فى الخمر والمجون والغزل وما يشبه ذلك هذا الشعر الرقيق العذب ، الذى هو مرآة النفس حقًّا ، والصورة الصحيحة الجلية للعواطف والشعور ، هذا الشعر الذى رق لفظه ، ودق معناه ، وبرئ من التكلف ، وانحط فى بعض الأحيان ، حتى كاد يبعد عن الفصاحة المأثورة ، وليس عجيباً أن تقرأ لأبى نواس شعراً آخر قد قوى متنه ، واشتد أسره ، وتخيرت فيه الألفاظ تخيراً دقيقاً ، وتقيد فيه الشاعر بطائفة من القيود اللفظية والمعنوية والعروضية ، ما كان ليتقيد بها فى شعره الآخر .

وفى الحق أنك ترى أبا نواس حين يذكر الخمر والغزل والمجون وما يشبه ذلك من فنون الشعر ، لا يكتفى بإطلاق العنان لشعوره وعاطفته ، وإيثار اللفظ السهل العذب ، للمعنى الرقيق الحلو ، وإنما يضيف إلى ذلك شيئاً آخر ؛ فهو يؤثر من الأوزان الشعرية أخفها وأقصرها ، وأيسرها على الأذن ، وأقربها من النثر ، وألينها قياداً للمعنى . فإذا تحدث إلى الأمراء والأشراف عمد إلى اللفظ الضخم الفخم ، وإلى الأسلوب المتين الرصين . وإلى الأوزان الطوال ، التى لا تخلو من فخامة وجلال ، فاتخذها وسيلة للتعبير عما يريد أن يتحدث

به إلى هؤلاء الناس ، وكأن فنون الشعر كانت تنقسم إلى ضربين مختلفين : أحدهما هذا النحو الذى يقصد به إلى وصف اللذات وأهواء النفس وعواطفها ؛ وفى هذا الضرب من الشعر كان الشاعر حرًّا ، يرسل نفسه على سجيتها فلا يكاد يتقيد بشىء من ذلك الغزل ، والمجون ، ووصف الخمر ، والهجاء ، والآخر هذا النحو الذى يقصد به إلى الجد وفنونه ، من مدح ورثاء ، ووصف ، وفخر ؛ وفى هذا النحو يتخير الشاعر أشرف اللفظ ، ويتقيد فى الوزن والقافية والأسلوب بقيود ترفعه عن متناول العامة ، وتكسبه شيئاً من الأرستقراطية ، يلائم الموضوع الذى يقول فيه . وقد تحاول أن تقارن بين أبى نواس حيث يمجن ، ويتغزل ، ويصف الخمر ، ويهجو ، وحين يمدح ، أو يرثى ، أو يفخر ، فلا تكاد تشعر بوجه للمقارنة ، وإنما يظهر الفرق عظيما بين الرجلين . وأنت مضطر إلى أن تكون ناقداً بصيراً ، لتتميز شخصية الشاعر فى هذين الفنين المختلفين من الكلام ، بل أنا أذهب إلى أكثر من هذا ، فأزعم أن شخصية الشاعر تنمحى أو تكاد تنمحى فى هذا الشعر الجدى ، بحيث تلبس أشخاص الشعراء على غير النقاد العليمين بضروب الشعر ، حين تظهر هذه الشخصية ناصعة جلية كل الجلاء فى فنون الهزل واللعب ، بحيث يشعر بها ويمسها الناقد وغير الناقد ، بل أزعم أن من اليسير أن تضيف مدح أبى نواس أو فخره إلى غير أبى نواس من الشعراء المجيدين ، وأن تضيف إلى أبى نواس من مدح مسلم ووصفه وفخره ، دون أن يكون خطؤك عظيما من الوجهة الفنية ، لأن هنالك مثلا أعلى من الإجادة والإتقان قد وضعه الشعراء أمامهم ، فهم يحتذونه ويتأثرونه ، وهذا المثل الأعلى إنما هو أسلوب القدماء من الجاهليين والإسلاميين ، فإذا أحسنوا تأثر هذا الأسلوب وتقليده ، فهم راضون .

ومالى لا أقيم الدليل على ما أقول ! فانظر إلى هذه الأبيات من شعر أبى نواس الجدى ، وحدثنى أترى فيها شخصية الشاعر بارزة واضحة ؟ ثم حدثنى أتكاد تصدق أن قائل هذا الشعر هو الذى رويت لك عنه فى السنة الماضية ما رويت من العبث والمجون :

لمّا نَزعتُ عَنِ الغَواية والصِّبا وَخَدَتْ بِىَ الشَّدَنيَّةُ المِذْعانُ
سَبْطٌ مَشافِرُها دَقِيقٌ خَطْمُهَا وكأنَّ سَابرَ خَلْقِهَا بُنْيَانُ
واحْتَازَهَا لَوْنٌ جَرَى فِى جِلْدِهَا يَقَقٌ كَقِرْطَاسِ الْوَلِيدِ هِجَانُ

هو يصف ناقته التى حملته إلى ممدوحه الرشيد ، فيحب أن يسلك فى وصف الناقة التى تحمله إلى ممدوحه طريق غيره من الشعراء ، الذين حملتهم النوق إلى الملوك والأمراء ، وليس يعنيه أن يفهمه عامة الناس ، وإنما يعنيه أن يتحدث إلى أشراف الناس أشرف اللغة ، بل ليس يعنيه أن يكذب ، فلعله لم يركب إلى الرشيد ناقة ، ولم تحمله إلى الرشيد إلا قدماه ، ولكنه مضطر أن يسلك مسلك جرير والفرزدق والأخطل والشماخ وغيرهم من الشعراء ، الذين كانوا يتكلفون الأسفار الطوال ، ليبلغوا من يمدحون . ثم وازن بين الشعر الذى لاتكاد تفهمه حتّى تستشير معاجم اللغة وبين قوله :

دَمْعَــةٌ كَاللؤْلُؤِ الرَّطْـ ـبِ مِن الطَّرْفِ الْكَحِيلِ
ذَرَفَتْ فِى سَاعَةِ الْبَيْـ ـنِ عَلَى الْخَــدِّ الأَسِيلِ
إِنَّمَــا يَفْتَضِحُ العُشَّـ ـاقُ فِى وقْتِ الرَّحِيلِ

أتجد فى هذا الشعر لفظاً غريباً ، أو معنى عويصاً ؟ أتشعر بأن بينك وبين قائل هذا الشعر من بعد الأمد ، ما بينك وبين قائل تلك الأبيات الثلاثة فى وصف الناقة ؟

ثم أريد أن أروى لك من جد أبى نواس هذه القصيدة التى سيعسر عليك فهمها عُسْراً ، شديداً ، كما عسر فهمها على غير واحد من علماء اللغة وأصحاب النحو ، وقد قالها يمدح بها العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور أمير المؤمنين :

أَيُّهَا الْمُنْتَابُ عَنْ عُفُرِهْ لَسْتَ مِنْ لَيْلِى وَلا سَمَرِهْ
لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِن ثَمَرِهْ

فَاتَّصِلْ إِنْ كُنْتَ مُتَّصِلًا بِقُوَى مَنْ أَنْتَ مِنْ وطَرِهْ
خِفْتَ مأْثُورَ الحديثِ غَدًا وغَدٌ أَدْنى لِمُنْتَظِرِهْ
خَابَ مَنْ أَسْرَى إِلَى بَلَدٍ غَيْرِ مَعْلُوم مَدَى سفَرِهْ
وَسُدَتُهُ ثِنْيَ سَاعِدِهِ سِنَةٌ حَلَّتْ إلى شُفُرِهْ
فامْضِ لاَ تَمْنُنْ عَلَيَّ يَدًا مَنُّكَ الْمَعْرُوف مِن كَدَرِهْ
رُبَّ فِتْيَانٍ رَبَأْتُهُمُ مَسْقَطَ الْعَيُّوقِ مِنْ سَحَرِهْ
فاتَّقَوْا بِي مَا يَرِيبُهُمُ إِنَّ تَقْوَى الشَّرِّ مِنْ حذَرِهْ
وَابْنِ عَمٍّ لاَ يُكَاشِفُنَا قَدْ لَبِسْنَاهُ عَلَى غَمرِهْ
كَمَن الشَّنآنُ فِيهِ لَنَا كَكُمُونِ النَّارِ فِي حَجَرِهْ
وَرُضَابٍ بِتُّ أَرْشُفُهُ يَنْقَعُ الظَّمْآنُ مِنْ خَصَرِهْ
عَلَّنِيــهِ خُوطُ إِسْحِلَةٍ لاَنَ مَتْنَاهُ لِمُهْتَصِرِهْ
ذَا ومُغْبَرٌّ مَخَــارِمُهُ تَحْسِرُ الْأَبْصَارُ عَنْ قُطُرِهْ
لا تَرَى عَيْنُ الْبَصِيرِ بِهِ ما خَلاَ الآجالَ مِنْ بَقَرِهْ

ثم يقول فى وصف الفرس :

يَكْتَسِي عُثْنُونُهُ زَبَدًا فَنَصِيــلَاهُ إِلَى نُحُرِهْ
ثُمَّ يعْتَمُّ الْحِجَاجُ بِهِ كَاعْتِمامِ الْفُوفِ فِي عُشَرِهْ
ثُمَّ تَذْرُوهُ الرِّياحُ كمَا طَارَ قُطْنُ النَّدْفِ عنْ وَتَرِهْ
كُلُّ حَاجَاتِي تَنَاوَلَهَــا وهُوَ لَمْ تُنْقَضْ قُوَى أَشَرِهْ

ثم يتخلص إلى صاحبه فيقول :

ثمَّ أَدْنَانِي إِلَى مَلِكٍ يَأْمَنُ الْجانِي إِلَى حُجَرِهْ
تَأْخُذُ الْأَيْدِي مَظَالِمَها ثُمَّ تَسْتَذْرِي إِلَى عصَرِهْ

كَيْف لاَ يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ مَنْ رَسُولُ اللهِ مِنْ نَفَرِهْ !
فَاسْلُ عَنْ نَوْءٍ تُؤَمِّلُهُ حَسْبُكَ العَبَّاسُ مِنْ مَطَرِهْ

ثم يقول :

وإذَا مَجَّ الْقَنَا عَلَقاً وَتَرَاءَى المَوْتُ فِى صُوَرِهْ
رَاح فِى ثِنْيَىْ مُفَاضَتِهِ أَسَدٌ يَدْمَى شَبَا ظُفُرِهْ
تَتَأَيَّا الطَّيْرُ غَـدْوَتَهُ ثِقَةً بالشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ

أفهمت من هذه الأبيات شيئاً كثيراً ؟ ألا تكاد تشعر أن أبا نواس قد أسرف فى إيثار الغريب ، حتى كأنه أراد أن يبهر أبا عبيدة والأصمعى وأمثالهما ، وأن يحير أصحاب النحو والعروض ، بما تكلف من غموض ، وبما ركب من ضرورة شعرية ؟ وفى الحق أن اللغويين تعبوا فى تأويل بعض هذه الأبيات ، وما أظن أنهم اتفقوا على تأويل قوله :

كَمَنَ الشَّنْآنُ فِيهِ لَنَا كَكُمُونِ النَّارِ فِى حَجَرِهْ

فإن مرجع هذا الضمير المذكر ليس بالواضح ولا الجلى ، وإن كان المعنى فى نفسه واضحاً جليًّا :

أليس معقولا أن يقول بعض أئمة اللغة فى أبى نواس : لولا مجونه وفسوقه لاحتججنا بشعره ! فنى هذا الشعر وأمثاله ما يرضى أنصار الغريب والمشغوفين به ، ومع ذلك فهذه القصيدة على غرابتها وخشونة مركب الشاعر فيها ، من خير ما قال أبو نواس ، إذ فيها من دقيق المعنى وشريفه ما لا تكاد تجده فى مدائحه الأخر ، ثم فى لفظها وقوافيها بنوع خاص جمال تشعر به ، وتميل إليه ، دون أن تستطيع تفسيره فى سهولة ويسر .

على أن أبا نواس قد تجاوز الحد فى إيثار الغريب أحيانا ، حتى تكاد لاتفرق بينه وبين رؤبة والعجاج ، فانظر إلى شىء من هذه الأرجوزة ، التى مدح فيها الفضل بن الربيع :

وبلْدةٍ فِيهَا زَوَرْ صَعْراءُ تُخْطِي فِى صعَرْ
مرْتٌ إِذَا الذِّئْبُ اقْتَفَرْ بِها مِنَ القَوْمِ الْأَثَرْ
كَانَ لَهُ منَ الجزَرْ كُلُّ جَنِينٍ مَا اشْتَكَرْ
ولاَ تَعَلاَّهُ شَعَرْ مَيْتُ النِّسَاءِ حىُّ الشَّفَرْ
عَسَفتُها عَلَى خَطَرْ وَغَرَرٍ مِنَ الغَرَرْ
بِبازلٍ حِينَ فَطَرْ يَهُزُّهُ حِنٌّ الأَشرْ
لاَ مُتَشكٍّ مِنْ سَدرْ وَلاَ قَرِيبٍ مِنْ خَوَرْ
كأَنَّهُ بَعْدَ الضَّمَرْ وبَعْدَ ما جالَ الضَّفَرْ
وَانْمَجَّ فِىَّ فَحَسَرْ جَأبٌ رُباعِى المُثَّغَرْ
يَحْدُو بِحَقْبٍ كَالأُكَر تُرَى بِأَثْباجِ القَصَرْ
مِنْهُنَّ تَوْشِيمُ الْجَدَرْ رَعَيْن أَبْكارَ الخُضَرْ

ثم يصل إلى المدح فيقول :

... ... إِلَيْكَ كُلِّفْنا السَّفَرْ
خُوصاً يُجَاذِبْنَ النُّحرْ قَدِ انْطَوَتْ مِنْها السُّرَرْ
طَىَّ القَرَارِىِّ الْحِبَرْ لَمْ تَتَقَعَّدهَـــا الطِّيَرْ
وَلاَ السَّنِيحُ المُزدَجرْ يَا فَضْلُ لِلْقَوْمِ الْبطَرْ
إِذْ ليْسَ فِى النَّاسِ عَصَرْ وَلاَ مِنَ الْخَوْفِ وزَرْ

ثم يمضى فى ذلك حتى يكاد يبلغ الإسراف ، شأن الذين ينحدرون من الرجز على سفح لا قرار له .

وقد كنت أريد أن أفسر لك شيئاً من هذه الطِّلّسمات ، ولكنى أرى أن الصحف السيارة لا تتسع لتفسير الغريب ، الذى إنما تتسع له المدارس والجامعات . على أنى لا أريد أن تيأس من أبى نواس ، فتعتقد أنه لا يؤثر إلا الغريب ،

فالحق أنه قد آثر الغريب أحياناً ، وآثر السهل اللين أحياناً أخرى . ولقد نجد من مدائح أبى نواس ما فيه مجون ودعابة لا حيطة فيهما ، ولقد نجد من مدحه ما فيه مجون مع احتياط ، وأحسب أن أفهم ذلك وتعليله ميسوران إذا عرفنا الأشخاص الذين مدحهم أبو نواس ، فقد مدح أشخاصاً لم يكن من السهل أن يبتدئ مدحهم بالمجون ، أو أن ينزل فى مدحهم عما ألف الشعراء من فخم اللفظ ورصينه ، ومدح أشخاصاً آخرين كان من الحق له أن يتفكه معهم ، ويتجاوز الفكاهة إلى الدعابة ، فهو جاد حريص إذا مدح الرشيد ، وهو يتردد بين الجد والهزل إذا مدح الأمين . ولعله اجترأ على الهزل فى مدح الأمين بعد أن اتصل به ، وكثر اختلافه إلى مجالس لهوه وشربه ، وهو يتردد كذلك بين الهزل والجد حين يمدح هذا الأمين السمح ، الذى كان يطمع فيه الشعراء ، ويدلون عليه ، وهو العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر . وكثيراً ما داعب هذا الوزير الخطير ، الذى كان يهابه أيام الرشيد ، ثم طمع فيه أيام الأمين ، حين لان الخليفة له ، وبسر عليه فى أمور كان يعسر فيها الرشيد ، وهو الفضل بن الربيع .

ولم يكن أبو نواس يشفق من التصريح بالمجون والفسوق ، حين كان يعرض لمدح شابين عظيمين ، هما العباس ومحمد ابنا الفضل بن الربيع هذا ، لم يكن يرى مكاناً للكلفة بينه وبين ابنى صديقه ونديمه ، الذى كثيراً ما خلصه من غضب الأمين ، وشفع له فى مواقف حرجة ، اضطره إليها المجون .

وأبو نواس صادق اللهجة حين يمدح هؤلاء الناس جميعاً ، لأنه كان يحبهم ، ويدل عليهم ، ويطمع فى الخير منهم ؛ ولكنه متكلف متصنع حين يمدح البرامكة ؛ لأن ميله إليهم لم يكن إلا بمقدار طمعه فيهم ؛ وكأن البرامكة كانوا يشعرون منه بذلك ، فيحتملونه احتمالا ، ولا يضمرون له حباً صحيحاً . أما الصلة بينه وبين الخصيب فستعرض لها بشىء من التفصيل . فى غير هذا الفصل .

ولكنا لا نريد أن نتركك على ما روينا لك من هذا الشعر الغريب ، فنتم مقال اليوم بهذه الأبيات التى مدح بها أبو نواس العباس بن عبيد الله ابن أبي جعفر .

غَرَّدَ الدِّيكُ الصَّدُوحُ فاسْقِنِى طَابَ الصَّبُوحُ
وَاسْقِنِى حَتَّى تَرَانِى حَسَناً عِنْدِى الْقَبِيحُ
قَهْوَةً تَذْكُرُ نُوحاً حِينَ شَادَ الفُلْكَ نُوحُ
نَحْنُ نُخْفِيها وَيَأْبَى طِيبُ رِيحٍ فَتَفُوحُ
فَكَأَنَّ القَوْمَ نُهْبَى بَيْنَهُمْ مِسْك ذَبِيحُ
أَنا فِى دُنْيا مِنَ الْعَبَّاسِ أَغْدُو وَأَرُوحُ
هَاشِمِىٌّ عَبْـــدَلِىٌّ عِنْدَهُ يَغْلُو الْمَدِيحُ
عَلَمُ الْجودِ كِتابٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ يلُوحُ
كُلُّ جُودٍ يا أَمِيرِى مَا خَلاَ جُودَكَ رِيحُ
إِنَّما أَنْتَ عَطايا أَبَدًا لاَ تَسْتَرِيحُ
بُحَّ صَوْتُ الْمالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو ويَصِيحُ
مالِهٰذَا آخِــذٌ فَوْقَ يَدَيْهِ أَوْ نَصِيحُ
جُدْتَ بِالأَمْوَال حَتَّى قِيلَ ما هٰذَا صحِيحُ
صُوِّرَ الجُودُ مِثالاً وَلَهُ العَبَّـــاسُ رُوحُ
فَهْــوَ بِالْمَالِ جَوَادٌ وهْوَ بالعِرْضِ شَحِيحُ

خاتمة القول فى أبى نواس [1]

المدح — الرثاء — الهجاء — الزهد

فصلنا القول فى هزل أبى نواس ومجونه تفصيلا ، ونحن مضطرون إلى أن نجمل القول فى جدّه إجمالا ، لا لأنا نؤثر هزل أبى نواس على جده ، ولا لأنا نريد أن نتملق هذا الميل العام ، الذى يحمل جمهور القراء أن يؤثر الهزل على الجد ، ويفضل ما يسر ويلهى ، على ما ليس له حظ من السرور واللهو ، بل لأنا نعتقد أن شخصية أبى نواس ، فى حقيقة الأمر ، إنما هى شخصية شاعر هازل ماجن ، تظهر الظهور كله ، إذا هزل أو مجن أو حاول الاستمتاع باللذات ، والتغنى بآثار هذه اللذات ، فترى فيها خفة ونشاطاً ، وشيئاً يشبه النزق ، أو هو النزق ، وترى فيها جرأة غريبة ، وحرصاً قليلا جدًّا على الاحتياط ، وصراحة لا تعدلها صراحة . فلعلك تذكر ما روينا لك من شعره فى الخمر والمجون والنساء ، ولعلك تذكر أن حظ هذا الشاعر من الصراحة وازدراء الدين والخلق والأدب الموروث عظيم ، ومع ذلك فقد تخيرنا هذا الشعر الذى رويناه لك تخيراً دقيقاً ، وراعينا فيه أخلاق الناس فى هذا العصر وميولهم ، وحاجة الشباب إلى القول الطاهر البرىء ، وراعينا فيه مع ذلك شعور المتشددين فى الدين ، والمستمسكين بالأدب القديم ، أولئك الذين يسميهم ابن قتيبة المتزمتين ، راعينا هذا كله فيما روينا لك من شعر أبى نواس فى اللهو والمجون ، ولم نسلم مع ذلك من نقد الناقدين ، وإنكار المنكرين ، وغلو قوم اتهمونا بألوان من التهم ، وأضافوا إلينا ضروباً من الخروج على الدين والأخلاق ، والكيد لتاريخ الأمة العربية المجيد .

ولو أننا روينا لك من شعر أبى نواس فى العبث والدعابة ، وفى اللهو والمجون ، دون تحفظ ولا احتياط ، لمثلنا لك شخصيته على وجهها ، ولكنا

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٠ شعبان سنة ١٣٤٢ — ٢٦ مارس سنة ١٩٢٤ .

مؤرخين حقًّا ، ولكنا كنا نتعرض لما لا نحب ، من إفساد الذوق ، والإساءة إلى الأخلاق ، فأبو نواس شاعر خطر ، لا ننصح بقراءته إلا لطائفة خاصة من الناس ، يستطيعون أن يقرءوا ويحكموا ، دون أن يتأثروا أو يقلدوا .

شخصيته شخصية شاعر ماجن قبل كل شيء وبعد كل شيء ، ونحسب أن هذا الرجل لو خُلِّي وطبعه ، ولم تضطره الظروف السياسية والفنية والمعاشية — إن صح هذا التعبير — إلى أن يصطنع الجد من حين إلى حين ، لكان شعره كله هزلا ومجوناً . وما رأيك فى رجل لم ينظر فى يوم من الأيام إلى الحياة إلا من حيث هى سبيل من سبل اللذة ، ووسيلة من وسائل اللهو ، ولم يجدّ إلا ليستعين بجده على الهزل ! أفتظنه مدح ، لأنه كان يحب ممدوحيه أو يُكْبِرُهُم ؟ أو لأنه كان يحب المدح ويميل إليه ! كلا ! إنما مدح الخلفاء والوزراء والأمراء ليتخذ مدحهم وسيلة إلى مدح الخمر ، أو قل لتيخذ مدحهم وسيلة إلى شرب الخمر ، والاستمتاع بها وبما تستتبع من اللذات ، مدحهم لأنه كان فى حاجة إلى ما يرزقونه من المال ، ومدحهم لأنه كان فى حاجة إلى أن يتملقهم ، ويتقى شرهم ، مدحهم مستجدياً ، ومدحهم متقياً . ولعله لم يخلص فى مدح واحد من هؤلاء ، إلا نفراً نستطيع أن نتعرفهم ، إذا نظرنا فى تاريخهم من جهة ، وفى سيرة أبى نواس معهم من جهة أخرى . لم يُخلص أبو نواس فى مدح الرشيد ، وإنما مدحه مستجدياً أو متقياً . ولم يخلص أبو نواس فى مدح البرامكة ، وأخلص أبو نواس فى مدح الأمين ؛ لا لأنه كان يكبر الأمين ويُجلُّه ، بل لأنه كان ينادم الأمين ، ويرى فيه خليلا على الشراب ، وصديقاً على اللذة . وكثيراً ما كان يسخر من الأمين إذا سنحت له الفرصة ، وقد هجا الأمين غير مرة . وقل مثل ذلك فى مدحه للفضل بن الربيع وزير الأمين ، وقل مثل ذلك فى مدحه لأبناء الفضل بن الربيع ؛ فقد كان هؤلاء جميعاً أصدقاءه وندماءه ، كما أنهم كانوا حماته ورازقيه . وقل مثل ذلك فى مدحه للخصيب ؛ فقد بلغ الخصيب من الإنعام على أبى نواس والانبساط له حدًّا عظيمًا . ويروون أن أبا نواس كان يشرب مع الخصيب حتى يمعن فى السكر ، ويفقد الرشد ، ويأتى من المنكرات ما يأتيه السكارى إذا انتهوا من سكرهم إلى

الحد الأقصى ، ويذكرون أنه قال قصيدته المشهورة فى الخمر التى مطلعها :

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ ... نِمْتَ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ أَنَمِ

وهو فى شر حال .

ومن هنا لا تكاد تحس الإخلاص فى مدح أبى نواس ، وإنما هو شىء متكلف ، تظهر فيه الصنعة ، ويستخفى فيه الطبع . وقد تحسُن هذه الصنعة حيناً ، وقد تسوء حيناً آخر ، وهى على كل حال ميالة إلى الإسراف والمبالغة ، وقليل فيها التجديد ، وكثير فيها الاعتماد على القدماء ، ومشاركة الشعراء فى هذه الصفات الشائعة ، التى كانوا يقدمونها إلى الخلفاء والوزراء ، يستجدون بها المال . فانظر إلى هذه الأبيات التى يقولها أبو نواس فى مدح الرشيد :

وَإِلى أَبِى الأُمناءِ هَارُونَ الَّذِى ... يَحْيَا بِصوْبِ سَمَائِه الْحَيَوانُ

مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِى الْقُلُوبِ مِثَالُهُ ... فَكَأَنَّمَا لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ

فأما أول هذين البيتين فشائع مشترك المعنى ، ولكن جماله لفظى . وأما الثانى فلا يخلو من دقة ولا من جمال ، ولكن انظر إلى ما يقول بعد ذلك .

هَارُونُ أَلَّفَنَا ائْتِلَافَ مودَّةٍ ... مَاتَت لَهَا الْأَحْقَادُ وَالْأَضْغَانُ

فِى كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ وَوِفَادَةٌ ... تَنْبَت بَيْنَ نَوَاهُمَا الْأَقْرَانُ

حَجٌّ وغَزْوٌ ماتَ بَيْنَهُمَا الكَرى ... بِالْيَعْمَلَاتِ شِعَارُهَا الْوَخَدانُ

يَرْمِى بِهِنَّ نِيَاطَ كُل تَنُوفَةٍ ... فِى اللهِ رَحَّالٌ بِها ظَعَّانُ

حَتَّى إِذَا وَاجَهْنَ أَقْبالَ الصَّفَا ... حَنَّ الْحَطِيمُ وَأَطَّتِ الأَرْكَانُ

لِأَغَرَّ يَنْفَرِجُ الدُّجَى عَنْ وَجْهِهِ ... عَدْلُ السِّيَاسَةِ حُبُّهُ إِيمَانُ

يَصْلَى الْهَجِيرَ بِغُرَّةٍ مَهْدِيَّةٍ ... لَوْ شَاءَ صَانَ أَدِيمهَا الْأَكْنَانُ

لٰكِنَّه فِى اللهِ مُبْتَذِلٌ لَهَا ... إِنَّ التَّقِىَّ مُسَدَّدٌ وَمُعَانُ

أفترى فى هذا الكلام كله شيئاً قيماً ، أو معنى طريفاً ؟ أفتؤمن له بأكثر من الجمال اللفظى ، يلقاك من حين إلى حين ؟ ثم ألست تضع يدك على الصنعة ؟

ألست تتبين التكلف واضحاً جليًّا ؟ ثم انظر إلى هذين البيتين فهما لا يخلوان من جمال ، ولكن التكلف فيهما ملموس :

أَلِفَتْ مُنَادَمَةَ الدِّمَاءِ سُيُوفُهُ فَلَقَلَّمَا تَحْتَازُهَا الْأَجْفَانُ
حَتَّى الَّذِى فِى الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ

ويظهر أن أبا نواس قد أحب هذا المعنى ، وأعجب به ، فأعاده فى قصيدة أخرى مدح فيها الرشيد ، ولكنه كان فيها أقرب إلى الإجادة ، وأبعد عن التكلف ، وذلك حيث يقول :

مَلِكٌ تَطِيبُ طِباعُهُ وَمِزَاجهُ عَذْبُ المَذَاقِ عَلَى فَمِ المُتَذَوِّقِ
يَلْقَى جَمِيع الْأَمْرِ وَهْوَ مُقَسَّمٌ بَيْنَ المَناسِكِ وَالْعَدُوِّ المُوثَقِ
يَحْمِيكَ مِمَّا تَسْتَضِرُّ بِفِعْلِهِ ضَحَكَاتُ وَجْهٍ لَا يَرِيبُكَ مُشْرِقِ
حَتَّى إذا أَمْضَى عَزِيمَةَ رَأْيِهِ أَخَذَتْ بِسَمعِ عَدُوِّهِ وَالمَنْطِقِ

فهذا كله كلام عذب سهل ، ولكنه عادىٌّ مألوف . أما المعنى الذى أشرنا إليه فى القصيدة الماضية ، فانظر إليه كيف صاغه أبو نواس أحسن صيغة :

إِنِّى حَلَفْتُ عَلَيْكَ جُهْدَ أَلِيَّةٍ قَسَماً بِكُلِّ مقَصِّرٍ وَمُحَلِّقِ
لَقَدِ اتَّقَيْتَ اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَجَهَدْتَ نَفْسَكَ فَوْقَ جُهْدِ المُتَّقِى
وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِى لَمْ تُخْلَقِ

فانظر إلى هذا البيت ، وقارن بينه وبين قوله :

حَتَّى الَّذِى فِى الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ

ألست ترى أنه أقل تكلفاً فى اللفظ ، وأكثر صفاء فى الأسلوب ، ومع ذلك فالمعنى فى نفسه سخيف ، لأنه محال . وقد لا حظ القدماء ذلك ، واختلفوا فيه ، فمنهم من أنكر على أبى نواس هذه الإحالة ، ومنهم من أعجب بها .

وأنا أشارك المنكرين فى إنكارهم ، وأوثر على هذا المعنى عند أبى نواس قول أشجع السُّلَمى فى مدح الرشيد :

وَعلى عَدُوِّكَ يَا بْنَ عَمِّ محمدٍ رَصَدَانِ ضَوْءُ الصُّبحِ والإظْلَامُ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سُيُوفَكَ الْأَحْلَامُ

فهذا الشعر متين رصين ، وهو فى الوقت نفسه صحيح مستقيم ، لا ينكره العقل ، ولا يذهب فيه الخيال إلى غير حد ، وهو يمثل جلال الخليفة وسطوته أحسن تمثيل . ولعل أحسن مدح صدق فيه أبو نواس هو مدحه للخصيب ، فلا تكاد تقرأ هذا المدح حتى تحس أن الشاعر مخلص لا يتكلف ولا يتعمل ، وإنما هو مغمور بنعمة الخصيب ، راض عن حياته فى مصر ، سعد بهذه الحياة ، فشعره يصف هذا كله ، ويمثله تمثيلا صادقاً ؛ ولست أروى لك القصيدة المشهورة :

أَجَارَةَ بَيْتَيْنا أَبُوكِ غَيُورُ وَمَيْسُورُ مَا يُرجَى لَدِيْكِ عَسِيرُ

ولكن اقرأ شيئاً من قصيدة أخرى ، لم يكثر الناس تناقلها ، وانظر ألا ترى الشاعر فيها سعيداً مغتبطاً بحاضره ، عظيم الأمل فى مستقبله :

ذَكَرَ الكَرْخَ نازحُ الْأَوْطَانِ فَصَبَا صَبْوَةً وَلَاتَ أَوَانِ
لَيْس لِى مُسْعِدٌ بِمِصْرَ على الشَّوْ قِ إِلَى أَوْجُهٍ هُناكَ حِسَانِ
إِذْ لِبَابِ الْأَمِيرِ صَدْرُ نَهَارِى وَرَواحى إِلَى بُيُوتِ الْقِيَانِ
وَاغْتِفَالى المَوْلَى لِأَخْتَلِسَ الْغمْـ زَةَ مِمَّنْ أُحِبُّه بِالْبَنانِ
وَاعْتِمَالِى الْكُؤوسَ فى الشُّرْبِ تَسْعى مُتْرَعَاتٍ كَخَالِصِ الزَّعْفرَانِ
يَا بْنَتِى أَبْشرِى بِميرةِ مِصْرٍ وَتَمنَّىْ وَأَسْرِفى فى الأَمانِى
أنا فى ذِمَّةِ الْخَصِيبِ مُقِيمٌ حَيْثُ لا تَعْتَدِى صُرُوفُ الزَّمانِ
كَيْفَ أَخْشَى عَلَىّ غولَ اللَّيَالِى وَمَكانِى مِنَ الخَصِيبِ مَكانِى

ثم يقول :

قَادَنِى نَحْوَكَ الرَّجَاءُ فَصَدَّقْـ ـتُ رَجَائِى واخْتَرْتُ حَمْدَ لِسانِى

إِنَّما يَشْتَرِى المَحَامِدَ حُـرٌّ طَابَ نَفْساً لَهُنَّ بالْأَثْمَانِ

ولم لا يكون سعيداً ! ولم لا ينطق بهذا الشعر الجميل الصادق ، وهو يقضى نهاره وليله بين الأمير ودور اللَّهْو !

وكما أن مدح أبى نواس فى أكثر الأحيان ليس بالصادق ولا الممتاز ، فرثاؤه قليل الخطر ، وربما كان أقل خطراً من مدحه ، وربما كان الرثاء أضعف شعر أبى نواس . وهذا واضح ؛ فلم يكن أبو نواس رجلا محزوناً ، ولا ميالا إلى الحزن ، وإنما كان رجَلا مبتهجاً بطبعه ، أو كان هو الابتهاج . فليس غريباً أن لا يجيد الرثاء ، وليس غريباً أن يتكلفه إذا اضطر إليه ، ثم لا تنس أن أبا نواس لم يستطع أن يطمئن إلى حياة الزوجية ، وعجز الذين أرادوا أن يحملوه على الزواج ، فلم تكن له أسرة ، ولم يعش بين أبنائه وبناته ، فلم تنشأ فى نفسه هذه العواطف الرقيقة ، التى تنشئها الحياة المنزلية الصالحة . وإنما كان مقسم الحياة بين اللذات وضروب المزاج .

أما صلات المودة التى كانت تصل بينه وبين الناس ، فلم يكن أكثرها يقوم على الجد ، وإنما كان يقوم على اللذات ، فكان أبو نواس مديناً لأصدقائه بالابتسام لا بالعبوس ، ومن هنا لا تكاد تشعر بشىء من الألم حين تقرأ مراثيه القليلة ، وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدُق فى رثائه إلا مرة واحدة ، وذلك حين رثى الأمين فى هذه الأبيات :

طَوَى المَوْتُ مَا بيْنِى وبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ لِمَا تَطْوِى الْمَنِيَّةَ نَاشِرُ

فَلَا وَصْلَ إِلَّا عَبْرَةٌ تَسْتَدِيمُهَا أَحَادِيثُ نَفْسٍ مَالَهَا الدّهْرَ ذَاكِرُ

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَر المَوْتَ وَحْدَهُ فَلَمْ يَبْقَ لِى شَىْءٌ علَيْهِ أُحَاذِرُ

لَئِنْ عَمِرَتْ دُورٌ بِمنْ لَا أَوَدهُ لقد عمرتْ مِمَّنْ أُحِبُّ المَقَابِرُ

فأما غير ذلك من الرثاء فسخيف أو متكلف . ولست أشك فى أن أبا نواس كان يشعر بضعفه فى هذا الفن ، وكان مع ذلك يحاول أن يُخفِى هذا

الضعف ، فكان يسلك إلى إخفائه سبلا مختلفة ، أظهرها الإكثار من الوصف . على نحو ما كان يغرق فيه الجاهليون من وصف الوحش والجبال وما إلى ذلك .

ليس لرثاء أبى نواس قيمة ، فخير ألا نطيل فيه ، وأن ننتقل إلى فن آخر ، أجاد فيه أبو نواس إجادة مطلقة ، ليست أقل من إجادته فى الخمر ، ولا فى المجون؛ لأنه باب من المجون ، وهو الهجاء . على أننا نسرف إذا قلنا إن هجاء أبى نواس مجون كله ؛ فى هجاء أبى نواس جد كثير ، وفيه هزل كثير . ولقد كنا نريد أن نخصص للهجاء عند أبى نواس فصلا مطولا ، ولكنا مضطرون إلى أن نعدل عن ذلك ، لأن أكثر هذا الهجاء مملوء بفاحش القول ومقذعه ، فليس إلى روايته من سبيل . فلنكتف بأن نعطيك منه صورة موجزة جدًّا ، ولنلاحظ قبل كل شى أن هجاء أبى نواس ينقسم أقساماً ، فهناك الهجاء السياسى ، وهذا الهجاء نفسه ينقسم قسمين : أحدهما هجاء أبى نواس للعرب عامة ، وللنزاريين خاصة ؛ فقد كان أبو نواس شديد الميل إلى الفرس ، وكان لا يحب من العرب إلا اليمانية ، فأما النزارية فقد كان يزدريهم ، ويمقتهم كل المقت ، وكان ينالهم بأشد الشعر إقذاعاً ن حتى يُروى أن الرشيد حبسه فى ذلك الوقت ، وكان لا يكاد يستثنى قريشاً ، فإذا فعل فمخافة السيف ، لأن النبوة والخلافة كانتا فى قريش . القسم الآخر من هجائه السياسى هجاؤه للذين عاشروه من الأمراء والوزراء ؛ فقد كان أبو نواس يكره البرامكة ، وكان يكره الأمويين ، وكان ينال أولئك وهؤلاء بفاحش القول . ولم يكن أبو نواس طيب النفس ولا رحيما إذا هجا أعداءه السياسيين ، وإنما يظهر أنه كان شديد الضغن ، منكر الحقد . فانظر إلى هذه الأبيات التى هجا بها إسماعيل بن صبيح مولى الأمويين ، وكاتب الأمين :

أَلَا قُلْ لِإِسْماعِيلَ إِنَّكَ شَارِبٌ ... بِكَأْسِ بَنِى ماهَانَ ضَربةَ لازِمِ
أَتُسْمِنُ أَوْلَادَ الطَّرِيدِ ورَهْطَهُ ... بِإِهْزَالِ آلِ اللهِ مِنْ نَسْلِ هَاشِمِ
وإنْ ذكِرَ الْجَعْدِىُّ أَذْرَيْتَ عَبْرَةً ... وَقُلْتَ أَدَالَ اللهُ مِنْ كلِّ ظَالِمِ

وتُخْبِرُ مَنْ لاَقَيْتَ أَنَّكَ صَائِمٌ ... وَتَغدُو بِحجْرٍ مُفْطِرًا غَيْرَ صَائمِ

فَإِنْ يَسْرِ إِسْمَاعِيلُ فِى فَجَرَاتِهِ ... فَلَيْس أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ بِنَائمِ

فانظر إلى هذه الوقيعة المنكرة ، ثم اقرأ هذه الأبيات الأخرى ، فليست أقل نكراً مما روينا لك :

أَلَسْتَ أَمِينَ ٱللهِ سَيْفُكَ نِقْمَةٌ ... إِذَا مَاقَ يوْماً فِى خِلَافِكَ مَائِقُ

فكَيْفَ بِإِسْمَاعِيلَ يَسْلمُ مِثْلُهُ ... عَلَيْكَ ولَمْ يَسْلَمْ عَلَيْكَ مُنَافِقُ

أُعِيذُكَ بِالرَّحْمٰنِ مِنْ شَرِّ كاتِبٍ ... لَهُ قَلَمٌ زَانٍ وآخَر سَارِقُ

أُحَيْمِرَ عاد إِنَّ لِلسَّيْفِ وَقْعَةً ... بِرَأْسِكَ فانْظُرْ بَعْدهَا ما تُوافق

تَجَهَّزْ جَهازَ الْبَرْمَكِيِّينَ وَانْتَظِرْ ... بَقِيَّةَ لَيْلٍ صُبْحُهُ بِكَ لاَحِقُ

وقسم آخر من هجاء أبى نواس تناول به العلماء من اللغويين وأصحاب النحو والكلام ؛ فقد هجا الهيثم بن عدى ، وهجا أبا عبيدة بهذين البيتين المنكرين ، ويروى أنه كتبهما على الحائط ، حيث كان يدرس أبو عبيدة :

صَلَّى الْإِله عَلَى لُوطٍ وَشِيعَتِهِ ... أَبا عُبَيْدَةَ قلْ بِاللهِ آمِينَا

فَأَنْتَ عِنْدِى بِلا شَكٍّ بَقِيَّتُهُ ... مُنْذُ احتلَمْتَ وَقَدْ جاوَزْتَ سَبْعِينا

وهجا النظام من المتكلمين بهذه الأبيات :

قُولاَ لِإِبْرَاهِيمَ قَوْلًا هُتْرا ... غَلَبْتَنِى زَنْدَقَةً وَكُفْرَا

إِنْ قُلْتَ مَا تَشْرَب قالَ خَمْرًا ... ...

إِنْ قُلْتَ مَا نَتْرِكُ قَالَ بِرًّا ... أَو قُلْتَ مَا ترْهَب قالَ بَحْرَا

أَوْ قلْتَ ما تَقُول قَالَ شَرًّا ... أَصْلاَهُ رَبِّى لَهَباً وَجَمْرَا

ولعلك تذكر أنه كان يقصد إلى النظام بقصيدته التى أولها :

* دعْ عنك لومى فإن اللَّوْم إغراءُ *

والعجب أن هؤلاء العلماء الذين هجاهم أبو نواس كانوا يحبونه ، ويعجبون بشعره ، ولعل شيئاً من هذا الإعجاب مصدره الخوف ؛ فقد كان أبو نواس ينذر

العلماء إذا احتاج إلى ذلك، ولما لم يجد له الكلبي نسباً فى أنساب العرب قال فيه :

أَبَا مُنذِرٍ مَا بَالُ أَبْوَابِ مذْحِجٍ مُغَلَّقَةٌ دُونِى وَأَنْتَ صَدِيقِى

فإِنْ تَعْزُنِى يَأْتِكَ ثَنائى وَمِدْحَتِى وَإِنْ تَأْبَ لاَ يُسْدَدْ عَلَيكَ طرِيقِى

وقسم ثالث من هجاء أبى نواس ، هو هجاؤه لأصحابه من الشعراء والندامى ، فله فى الرقاشي وفى بنى نوبخت كلام كثير مقذع . وظاهر أن رجلا كأبى نواس حياته بين الكأس والطاس ، فى لعب ومُزاح ، كان من خفة الروح ، وتوقد الذكاء ، ودقه الفطنة ، بحيث كان يبلغ ما أراد إذا هجا ، فهو من أشد الشعراء فى عصره إقذاعاً ، ومن أكثرهم نكاية بالخصم ، وفى هجائه ازدراء لا يعدله ازدراء ، ولقد أحب أن أذكر لك من ذلك شيئاً قليلا ، فانظر إلى قوله :

أَمَاتَ ٱللهُ مِنْ جُوعٍ رَقَاشاً فَلَوْلاَ الْجُوعُ مَامَاتَتْ رَقاشُ

وَلَوْ أَشْمَمْتَ مَوْتَاهُمْ رَغِيفاً وَقَدْ سَكَنُوا الْقُبُورَ إِذن لَعاشُوا

وانظر إلى قوله فى هجاء داود بن زرين راوية بشار :

إِذَا أَنْشَدَ دَاوُدُ فَقُلْ أَحْسَنَ بَشَّارُ

لَهُ مِنْ شِعْرِهِ الْغَث إِذَا مَا شَاء أَشْعارُ

وَمَا مِنْها لَهُ شَيْءٌ أَلَا هذَا هُوَ الْعَارُ

وانظر إلى هذين البيتين :

بِمَا أَهْجُوكَ لَا أَدْرِى لِسَانِى فِيكَ لَا يَجْرِى

إِذَا فَكَّرْتُ فِى عِرْضِـ ـكَ أَشْفَقْتُ على شِعْرِى

وانظر إلى قوله :

سِيرُوا إِلَى أَبْعَدِ مُنتابِ قدْ ظَهرَ الدَّجَّالُ بالزَّابِ

هَذَا ابْنُ نُوبَخْتَ له إِمرةٌ صَاحِبُ كُتَّاب وَحُجَّابِ

وانظر إلى قوله فى البرامكة :

إِنِّىَ لوْلاَ شقاءُ جَدِّى ... مَا ماتَ مُوسى كَذَا سَرِيعا

وَلاَ طَوَتهُ الْمنُونُ حَتى ... أَرَى بَنِى برْمكٍ جَمِيعَا

هذَا زَمانُ الْقُرُودِ فاخْضَعْ ... وكُنْ لَهُمْ سامِعاً مطيعَا

وهذا أخف ما قال أبو نواس فى الهجاء . ونحن مضطرون أن نطوى عنك أجود هجائه ، لأنه قد بلغ من القبح كما قلنا حدًّا يحول بيننا وبين روايته .

* * *

وفن آخر من فنون الشعر أجاد فيه أبو نواس إجادة مطلقة ، ولعله أول من اتخذه فنًّا مستقلا من فنون الشعر ، فنظم فيه القصائد طوالها وقصارها ، وهو فن الصيد ، ولكنى لا أحدثك عنه فى هذا الفصل ، لأن أبا نواسُ قد آثر فيه الغريب إيثاراً شديداً ، حتى أصبح من المستحيل أن تتسع له الصحف السيارة ، لشدة احتياجه إلى الشرح والتفسير . ولعلى أوفق إلى جمع هذه الفصول كلها فى كتاب ، فأضيف إليها فصلا عن الصيد فى شعر أبى نواس .

أما الفن الذى أريد أن أختم به القول فى أبى نواس ، فهو فن الزهد ، وقد أجاد فيه أبو نواس إجادة لا بأس بها ، وذلك مفهوم أيضاً : فلو أنك أردت أن تتبين فلسفة أبى نواس لما استطعت إلا أن تقول : إن أبا نواس كان يزدرى الحياة ، ويسخر منها ، ولعلك تدهش إذا قلت لك إنى أشبه أبا نواس بأبى العلاء ، تدهش لأن أبا نواس مشرق مبتسم ، فى حين كان أبو العلاء عابساً مكتئباً ، وتدهش لأن أبا نواس رجل لذة وفجور ، فى حين كان أبو العلاء رجل زهد وحرمان . ومع ذلك فأبو نواس شبيه بأبى العلاء : كلاهما كان يزدرى الحياة ، وكلاهما كان يمقتها مقتاً شديداً . وكل ما بينهما من الفرق أن أبا نواس كان يكره الحياة فيزدريها ، ويستعين عليها باللذة واللهو ، وأن أبا العلاء كان يكره الحياة ، فيستعين عليها بالزهد والحرمان . وفى الحق أن المتشائمين ينقسمون إلى هذين القسمين : فمنهم متشائم يضحك ويلهو ،

ومنهم متشائم يعبس ويبكى وهم جميعاً متشائمون ، تقوم فلسفتهم على هذه القاعدة ، وهى أن الحياة شىء ليس بذى حظر ، لم ينشأ من خير ، ولن ينتهى إلى خير ، فلتُقْضَ فى لعب ولهو ، أو فلتقض فى حكمة وزهد ، هذا شىء يختلف باختلاف الأمزجة لا أكثر ولا أقل . فليس غريباً إذاً أن يجيد أبونواس فى المجون وفى الزهد معاً ، على أنى لا أستطيع أن أحكم على أبى نواس أكان هو مسلماً حقًّا أم لم يكن ، ولعل أصدق حكم ممكن فى أبى نواس هو أنه تجاوز حدود الإسلام ، وازدرى أصوله وقواعده غير مرة فى حياته الطويلة ، ولنقل إن شعره فى الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضاً ، ولنختم قولنا بهذه الأبيات القيمة ، التى قالها فى الزهد :

أَيَّةَ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ ... وأَىَّ جِدٍّ بَلَغَ الْمازِحُ

لله دَر الشَّيْبِ مِنْ وَاعِظٍ ... وَناصِحٍ لَوْ حَظِىَ النَّاصِحُ

يَأْبَى الْفَتى إلَّا اتِّباع الْهَوَى ... وَمَنْهَجُ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحُ

فَاسْمُ بعَيْنَيْكَ إلَى نِسْوَةٍ ... مُهُورهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالحُ

لَا يجْتَلِى الْحَوْراءَ مِنْ خِدْرِهَا ... إلَّا امْرُؤٌ مِيزانُه راجِحُ

من اتَّقَى اللهَ فَذَاكَ الَّذِى ... سِيقَ إلَيْهِ الْمَتْجَرُ الرَّابِحُ

شَمِّرْ فَمَا فِى الدِّينِ أُغْلُوطَةٌ ... وَرُحْ لِمَا أَنْتَ لَهُ رَائحُ

الوليد بن يزيد (١)

كان خليعاً ماجناً ، ويقول الرواة إنه كان زعيم أصحاب الخلاعة والمجون . تبعه أبو نواس فى خلاعته ومجونه ، وتبعه غير أبى نواس من شعراء هذا العصر ، فسطوا على شعره ، وسرقوا معانيه وألفاظه ، أو قل إنهم استباحوها واغتصبوها اغتصاباً ، لم يروا فى ذلك حرجاً ، ولم يخشوا فى ذلك دفاعاً .

كان الوليد أموياً ، فكان بغيضاً إلى الناس أيام بنى العباس ، ثم كان الوليد بغيضاً إلى بنى أمية أنفسهم ، قبل أن يمكّن الله لبنى العباس فى الأرض ؛ فكان بغض الناس له مضاعفاً ، كرهوه حين كان الأمر لبنى أمية ؛ لأنه كان بغيضاً إلى قومه ، ولأن التوفيق السياسى أخطأه ، ولأنه كان على شىء غير قليل من سوء السيرة ، ولأن قومه الذين ثاروا به وقتلوه بالغوا فى تسوىء سيرته ، وأضافوا إليه من القول ما لم يقل ، وحمّلوه من الآثام ما لم يحمل ، وأنت تعلم آثار البغض السياسى ، وما تحدثه الفتن لمن لم يوفق فيها إلى النصر ، ثم كانت ثورة العباسيين ، واستقرار الأمر لهم ، فشمل البغض بنى أمية وكان حظ الوليد منه مضاعفاً ، وتقرب الناس إلى بنى العباس بلعن بنى أمية جميعاً ، خيّرهم وشريرهم ، كما تقرّب الناس إلى بنى أمية من قبل بالقدح فى بنى هاشم جميعاً ، وبلعن علىّ رضى الله عنه . ومن هنا كان من الحق أن تحتاط الاحتياط كله حين تقرأ ما تجد فى الكتب من ذم الوليد ، والنعى عليه ، ورميه بالكفر حيناً ، وبالزندقة حيناً آخر ، وإضافة الشعر المملوء كفراً وفجوراً إليه ، يجب أن تحتاط فى هذا كله ، فأكثره أو كثير منه على أقل تقدير متكلف منحول ، ولسنا نحن الذين يقولون ذلك ، بل قاله الأولون ؛ فقد اختلفوا فيه اختلافاً عظيماً ، فأما أكثرهم فكانوا يتقربون إلى بنى العباس ، وإلى عامة الناس ، بالطعن فيه ، والنعى عليه ، وليس أحرص من أصحاب السلطان والعامة ، على أن تكون هناك ضحايا بريئة أو غير بريئة ،

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٧ شعبان سنة ١٣٤٢ — ٢ أبريل سنة ١٩٢٤ .

ينالونها بضروب الغضب ، ويُنزلون بها ألوان السخط . وأما القليل من هؤلاء الأولين ، فكانوا يقصدون فى ذلك . فيسكتون ، وربما اصطنع بعضهم الشجاعة ، فدافع عنه فى رفق وحذر . قالوا : دخل مروان بن أبى حفصة على الرشيد فسأله عن الوليد ، فتردد ، فأعفاه الرشيد من آثار قوله ؛ فقال : « كان من أصبح الناس ، وأظرف الناس ، وأشعر الناس » فاستنشده الرشيد من شعره ، فأنشده هذه الأبيات :

لَيْتَ هِشَاماً عاشَ حَتَّى يَرَى ... مِكْيَالَهُ الْأَوْفَر قَدْ أُتْرِعَا

كِلْنَا لَهُ الصَّاع الَّتِى كالَهَا ... فَما ظَلَمْنَاه بِهَا أَصْوُعَا

لَمْ نَأْتِ مَا نَأْتِيهِ عَنْ بِدْعَةٍ ... أَحَلَّهَا الْقُرْآنُ لِى أجمَعا

قالوا : فأمر الرشيد بهذه الأبيات فكتبت له . وتحدثوا أن رجلا من ولد الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد ، فسأله عن نسبه ، فانتسب إلى قريش ، فسأله أن يخصص ، وأمَّنه على نفسه إنْ ظهر أنه مَرْوانىّ ، فلما ذكر الرجل نسبه ، بَشَّ له الرشيد ، وقال لعن الله قاتلى أبيك ، فقد قتلوا خليفة مُجْمَعاً عليه ، وقضى حوائجه . وعلى نحو من ذلك كان رأى المهدى ، قال الرواة إن فقيهاً من الذين كانوا يختلفون إلى مجلس المهدى استطاع أن يدفع عن الوليد حين اتهم بالزندقة ، فذكر صلاته وطهارته وخشوعه ، ولكنه ذكر شُرْبه وحبه للهو ، وعكوفه عليه . ويقيننا نحن أن الوليد لمْ يكن كما يزعم خصومه مسرفاً فى اللهو والفجور إلى غير حد ، كما أنه لم يكن كما يريد أنصاره تقياً صالحاً ، وإنما كان رجلا من الناس ، أحب اللذة وكلف بها ، وأعانته عليها ظروف نريد أن نُجملها ، فأخذ منها بحظ موفور دون ، أن يخرجه ذلك عن دينه ، أو يتجاوز به حدود ما ينبغى للخلفاء فى عصره ، ولكنه كان شقياً سيئ الحظ ، جنت عليه الظروف السياسية التى عاش فيها أكثر مما جنى عليه لهوه ومجونه .

أول هذه الظروف السياسية التى جنت على الوليد أنه كان ولياً لعهد أبيه يزيد بن عبد الملك ، ولكنه كان غلاماً ، فتوسط بينه وبين أبيه فى الخلافة عمه هشام بن عبد الملك ، ولم يكد يتم الأمر لهشام ، حتى طمع فى الخلافة

لابنه ، وأراد أن يخلع الوليد من ولاية العهد ، وكان قد أعطى العهد على نفسه ليَفيَنّ للوليد ، ولكن الأثرة وحب الأبناء كانا أقوى وأشد تأثيراً فى نفس هشام من العهد والوفاء به ، أزمع هشام خلع الوليد ، وأخذ يحتال فى ذلك ، ويعد له ، وأحس الوليد ذلك ، فكانت بينه وبين عمه ضغائن وأحقاد ، واشتدت شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت عداء صريحاً ، وحتى اضطرت الوليد إلى أن يترك العاصمة ، ويرتحل إلى البادية ، مغاضباً لعمه ، مجتنباً شره ، فلم يزد ذلك هشاماً إلا بغضاً لابن أخيه ، وحقداً عليه ، وإلا اضطهاداً له ولأوليائه وأخبار ذلك كثيرة منتثرة فى الكتب ، وبأى شىء يشنّع هشام على الوليد حتى ينفر الناس منه ، ويصرفهم عن بيعته ، إلا بالدين وذكر الفجور والفسوق ! وقد انتفع هشام بهذا ، وأسرف فى الانتفاع به ، فأذاع عن الوليد ما أراد أن يذيع من اللهو والمجون والإدمان ، والكفر والزندقة ، وسمع له الناس وهم بين مصدق مغرور ، ومكذب ، ولكنه يتملق فيظهر التصديق ، ودافع الوليد عن نفسه ما استطاع ، فلأمر ما كان مغنوه يغنّونه هذين البيتين .

يَـأَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ دِينِنَا نَحْنُ عَلَى دِينِ أَبِى شَاكِرِ
نَشْرَبُهَا صِرْفاً وممْزُوجَةً بِالسُّخْنِ أَحْيَاناً وَبِالْفَاتِرِ

وأبو شاكر هذا هو مَسْلَمَة بن هشام ، الذى كان يرشّح للخلافة مكان الوليد ، وتحدثوا أن هشاماً سأل الوليد ذات يوم أسئلة تنم عن رأيه فيه ، فلم يكن جواب الوليد أقل حدة وفطنة من أسئلة هشام ، سأله : ما شرابك ؟ فأجاب : شرابك يا أمير المؤمنين : ولسنا نزعم أن الوليد لم يكن يشرب ، إنما نزعم أنه كان يشرب كغيره من أبناء الخلفاء ، ومن الخلفاء أنفسهم ، كان يشرب كهشام وبنى هشام ، ولكن الغرض السياسى أباح لهشام أن يذمه ، ويشنع عليه بما كان يأتى هو ، وبما كان يأتى أبناؤه .

كان الوليد مضطهداً أيام هشام ، فكان هذا الاضطهاد نفسه يضطره إلى اللهو واللعب لأمرين ، ليسلى عن نفسه ما يناله به السلطان من المحن من جهة ، وليظهر نفسه مظهر الرجل الذى لا يريد أن يضعف ، ولا أن يستكين من جهة ، كان يشرب عناداً ، وكان يشرب طالباً للعزاء ، ومضى

فى الشرب عناداً وتعزياً ، حتى شغف به شغفاً غير مألوف ، فأمكن من نفسه ، وصدّق بعد آراء الناس فيه ، مات هشام دون أن يستطيع خلعه ، ولكنه كان قد استطاع إيذاءه وإيذاء أصحابه ، ونالهم بمحن كثيرة شديدة ، فلما تم له الأمر ، وتبوأ دار الخلافة ، جرى مع طبيعته ، فانتقم وأسرف فى الانتقام ، كما أسرف هشام فى الإساءة إليه ، ولكنه انتقم من الأبرياء ، أو انتقم من قوم لم يكونوا أساءوا إليه إلا تأثراً لهشام ، وكذلك شأن الانتقام السياسى ، يصيب البرىء قبل أن يصيب المسىء . ثم لم يكتف الوليد بالإسراف فى الانتقام ، بل أسرف فى شىء آخر . كان محروماً أيام عمه ، فجرى مع طبيعته ، وأراد أن يستوفى حقه بعد الحرمان ، فتجاوز الحق . كان مُقَتَّراً عليه ، فقد قطع عنه هشام عطاءه وأرزاق أصحابه ومواليه ، وقد انفتحت له الآن خزائن الدولة ، فأسرف فيها ، كان مُضيَّقاً عليه ، يختلس اللهو اختلاساً ، ويفر باللذة فراراً ، وقد أصبح الآن صاحب السلطان ، فأطلق لنفسه عنانها ، وأخذ من اللذة ما استطاع ، وفوق ما استطاع .

ثم لم يكد يصل إلى الخلافة وينتقم لنفسه ، حتى كان هذا الانتقام نفسه مصدر شر له ؛ فقد كوّن حزباً قوياً يكره الوليد ، ويأتمر به ، ويرثى لأبناء هشام ، ويبث الدعوة للتشنيع على الوليد ، وإساءة رأى الناس فيه ، فلم يكن بدٌّ للوليد من أن يدفع عن نفسه ، ويحارب هؤلاء الخصوم ، ولم يكن الوليد ملكاً ولا قدِّيساً ، وإنما كان رجلا من الناس ، وكان أموياً من بنى أمية ، فيه أخلاقهم وخصالهم ، وفيه عُنفهم وعنادهم ، وفيه غرورهم وطغيانهم ، فلقى الشر بالشر ، وتحدّى خصومه ، فأمكنهم من نفسه ، وصدّق رأيهم فيه ، ثم انتصر على خصومه ، فخلعوه وقتلوه ، وأرادوا بطبيعة الحال أن يحمد الناس ما فعلوا ، فأضافوا إلى آثام الوليد وسيئاته ما استطاعوا ، ثم كانت الفتنة العباسية ، فأصبح بنو أمية جميعاً فى رأى الخلفاء العباسيين ، وعامة الناس ، ومن يتملق الخلفاء والعامة من العلماء والفقهاء ، كفرة فُجَّاراً ، وأصبح الوليد مثالا لكفرهم وفجورهم ، وكذلك يُكْتَبُ التاريخ ، فَيُظْلَمُ فيه ناس من الحق ألا يظلموا .

لا نريد أن ندافع عن الوليد ، فليس يغنى الدفاع عن الوليد شيئاً ، ليس يعنينا فى حقيقة الأمر أن يكون الوليد خيِّراً أو شريراً ، ولكن أمامنا حقيقة تاريخية نريد أن نتصورها تصوراً صحيحاً ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ،

فإذا أردنا أن نحكم على الوليد حكماً قريباً من الصدق ، كان من الحق أن نقول : إنه كان رجلا مستمتعاً بلذاته ، مسرفاً فى هذا الاستمتاع ، ولكنه لم يبلغ من ذلك ما يقول خصومه ، ولعله لم يصل إلى هذا الإسراف فى الإثم ، إلا لأن خصومه اضطروه إلى ذلك اضطراراً ، إما باضطهادهم إياه ، وإما بتشنيعهم عليه وتحدّيهم له .

ولقد نريد أن ننظر إلى الوليد نظرة غير النظرة التاريخية . نريد أن ننظر إليه من الوجهة الأدبية ؛ فقد كان الوليد أديباً ، وكان شاعراً ، وهذا وحده هو الذى يعنينا الآن من هذا الرجل . نريد أن ننظر إليه من هذه الوجهة ، ونريد أن نتبين شخصيته الأدبية والشعرية بنوع خاص ، ولكن ذلك ليس ميسوراً ، فقد ذهبت أشعار الوليد كلها أو أكثرها ، ولم يبق منها إلا الشيء القليل، ذهبت لتعصّب الناس عليه ، وتحرُّجهم من رواية شعْره ، وما نحسب أن هذا التحرج كان دينيًّا فقد روى الناس شعر أبى نواس وغيره من أصحاب اللهو والمجون ، وإنما كان هذا التحرج سياسيًّا . ومن يدرى ! لعل هذا التحرج السياسى قد أضاع علينا من آثار بنى أمية شيئاً كثيراً ، ومع ذلك فيظهر أن كثيراً من شعر الوليد كان محفوظاً يتناقله الناس فى القرن الرابع ، فإنا نجد فى الأغانى أن قصائد الوليد (تدل على نفسها) ؛ ولهذا لم يحرص أبو الفرَج على روايتها وإثباتها ، وليته فعل ، فإن هذه القصائد التى كانت تدل على نفسها فى القرن الرابع ، لم يبق منها الآن شيء إلا هذه المقطوعات التى أراد الله أن يرويها لنا أبو الفرج ، فكانت كل ما نعرف من شعر الوليد . ليس من اليسير إذن أن نعطى من الوليد صورة صادقة ، وإنما نحن مضطرون ومع ذلك فهى خير من لا شيء .

أخص ما يمتاز به الوليد أنه كان شاعراً صادقاً لا يكذب ، ولا يميل إلى الكذب فى شعره ، ولم يكذب ، وهو من فتيان بنى أمية ، عزيز النفس ، رفيع المنزلة ، ليس فى حاجة إلى أن يمدح ليكسب الحياة ، وليس فى حاجة إلى أن يهجو ، ليدفع عن نفسه خصما يكافئه . وأى الشعراء كان يجرؤ على أن يهجو ولى عهد المسلمين ؟ ولو فعل فما كان ولى عهد المسلمين ليهجوه ، وإنما كانت السبيل فى ذلك أن يناله ما هو أهل له من العقاب . ثم لم يكن الوليد متكلفاً فى حياته . وكأنه كان يزدرى الناس ، ولا يحفل بهم ، ولم

لا يزدريهم وقد رآهم يتملقون عمه ، ويعينونه على الظلم ، ونقض العهد ، لا لشيء إلا لأنه صاحب السلطان ! أفيحفل بمثل هؤلاء ! وإذا لم يحفل بهم فما كان له أن يتكلف ما ليس فيه ، أو ينتحل من الخصال خصلة لا تعجبه .

قالوا : كان الوليد متزوجاً من إحدى بنات سعيد بن خالد بن عمرو ابن عثمان ، فعرف أن لزوجته أختاً تفوقها جمالا وحسناً ، فطلّق زوجته ، وأراد أن يقترن بأختها ، فخطبها إلى أبيها ، وعرف ذلك هشام ، فأرسل إلى سعيد : أتريد أن تستفحل الوليد لبناتك ، يطلق هذه ، ويتزوج تلك ؟ فرد سعيد خطبة الوليد . فقال الوليد : هذا سعيد يرد خطبتي ، ولو كنت خليفة لزوجني بناته جميعاً . . . وفي الحق أن سعيداً لم يَرُدّ هذه الخطبة إلا مجاراة لهشام ، وآية ذلك أنه زوج ابنته من الوليد بعد أن أصبح أمير المؤمنين ، فلم يكن من المعقول ، ورأى الوليد في الناس رأيه ، أن يحفل بهم ، أو يعنى بترضيهم . كان يكرههم ويكرهونه وهو ولي العهد ، فلم يكن يحاول إرضاءهم ، وكان سيدهم وهو خليفة ، فلم يكن يحاول إرضاءهم أيضاً . ثم لم يكن الوليد يتعاطى الشعر حبًّا في الشعر ؛ لم يكن يحرص على أن يكون شاعراً مجيداً ، وإنما كان يلهو ، أو كان يجدّ ، وكان يتخذ الشعر وسيلة عادية للتعبير عما يجد في لهوه وجده ، وكان لا يعنيه أن يقول الناس أحسن أو أصاب ، وإنما كان يعنيه أن يشعر هو بأنه وصف ما في نفسه ، وترجم عن عواطفه ، ومن هنا كان شعر الوليد كما قلنا صادقاً ، يمثل نفسه تمثيلا صحيحاً . وسنرى أن هذه النفس لم تكن بغيضة ولا ثقيلة الظل . ومن هنا أيضاً كان شعر الوليد أقرب إلى الرداءة اللفظية ، منه إلى الجودة ، فقد قلت لك إنه لم يكن يتكلف هذه الجودة ، ولا يطمع فيها ، وإنما كان يقول جرياً مع الطبع ، ولم يكن يقول الشعر إلا وهو متأثر بما يَسُرّ أو يُحزِن ، وإذن فقد كان مشغولاً بسروره وحزنه عن الألفاظ ، كان يقول الشعر وهو سكران ، يشرب ويطرب بما حوله ، وكان همه أن يكون قد نال شعراً سجل فيه عاطفة ثارت في نفسه ، أو خاطراً خطر له ، وكان يحب شعره ، لأنه كان معجباً بنفسه ، وكان يرى في هذا الشعر مرآة لهذه النفس ، وكان يحب أن ينظر كثيراً في هذه المرآة ، ولذلك كان لا يكاد يقول شعراً إلا طلب إلى أحد المغنين أن يغني له فيه صوتاً ، وربما قال الأبيات ،

فكلف أحد المغنين أن يغنيه فيها ، فما زال كذلك يسمع ويشرب يومه أو ليله .

وهذا النحو من الشعر الذى لا يتكلف صاحبه فيه لفظاً ولا معنى ، وإنما يغترفه اغترافاً سهلا لا مشقة فيه ، يكفى أن يخطر الخاطر ، أو تعرض الحادثة ، فإذا الشاعر ينظم فيها أبياتاً ، أى يقول فيها كلاماً كان يستطيع أن يقوله نثراً ، ولكنه تعوّد النظم ، فهو ينظم فى غير عُسْر ، ولهذا كان الشعر أيسر شىء على الوليد ، كان يتكلم شعراً حين ينثر الناس ، كان إذا أعجبه شىء عادى وصفه شعراً ، وكان إذا اشتهى شيئاً اشتهاه شعراً ، وكان إذا غمه شىء مهما يكن جليلا أو ضئيلا عبر عن ذلك بالشعر ، كان الشعر كالنثر عند غيره ؛ ولهذا اصطنع من بحور الشعور أخفها وألطفها ، وأقربها إلى النثر ، وأشدها ملاءمة لحياة اللهو والدعة التى كان يحياها ، فقليلا ما تجد عند الوليد هذه البحور الطوال المعقدة ، وإنما شعره كله هَزَجٌ وَرَمل ، وهو إذا عمد إلى البحور الطوال اجتزأها اجتزاء ، وخففها تخفيفاً ، فاختار أيسرها وأقصرها . قلت لك : إنه لم يكن ينظم الشعر ، وإنما كان يتكلمه ، وهو فى هذا قدوة للذين اتبعوه من شعراء العباسيين ؛ فقد حدثتك عن أبى نواس أنه كان إذا لها أو تغزل آثر الشعر أيسرها وأقصرها ، وأخفها موقعاً ، وأدناها من النثر مكاناً ، وكذلك كان غير أبى نواس من شعراء العباسيين ، إمامهم فى هذا كله الوليد .

ولو أن الوليد أكثر من تعاطى الجد فى شعره ، لاختار لهذا الحد من الأوزان الشعرية ما فيه جلال ومهابة ، ولكنه لم يكن يجدّ فى شعره كثيراً ، فقد قلت لك إنه لم يكد يمدح ولم يكد يهجو ، وإنما تعاطى من فنون الشعر ضروباً خاصة ، وصف الخمر لأنه كان يشربها ، ووصف اللذة لأنه كان يستمتع بها ووصف الصيد لأنه كان يصيد ، وكل هذه الفنون تحتاج إلى الشعر السهل ، وإلى الوزن القصير . وتغزل الوليد كثيراً ، فقد ذكرت لك أنه أحب أخت زوجه ، وكانت هذه المرأة التى فُتن بها تسمى سَلْمى بنت سعيد ، فلا تكاد تجد شعراً للوليد يخلو من سَلْمى ، وهو يَفْتَنُّ فى ذكر سَلمى افتناناً عظيماً ، فيذكر اسمها مُكبَّراً وَمُصغراً ، ويذكره كاملا وَمُرخَّماً ، ويتخذ مرة كُنية لها ، كأنه يداعبها ، ومن الغريب أنه كان فى

هذا الحب سيء الحظ ، كما كان فى حياته كلها ، فقد طلق امرأته ليتزوج أختها ، فحال هشام بينه وبين ذلك ، فندم على تطليق امرأته ، وكأنه أحبها ، فأراد أن يراجعها ، ولكنها كانت قد تزوجت رجلا آخر ، فقال فى ذلك شعراً لذيذاً ، ولكنه يئس من امرأته ، فانصرف إلى عشيقته سَلمى ، وكأنها كانت تحبه ، بل كانت تحبه ، ولكنها كانت تطيع أباها وتكبره ، فكان الوليد يَنسُب بها حياته ، وكان شعره يصل إليها ؛ وكان يحب أن يسمع رأيها فى هذا الشعر ، لا لأنه ينتظر أن تمدح شعره أو تذمه ، بل لأنه يريد أن يجد فى كلامها صدى لعواطفه ، وقد بلغ به الغيظ ذات يوم أن خاصم سعيداً وهجاه ، فبلغ ذلك سَلْمى ، فغضبت لهجاء أبيها ، وبلغ الوليد أنها مُغْضَبَة ، فترضاها بشعر كثير ، وترضى أباها ، واعتذر إليه . وظل هشام فى وَجد وحزن ، يحب ولا يصل إلى من يحب ، وله فى ذلك فنون ، فقد احتال ذات يوم فى أن يدخل قصر سعيد ، فيقال إنه لقى زياتاً يسوق حماراً ، فأخذ من الزيات ثيابه وحماره وزيته ، ونزل له عن فرسه وثيابه ، ومضى يبيع الزيت ، حتى دخل قصر سعيد يعرض زيته ، و رأته سَلمى ورآها ، ثم نهره الخَدَم ، فانصرف وقال فى ذلك شعراً . فلما مات هشام وأصبح الوليد خليفة ، خطب سلمى إلى أبيها ، فَقبل خطبته هذه المرة ، وزوجه ابنته ، وللوليد فى ذلك شعر عذب لذيذ ، من أخف الشعر ظلا ، وأحسنه فى النفوس وقعاً ، ولكنى قلت لك إن الوليد كان سيء الحظ فى حبه ، كما كان سيء الحظ فى حياته كلها ، فلم تلبث سلمى عنده إلا أربعين يوماً ، ثم ماتت فجزع الوليد لموتها جزعاً شديداً ، ورثاها رثاء لا نقول إنه يفطر القلوب حزناً وأسى ، ولكننا نقول إنه يمثل نفس الوليد ، التى كانت تعرف كيف تحزن ، كما كانت تعرف كيف تبتهج . ويكفى أن تقرأ شعر الوليد فى سلمى هذه حية وميتة ، لتعرف أن الوليد لم يكن يتكلف الشعر ، ولا يحرص على الإجادة فيه ؛ وإنما كان يرسله كما يرسل أنفاسه ، فى سهولة ويسر ، فإذا هو حارٌّ حيناً ، وفاتر حيناً ، وقد يصل إلى البرد حيناً آخر .

ثم للوليد جد ، ولكنا لم نحفظ منه إلا قليلا ، فقد خاصم هشاماً ، فاضطره هذا الخصام إلى شيء من الفخر والعَتْب ، ونالته مِحَنٌ اضطرته إلى

أن يقول فيها شعراً ؛ وفقد ابناً له فرثاه ؛ وهو فى هذا الجد كله قوى متين ، لا يخلو من جلال ورصانة .

ولم يكن الوليد شاعراً فحسب ، وكأنه كان يتصرف فى النثر تصرفاً حسناً ، فقد روى لنا أبو الفرج مكاتبة بينه وبين هشام لا بأس بها ، ولكنى أتردد (وأظن أنى محق) فى نسبة هذه الرسائل إلى الوليد وإلى هشام ، وأحسب أن مواليهما هم الذين كانوا يكتبون عنهما ، ولست أشك فى ذلك بالقياس إلى هشام ، وأنا أرجحه بالقياس إلى الوليد ، ومهما يكن من شىء فإن معانى هذه الكتب تمثل نفس الوليد وهشام تمثيلا لا بأس به . ثم كان الوليد مع هذا عالماً بأيام العرب وأحداثها ، وبأشياء أخرى كثيره ، وأحسب أن اتصاله بالموالى من الفرس قد علمه شيئاً كثيراً ، والرواة يروون أنه أخذ عنهم الزّندقة ، ومال معهم إلى مذهب « مانى » ، وليس من شك فى أنه كان يُلم باصطلاحات حديثة : علمية أو فلسفية ، ظهرت فى شعره عند ما وصف الخمر ، كما ظهرت فى شعر أبى نواس ، ومع ذلك فالفرق بينه وبين أبى نواس ليس بالقليل ، كان الوليد أقرب إلى البداوة منه إلى الحضارة ، وذلك ظاهر جلى فى شعره ، فعلى هذا الشعر مسحة بدوية لا تقبل الشك ، بينما أبو نواس فى لهوه ومجونه حَضَرِيّاً ، قدرق حتى كاد ينمحى رقة وخفة .

ولنختصر ، فللوليد شخصيتان : شخصيته السياسية التاريخية ، التى حدثتك عنها فى أول هذا الفصل ، وهذه الشخصية إن لم تكن جذابة خلابة ، فليست منفرة ولا بغيضة ، وهى لا تقطع الصلة بين الوليد وبين غيره من الخلفاء الأمويين والعباسيين ، الذين يذكرون بالخير ، ولعلهم ليسوا أقل إثماً من الوليد . وشخصيته الأدبية : شخصيته من حيث هو شاعر . وأحسب أنى قد رسمتها لك رسماً إلاّ يكن صادقاً كل الصدق ، فليس بعيداً عن الحق ، وأحسب أن هذا الرسم يظهر لك الوليد شاعراً ظريفاً ، جذاباً خفيف الروح . ولكنى أريد أن أثبت كل هذه الصفات التى قدمتها ، ولا بد لذلك من أن ننتقل إلى طائفة من شعره ؛ فليكن ذلك فى الفصل الآتى .

مطيع بن إياس [1]

وكنت تنتظر أن أحدثك عن الوليد بن يزيد ، لأنى وعدتك فى الأسبوع الماضى أن أستأنف الحديث فيه ، ولكن بدا لى ، فسأحدثك عن شاعر آخر ، ولست أكره إخلاف هذا الوعد ؛ فمن اليسير عليك ، ومن الخير لك ولى ، إذا أردت أن تتعرف شعر الوليد ، وتتثبت صحة تلك الصورة التى رسمتها لك من شخصيته ، أن ترجع إلى كتاب الأغانى ، وما روى فيه أبو الفرج من شعر الوليد ، فنى ذلك مقنع لك ، وفى ذلك فائدة أعظم وأجدى من الفائدة التى تجنيها لو أنى رويت لك طرفاً من شعر الوليد فى هذا الحديث ، ومن يدرى ! لعلك إن رجعت إلى أخبار الوليد وأشعاره فى الأغانى صححت بعض ما قد أكون تورطت فيه من خطأ ، ومهما يكن من شىء ، فإن رجوعك إلى الأغانى بعد أن قرأت حديثى عن الوليد ، أنفع لك ، وأجدى عليك من قراءة حديث آخر ، ليس لى فيه إلا رواية وتحليل . وذلك فى الوقت نفسه ينفعنى ، فأنا أريد أن أتحدث إليك مسرعاً عن طائفة من الشعراء ، تصل بينهم وبين الوليد وأبى نواس صلة متينة قوية ، هى صلة الخلاعة والمجون والشك ، والإعراض عما ألف الناس ، أريد أن أتحدث إليك فى هؤلاء الشعراء ، لا لأنى أوثر هزلهم وخلاعتهم على جد غيرهم ، ولا لأنى أشعر بأنك تؤثر الخلاعة والهزل على الجد ، فأحاول أن أرضيك وأسليك ، بل لأنى أرى فى الحديث عن هؤلاء الشعراء وأصحابهم من أهل الظرف والمجون فى ذلك العصر ، نوعاً من الجد عظيم الخطر ، يُمكّننا من أن نفهم عصراً من العصور الإسلامية كما ينبغى أن نفهمه ، ويمكّننا من أن نحكم على هذا العصر حكماً ملائماً للحق ، مقارباً للصواب ، وليس هذا بالشىء اليسير ، وليس هذا بالشىء الذى يزدريه الباحثون . ولعلك لم تنس بعد أنى لم أكد أعرض لأبى نواس فى السنة الماضية ، حتى سخط ناس كثيرون فى مصر ، وفى غير مصر ؛ سخط

---

[1] نشرت بالسياسة فى ٥ رمضان سنة ١٣٤٢ — ٩ أبريل سنة ١٩٢٤ .

قوم ، لأن فى شعر أبى نواس وأمثاله مخالفة للأخلاق ، ونبوًّا عن الدين ، وسخط قوم آخرون ، لأنهم زعموا أنى أسىء إلى العرب ، وأتهمهم بما ليس فيهم ، واتخذ فجور واحد من الشعراء مقياساً لحياة العصر الذى عاش فيه ، فأعمم حين يجب التخصيص ، وأسرف فى التعميم حين يجب الاحتياط والدقة ، لعلك لم تنس هذا بعد ، ولعلك تعلم أن الذين يُعْنَوْنَ بالبحث الأدبى والتاريخى عناية صادقة ، إذا خطر لهم رأى ، وظهر لهم أنه الحق ، فآمنوا به ، واطمأنوا إليه ، لم يسهل عليهم أن يتركوه أو ينصرفوا عنه ، حتى يثبتوا لأنفسهم وللناس أنه الحق ، وهم يشتدون فى ذلك ، ويحرصون عليه حرصاً ليس فوقه حرص ، وأنا من هؤلاء الناس ، حاولت أن أبحث عن أبى نواس ، فخطر لى أنه كان شاعراً شاكًّا ماجناً ، وأن هذا الشك والمجون لم يكونا مقصورين عليه ، بل كانا قد تجاوزاه إلى غيره من الشعراء وأعلام هذا العصر ، فتتبعت هذا الرأى ، وجعلت أدرسه وأمتحنه ، وجعلت كلما أمعنت فى هذا الدرس والامتحان ، ازددت إيماناً بهذا الرأى ، واطمئناناً إليه . ثم انتقلت منه إلى رأى آخر أوسع منه وأشمل ، فاعتقدت وما زلت أعتقد أن القرن الثانى للهجرة ، على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك ، والمشغوفين بالجد ، إنما كان عصر شك ومجون ، وعصر افتتان وإلحاد عن الأخلاق المألوفة ، والعادات الموروثه ، والدين أيضاً .

رأيت هذا الرأى ، وذهبت أثبته بالأدلة المختلفة ، والحجج المتباينة ، فى أثناء بحثى عن أبى نواس ، ولكنى لا أكتفى الآن بإثبات هذا الرأى ، ولا بأن أقيم عليه الأدلة النظرية أستمدها مرة من انتقال العرب من حال إلى حال ، ومرة من اختلاطهم بالأمة الفارسية ، ومرة من طبيعة الحضارة والترف ، ومرة من ظهور العلم ، ونقل الفلسفة ، لا أكتفى بهذا كله ، وإنما أريد أن أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، تشخيصاً لا يجعل إلى الشك فيها سبيلا ، ثم أريد أن أبين أن هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، إن سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد ، فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعهم يحبونهم ، ويميلون إليهم ، ويتفكهون بما يوصفون به من ظرف ، وما يروى عنهم من هزل ومجون ، وإذا كان هؤلاء الشعراء

وأصحابهم من حرية الرأى ، ومن الإسراف فى حب اللذة ، والتّهالك عليها ، سرًّا وجهراً ، بهذا الحد الذى بينته وسأبينه فى هذه الفصول ، وإذا كان الناس بهم معجبين ، وعنهم راضين ، أقول إذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندى شك فى أن هذا العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء ، وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم ، لم يكن عصر إيمان ويقين فى جملته ، إنما كان عصر شك واستخفاف ، وعصر مجون واستهتار باللذات ، ولم لا يكون كذلك وقد اجتمع للمسلمين فيه شيئان ، كلاهما خطرٌ على حياة السذاجة والقناعة : أحدهما العقل ، أريد العقل الفلسفى ، الذى يتدخل فى كل شيء بالنقد والتحليل . وبالنفى والإثبات ، ولا يريد أن يقف من ذلك عند حد ، وإنما يريد إذا بدأ البحث أن يستقصيه ، وهو فى أثناء هذا البحث وهذا الاستقصاء يهدم ما يعرض فى طريقه من آثار الوراثة ، والثانى الحضارة وما تستتبعه من نَعْمه ولذة وترف ، كلتا هاتين الظاهرتين شديدة الخطر على كل قديم ؛ فأما الفلسفى فَمِعْوَلٌ يهدم القديم فى الحياة المادية على اختلاف فروعها . ومن زعم أن العرب لم يتأثروا فى القرن الثانى للهجرة بهذين الخطرين . فهو مسرف كل الإسراف ، بعيد عن الحق كل البعد .

ليس غريباً إذن أن يظهر فى هذا العصر الوليد بن يزيد ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، وحماد عَجْرَد ، وابن المقفع ، ووالبة بن الحُباب ، وغيرهم من الذين عاصروهم وشاركوهم فى شكهم ومجونهم ، وفى لهوهم وعبثهم ، ليس غريباً أن يظهر هؤلاء الناس فى ذلك العصر ، وإنما الغريب أن يخلو منهم ذلك العصر ، ولا يظهر فيه إلا الفقهاء والنساك وأصحاب الزهد والتقى .

نحن إذاً مضطرون إلى أن نأخذ هذا العصر كما هو ، وإلى أن نصطنع من الشجاعة ما يمكننا من أن ننظر إليه فى جملته وفى تفصيله ، لا مشفقين ولا مترددين ، ولا كالنعامة التى يأتيها الخطر ، فتخفى رأسها كى لا تراه ، ويخيل إليها أن ذلك يؤمنها من هذا الخطر . . . فمهما ننكر ظهور الشك والمجون وأصحابهما فى هذا العصر ، وتغلب هذا الشك والمجون على نفوس المستنيرين

من أهله ، فلن يمنع ذلك أن يكون هذا العصر كما قلت عصراً ظهر فيه الشك والمجون ، واستأثرا بعقول الكثرة المستنيرة من أهله ، حتى بعض الفقهاء وأصحاب الكلام . سيقولون : وما ينفعنا أن نعلم بأن هذا العصر قد كان عصر شك أو عصر يقين ؟ وما يضرنا أن نجهل ذلك ؟ ولست أرى على ذلك جواباً معقولا ، وأى جواب معقول تستطيع أن توجهه إلى من يسألك ما نفع العلم ؟ وما ضرر الجهل ؟ وما فائدة الصواب ؟ وما مضره الخطأ ؟ سيقولون : ولكنك سيئ الاختيار ، ردىء الذوق ؛ فما أنت وأصحاب الشك والمجون تحدثنا عنهم فى شهر الصوم ، وتروى لنا شكهم ومجونهم وتصرفهم فى ألوان الهزل ؟ وهلا أجلّت ذلك حتى يفرغ الناس من صومهم ! وهلا اكتفيت فى هذه الأيام التى ينصرف فيها الناس إلى الطاعة والتقوى بالتحدث إليهم فى أخبار الزهاد والناسكين ، وفى مناقب الوعاظ والصالحين ! نعم ! سيقولون هذا . ومن يدرى ! لعلى إنما تخيرت هؤلاء الظرفاء وأحاديثهم لأرفه على هؤلاء الصائمين ، وأخفف عنهم من ألم الصوم قليلا ، وأى إثم فى ذلك ! وأى جناح فيه !

زعموا أن ناساً سألوا ابن عباس عن إنشاد الشعر ، أينقض الوضوء ؟ فأنشد ابن عباس شعراً لا أستطيع أن أرويه ، ثم نهض فصلى . وزعموا أن ناساً سألوا عن شىء كهذا أحد الفقهاء المحدثين ، وأحسبه سعيد بن المسيب ، فأنشد :

أُنبِئتُ أَنَّ فَتَاةً كُنتُ أَخطُبُهَا ... عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِى الطُّولِ

لم يتحرج ابن عباس ، ولم يتحرج ابن المسيب ، ولم يتحرج غيرهما من الفقهاء وأعلام الدين من رواية الشعر وفنونه المختلفة ، جدها وهزلها . فما لنا نتحرج الآن ! أليس هذا التحرج نفسه مظهراً من مظاهر الضعف ، ولين العقيدة ، واضطراب اليقين ! إن المؤمن حقاً ، المتدين حقاً ، المخلص فى نسكه وعبادته ، لا يخشى على إيمانه ، ولا على دينه ، ولا على زهده وعبادته شعر مطيع وأصحاب مطيع ، وإنما يخشى هذا الشعر من يحس من نفسه الضعف ، ويريد أن يتقيه ، ويتجنب أسبابه والمغريات به . وإذا أحس الرجل من

نفسه ضعفاً فى مثل هذه الأشياء ، فارو له ما شئت من شعر ، أو اكفف عن رواية هذا الشعر له ، فما أنت بنافعه ولا ضاره .

على أنى قلت إنا نبحث بحثاً علميًّا ، لا نريد به أن نرضى الناس ، ولا أن نسلى عنهم ، وإنما نريد أن نفيد ، وأن نستفيد . وأرى أنى قد أسرفت فى هذه المقدمة إن كان يمكن أن تسمى هذه مقدمة ، ولم أتحدث إليك بعد فى مطيع ، ومع ذلك فهو خليق بأن أتحدث إليك فيه ، وأن أطيل الحديث .

كنت أذكر لك فى الحديث الماضى صدق الوليد بن يزيد ، وخفة روحه فى الشعر ، وأين يقع الوليد بن يزيد من مطيع بن إياس ، إذا أردنا أن نذكر صدق اللهجة ، وخفة الروح ، وحلاوة الدعابة ، وجمال اللفظ ! الفرق بين الشاعرين عظيم . وربما كان من العسير جدًّا أن تجد شاعراً مجيداً أو غير مجيد ، يبلغ ما بلغه مطيع من صدق اللهجة ، وخفة الروح ، حتى أبو نواس وأنت تعلم رأيى فى أبى نواس . نعم ! مطيع ابن إياس أصدق لهجة من أبى نواس ومن الوليد ، وأخف روحاً منهما ، وتفسير ذلك يسير ، فقد كان الوليد كما عرفت مضطهداً أيام ولايته للعهد ، كثير الخصوم أيام خلافته ، فكان فى لهوه ومجونه فى هذين العصرين يشعر بالاضطهاد والخصومة ، ويريد أن يتحدى المضطهدين والخصوم ، فكان ذلك ربما دفعه إلى شىء من الإسراف فى القول ، والإمعان فى التحدى ، وتجاوز طبيعته أحياناً ، ليغيظ خصومه ومضطهديه وكان أبو نواس شاعراً مجيداً ، ومستأثراً فى عصره بالإجادة المطردة ، وكان قد اتخذ المجون مذهباً ، وكان قد أعلن ذلك ، وأسرف فيه ، وكان له حساد وخصوم ومضطهدون ، فكان كالوليد ، يتحدى هؤلاء الحساد والخصوم ، ويسرف فى القول إسرافاً متعمداً ، يريد أن يغيظ الفقهاء والمتكلمين ، ويهزل ويسفّ فى اللفظ ، يريد أن يغيظ النحاة واللغويين ، لم يكن يخشى إلا الخلفاء ، أو قل لم يكن يخشى من الخلفاء إلا الرشيد ، فكان يحتاط أمام الرشيد .

بينما الوليد يسرف فى القول ، ليتحدى خصومه السياسيين ، وبينما كان

أبو نواس يسرف فى القول ليتحدى خصومه العلماء والأدباء ، كان مطيع لا يسرف فى القول ، لأنه لم يكن مضطهداً ولا معرَّضاً لخطر .

ستقول : وكيف أمن مطيع هذا الاضطهاد ؟ وكيف برئ من التعرض للخطر مع أنه كان ظريفاً ماجناً ، ملحاً فى الفسق ، متهماً فى دينه ، يوصف بالزندقة ؟ .

فأقول : بل كان مطيع شراً من هذا أيضاً فى النصف الثانى من حياته ؛ فقد كان بينه وبين الأمويين صلة : مدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ، ونادم الوليد بن يزيد ، ومدح أبوه والياً من ولاة بنى أمية ، ومدح هو رجلا من ولد خالد القَسْرى ، وكثيراً ما كان يذكر بالخير أيام بنى أمية ، ويكره أيام بنى العباس ، فكان من المعقول جداً أن يُراعَ من الوجهة السياسية ، كما كان من المعقول جداً أن يُراع من الوجهة الدينية ، ولكنه مع ذلك لم يُرع إلا مرة أو مرتين ، خرج منهما آمنا مسروراً ، موفور الحظ من العطاء أيضاً . تريد أن تفهم هذا ، وأنا أيضاً أريد أن أفهمه ، وأعتقد أن تعليل هذا سيصور لك مطيعاً وشخصيته ورأيه فى الحياة والناس وأحسن تصوير وأصدقه ، كان مطيع يزدرى الناس ، وكان يزدرى الحياة . وكان يسخر من هذه ، كما كان يسخر من هؤلاء ، وكان يتخذ هذه وهؤلاء وسيلة إلى اللذة ، وإلى اللذة التى لا حد لها ؛ فكان يتلون مع هؤلاء الناس بألوانهم ، وكان يتقلب مع الحياة فى صورها المختلفة ، كان أموياً أيام بنى أمية ، لم يكره حين مَثَل بين يدى الوليد ، فسأله عن شعر أعجب به لمن هو ؟ لم يكره أن يجيب : «عبدك أنا قائله يا أمير المؤمنين» . قالوا : فاستدناه الوليد ، وقبل فاه وبين عينيه ، وهَوَى هو ، فقبَّل الأرض بين يديه ، وكان عباسياً حين ثبَّت الله الملك لبنى العباس ، ولم يكن عباسياً معتدلا ولا هادئاً ، بل قل لم يكن عباسياً متطرفاً ، لأنه لم يكن مقتنعاً بشىء ، وإنما كان يريد أن يعيش ويلذ ، وكان يجد الحياة واللذة عند بنى العباس ، ولم يكن بنو العباس يزنون عنده شيئاً إلا هذه الحياة وهذه اللذة ! فما الذى كان يمنعه أن يتملق بنى العباس ! وهو لم يكن يتملقهم كما يفعل الذليل الخانع ، وإنما

كان يتملقهم ، ساخراً منهم ، مزدرياً لهم ، بل كان يسخر ممن هو أجل منهم خطراً . قالوا : أراد المنصور أن يبايع بالخلافة بعده لابنه المهدى ، وكان ابنه جعفر يعترّض عليه فى ذلك ؛ فدعا الناس ذات يوم فاجتمعوا ، وتكلم الخطباء والشعراء ، كلهم يمدح المهدى ، ويبين فضله ، حتى إذا فرغوا أقبل مطيع على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حدثنى فلان عن فلان عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : المهدى منا محمد بن عبد الله ، وأمه من حمير ، يملؤها عدلا كما ملئت جوراً : وهذا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك ، ثم أقبل على العباس ، فقال له : أنشُدُك الله ! هل سمعت هذا ؟ فقال : نعم ، مخافةً من المنصور ، فأمر المنصور الناس بالبيعة للمهدى . أفترى إليه أحسّ شهوة المنصور فى أن يبايع لابنه المهدى ، وعزمه على ذلك ، فأراد أن يرضى المنصور وولى عهده ، فوضع هذا الحديث وضعاً ، ولم يكتف بالكذب على النبى ، حتى استشهد أخا المنصور على أنه صادق ، فشهد خوفاً من أخيه . ولا تقل إنه فعل هذا ذلة أو إسرافاً فى التملق ، ولكن قل إنه فعل هذا ترضياً للخليفة وولىّ العهد ، وازدراء لهما ، وسخرية من الدين ، وقد عرف المهدى له هذه الصنيعة ؛ فأنت تعلم أن المهدى كان شديداً على الزنادقة ، أسرف فى قتلهم والفتك بهم ، وتجاوز فى ذلك حدود العدل والرحمة ، وهو مع ذلك لم يَرُعْ مطيعاً . بلى ! راعه مرة ، ولكنه أخرجه من عنده موفوراً له الحظ من العطاء . قالوا : كان مطيع ينادم جعفر بن المنصور ، واشتهر ذلك ، واشتهر مجون جعفر وتهتكه ، ورفع أصحاب الخبر ذلك إلى المنصور ، وكان المهدى عنده ، فقال لأبيه : أنا به عارف ، ليس زنديقاً ، ولكنه خبيث الدين فاسق ، فقال له المنصور : أحضره فانهه ، فأحضره المهدى ، ولامه وعنّفه ، وأمر أن يضرب مئتى سوط ، قال مطيع : إن أذنت لى احتججت ، فأذن له ، فقال أنا شاعر ، وإنما ينفُق شعرى عند الملوك ، وقد كسدت عندكم ؛ واكتفيت بأن آكل على مائدة أخيك ، وأصفيته على ذلك شعرى وشكرى ، فإن رأيت أن فى ذلك سوءاً تبت عنه ، ومضى الحديث على نحو ذلك ، حتى رق المهدى ، فأمر أن يطلق ولا يضرب ولا يحبس . قال :

فأنصرف بغير جائزة ؟ قال المهدى : لا يجوز هذا ، وأمر له بمئتى دينار ، خفية عن أمير المؤمنين . قال الرواة وكان المهدى يحفظ له أنه وضع الحديث يوم أراد المنصور البيعة له .

أعتقد أنا أن هاتين القصيدتين تصوران شخصية هذا الرجل تصويراً صحيحاً . فيخيل إلى أن عقله كان قد فرغ من كل شىء . وانتهى إلى السخرية، والازدراء للناس وللحياة ، واتخاذ الناس والحياة وسيلة إلى الشىء الوحيد ، الذى يستحق أن يعيش الناس من أجله ، وهو اللذة ، ومن هنا تملق المنصور ، فى سخرية من المنصور وابنه وأخيه والدين أيضاً ، ومن هنا تلطف للمهدى ، حتى ابتز منه جائزة . وخرج من عنده موفوراً . أضف إلى هذا أن مطيعاً اتصل أيام العباسيين بجعفر بن المنصور فنادمه ، وكان محتمياً به ، فلم يمسه أذى .

كل هذا يبن لك ما زعمته آنفاً من أن مطيعاً لم يكن مضطهداً ، لا من الوجهة السياسية ، ولا من الوجهة الدينية ، وإنما كان يستطيع أن يحتاط لنفسه فى ذلك احتياطاً يسيراً ، فيأمن كل شر . ولقد كثر تحدُّث الناس فى عصر مطيع وبعده عن زندقة مطيع وأصحابه ، وعن إفسادهم أخلاق الناس وأديانهم ، ولست أنكر هذا على نحو ما أنكرت ما كان ينسب إلى الوليد بن يزيد ، فقد بينت أن حياة الوليد كلها كانت تدعو إلى الاحتياط ، فى تصديق ما كان ينسب إليه ، أما مطيع وأصحابه فلم يكونوا خلفاء ، ولم يكونوا ولاة عهد ، ولم يكونوا محسودين إلى حد عظيم ، وإذن فلم يتكلف الناس الكذب عليهم ، أو لم يسرفوا فى هذا التكلف ، وما أشك فى أن حياة هؤلاء النفر ، الذين كانوا يؤلفون جماعة قوية الاتصال ، ما أشك فى أن حياتهم كانت تدعو إلى الريب والاتهام ، فكثيراً ما كانوا يعلنون الفسق ولا يخفونه ، وكثيراً ما كانت تجرى على ألسنتهم ألفاظ ينكرها الدين ، وينكرها الخلق ، ولكنى مع ذلك أعتقد أن شيئاً من الاحتياط واجب فى تصديق كل ما ينسب إلى مطيع وأصحابه ، فالناس مشغوفون بالإسراف أبداً ، لا يكاد يتهم لهم رجل بالزندقة أو الإلحاد ، حتى يتطوعوا هم بإثبات زندقته وإلحاده ، يخترعون على ذلك الأدلة ، وينتحلون الحجج ، ويروون الوقائع ،

يزعمون أنهم رأوها وما رأوها ، وإنما يخدعون الناس ، أو يخدعون أنفسهم . وهذا الإسراف كثير فى شأن مطيع وأصحابه ، ولكنى لا أنكر المثل القائل : «لا دخان بلا نار» فلولا أن حياة هؤلاء الناس كانت تدعو إلى القال والقيل ، لما قال فيهم الناس شيئاً .

قلت : كان مطيع صادق اللهجة فى شعره ، لا يكذب ولا يتكلف ، وعللت صدق لهجته بأنه كان حر الرأى ، وأنه كان حر الرأى ، لأنه كان يزدرى الناس والحياة ، ولست أريد أن أغفل شيئاً رواه أبو الفرج ، وهو يمثل رأ مطيع فى الناس ، وهو يبين لنا مقدار ازدرائه للناس ، وسوء ظنه بهم . زعموا أنه مر بصد يقيه يحيى بن زياد ، وحماد عجرد وهما يتحدثان ، فقال : فيما أنتما ؟ قالا : فى قذف المحصنات . قال : وهل فى الأرض محصنة تقذفانها ؟ ! فانظر إليه كيف فاق صاحبيه بَغياً وسوء ظن بالناس ! كان صاحباه يقذفان المحصنات ، ويعترفان بأنهما يقذفان المحصنات ، أما هو فلا يرى أن فى الأرض محصنة ، وإذن فليس هناك قذف ، وإنما كل قذف هو الحق ، أودون الحق . وإذا وصل الرجل من ازدراء الناس وسوء الظن بهم إلى هذا الحد ، فما الذى يمنعه أن يكون حرًّا فيما يعمل وما يقول ، لا يتقى إلا شيئاً واحداً ، هو ما يعرضه للموت ، أو للحرمان ! وإذا كان قد احتاط فأرضى السلطان ، وأمن شره ، فليس عليه بأس فى شىء آخر . على أن ازدراء مطيع للناس لم يكن شاملا ؛ فقد كان يستثنى من هؤلاء الناس أصدقاءه وأصحابه وأخدانه ، ومن أشد الأشياء تأثيراً فى النفس هذه الصلة المتينة ، التى كانت بينه وبين صديقه يحيى بن زياد ، والتى حرَص عليها حرصاً شديداً ، يستثير فى النفس عاطفةً مؤثرة حقًّا . قالوا : شرب مطيع مع صديقه يحيى ، فعربد عليه ، وكانت بينهما ملاحاة ، فآذى مطيع صاحبه ؛ فحلف لا يكلمه أبداً ، ولم يستطع مطيع أن يصبر على هذا الهجر ، فكتب إلى صديقه هذه الأبيات العذبة ، التى تفيض حناناً ورقة ، والتى لا تخلو من شرف اللفظ ، وجمال الأسلوب :

إنْ تَصِلْنِى فَمِثْلُكَ الْيَوْمَ يُرْجَى　　عَفْوُهُ الذَّنْبِ عَنْ أَخِيهِ وَوَصْلُهْ
وَلَئِنْ كنْتَ قَدْ هَمَمْتَ بِهجْرِى　　لِلَّذِى قَدْ فَعَلْتُ إِنِّى لأَهْلُهْ

وأَحَقّ الرِّجَالِ أَنْ يَغْفِرَ الذَّنْـ ... ـبَ لإِخْوَانِهِ الْمُوَفَّرُ عَقلُهْ
الْكَرِيمُ الَّذِى لَهُ الْحَسَبُ الثَّا ... بِتُ فِى قَوْمِهِ وَمَنْ طَابَ أَصْلُهْ
وَلَئِنْ كُنْتَ لا تُصَاحِبُ إِلَّا ... صاحباً لا تَزِلُّ مَا عَاشَ نَعْلُهْ
لَمْ تَجِدْهُ وَإِنْ جَهَدْتَ وَإِنِّى ... لَلَّذِى لَا يَكَادُ يُوجَد مِثْلُهْ
إِنَّمَا صاحِبِى الَّذِى يَغْفِرُ الذَّنْـ ... ـبَ وَيَكْفِيهِ مِنْ أَخِيهِ أَقَلُّهْ
الَّذِى يَحْفَظُ الْقَدِيمَ مِنَ الْعَهْـ ... ـدِ وإِنْ زَلَّ صاحِبٌ قَلَّ عَذْلُهْ
وَرعَى مَا مَضَى مِنَ الْعَهْدِ مِنْه ... حِينَ يُؤْذِى مِنَ الْجَهالَةِ جَهْلُهْ
لَيْسَ مَنْ يُظْهِرُ الْمَودَّةَ إِفْكاً ... وإِذَا قَالَ خَالَفَ الْقَوْلَ فِعْلُهْ
وصْلُهُ لِلصَّدِيقِ يَوْمٌ فَإِنْ طَا ... لَ فَيَوْمَانِ ثُمَّ يَنْبَتُّ حَبْلُهْ

وكتب إليه :

كُنْتُ ويَحْيَى كَيَدَىْ واحِدٍ ... جَرمِى جمِيعاً وَتَرَيْنَـــا مَعَا
إِنْ عَضَّنِى الدَّهْرُ فَقَدْ عَضَّهُ ... يُوجِعُنَا مَا بَعْضَنَا أَوجَعَا
أَوْ نَامَ نَامَت أَعْيُنٌ أَرْبعٌ ... مِنَّا وَإِنْ أَسْهرْ فَلن يَهْجَعَا
يَسُرُّنى الدَّهْرُ إِذَا سَرَّه ... وَإِنْ رَمَاه فَلَنـــا فَجَّعَا
حتَّى إذا مَا الشَّيْبُ فِى مَفْرِقِى ... لاَحَ وَفِى عارِضِه أَسْرَعا
سَعَى وُشَاة فَمَشَوْا بَيْنَنا ... وَكادَ حَبْلُ الْوُدِّ أَن يُقْطَعَا
فَلَمْ أَلُم يَحْيَى عَلَى فِعْلِهِ ... وَلَمْ أَقُلْ ملَّ ولَا ضَيَّعَا
لَكِنَّ أَعْدَاءَ لنَا لَمْ يَكُنْ ... شَيْطَانُهُمْ يُرْوِى بِنَا مَطْمَعَا
بَيْنَا كَذَا عَاشَ عَلَى غِرَّةٍ ... فأَوْقَدَ النـــيرَانَ مسْتَجْمِعَا
فَلَم يَزَلْ يُوقِدُهَا دَائِباً ... حَتَّى إِذَا مَا اضْطَرَمَتْ أَقْلَعَا

وانظر إلى هذا الشعر يرثى به يحيى هذا :

قَدْ مَضَى يحيَى وَغُودِرْتُ فَرْدًا ... نُصْب مَا سَرَّ عُيُونَ الْأَعَادِى

وَأَرَى عَيْنِيَ مُذْ غَابَ يَحْيَى	بُدِلَت مِنْ نَوْمِها بِالسُّهَادِ
وَسَدَتْه الْكَفُّ مِنِّى تُرَاباً	ولَقَدْ أَرَى لَهُ مِنْ وِسَادِ
بَيْنَ جِيرَانٍ أَقَامُوا صُمُوتاً	لَا يُحيرُونَ جَوَابَ الْمُنَادِى
أَيُّها الْمُزْنُ الَّذِى جَادَ حَتَّى	أَعْشَبَتْ مِنْهُ مُتُونُ الْبَوَادِى
اِسْقِ قَبْرًا فِيهِ يحْيى فإنِّى	لَكَ بِالشكْرِ مُوَافٍ مُغَادِى

كان يحيى صديقًا لمطيع فى الخير والشر صديقاً حقًّا ، وكان لمطيع صديق آخر ، ولكن صداقتهما كانت على غير هذا النحو ، كانت صداقة ضاحكة ، صداقة مزاح ولهو وسخرية ، ذلك هو حماد عجرد ، فسنرى يوم نعرض لهذا الشاعر أنه كان غضوباً ضيق الذرع ، وكان أصحابه يعرفون منه ذلك ، فلا يرقون له ، ولا يرفقون به ، وكان حماد أصلع ، وكانت صلعته شديدة الحمرة ، فانتهز ذلك صديقه مطيع ، وأفسد بينه وبين صاحبة له تسمى خشة ، وتعرف بظبية الوادى ، فساءت الحال لذلك بينه وبين صاحبه ، واتصل بينهما هجاء لذّاع ، ولكنه لذيذ ، لم يمنع اتصال المودة بينهما ، ولست أروى لك منه شيئاً ، وقد تستطيع أن تجده فى الأغانى .

وأنا مضطر إلى أن أعدل عن شعر مطيع كله ، لضيق المكان ، وطول هذا الفصل ، ولكنى لا أستطيع أن أغفل هذه الأبيات المشهورة ، التى تمثل شعر مطيع ونفسه وعواطفه تمثيلا صادقاً ، أحسه القدماء ، فرقوا له ، وكلفوا به ، وقد قال هذه الأبيات فى جارة له أحبها بالرى ، ثم اضطرَّ ففارقها ، فلما كان فى طريقه مر بعقبة حلْوان ، فجلس يستريح إلى نخلتين هناك ، وذكر صاحبته ، فقال :

أَسْعِدَانِى يَا نَخْلَتَىْ حُلْوَان	وَابْكِيَالِى مِن رَيبِ هَذَا الزَّمانِ
وَاعْلَمَا أَنْ رَيْبهُ لَمْ يَزَلْ يَفْ	رُقُ بين الْأُلَّافِ وَالْجِيرَانِ
وَلَعَمْرِى لَو ذُقْتُما أَلَمَ الْفُرْ	قَةِ أَبْكاكُما الَّذِى أَبْكَانِى
أَسْعِدَانى وأَيْقِنا أَنَّ نحْساً	سَوْفَ يَلْقَاكُمَا فَتَفْتَرِقَانِ

كَمْ رَمَتْنِي صُرُوفُ هَذِى اللَّيالِى ... بِفِرَاقِ الْأَحْبَابِ والخُلَّانِ
غَيْرَ أَنِّى لَمْ تَلْقَ نَفْسى كما لَا ... قَيْتُ مِنْ فُرْقَةِ ابْنَةِ الدِّهْقَانِ
جارَةٌ لِى بالرَّى تُذْهِبُ هَمِّى ... وَتُسَلِّى ذُنُوبُهَا أَحْزَانِى
فَجَعَتْنِى الأَيَّامُ أَغْبَطَ مَا كُنْ ... تُ بِصَدْعٍ لِلْبَيْنِ غَيْرِ مُدَانِى
وبِرَغْمِى أَنْ أَصْبحَتْ لَا تَرَاهَا الْ ... عَيْنُ مِنِّى وأَصْبَحَتْ لَا تَرَانِى
إِنْ تَكُنْ وَدَّعت فَقَدْ تَرَكَتْ بِى ... لَهَباً فى الضَّمِيرِ لَيْس بِوَانِى
كَحَرِيقِ الضرَام ِفى قَصَبِ الْغا ... بِ رَمَتْهُ رِيحانِ تَخْتَلِفَانِ

وقد جعلت هذه الأبيات لنخلتى حلوان تاريخاً وذكرى بين الأدباء والشعراء . قالوا : أراد المنصور أن يقطعهما ، فلما أنشد هذا الشعر كره أن يكون النحس الذى يفرق بينهما . وأراد المهدى أن يقطعهما ، فنهاه المنصور عن ذلك . قالوا : ومر الرشيد بحلوان وهو ذاهب إلى طوس ، فهاج به الدم ، ووصف له الطبيب جُمَّارًا ، فلما سئل الدهقان أشار إلى النخلتين ، ولم يكن فى حُلوان غيرهما ، فقطعت إحداهما ، ثم مرَّ الرشيد بالأخرى ، فرأى عليها هذه الأبيات ، فندم وقال : لو علمت أن هذه الأبيات قيلت فى هاتين النخلتين ما عرضت لهما ، ولو قتلنى الدم .

وإذا صح ما تحدث به الرواة ، فقد كان موت مطيع شعراً لا يعدله شعر . قالوا : سأله الطبيب فى علته التى مات فيها : ماذا تشتهى اليوم ؟ فأجاب أشتهى ألا أموت ؛ أترى جواباً أكثر شعراً ، وأغزر معنى ، وأشد تمثيلا لضعف الإنسان ، وقوة رغبته فى الحياة ، من هذا الجواب ؟ ولئن أردنا أن نحكم على مطيع حكماً جامعاً مختصراً بعد هذا التفصيل ، لما تجاوزنا حكم أبى الفرج عليه حيث يقول :

« هو شاعر من مخضْرمى الدولتين الأموية والعباسية ، وليس من فحول الشعراء ، ولكنه كان ظريفاً ، خليعاً ، حلو العشرة ، مليح النادرة ، ماجناً ، متهماً فى دينه بالزندقة » . ولو شئنا أن نضيف إلى هذا الحكم شيئاً ، لقلنا إنه كان صادقاً فى شعره ، آخذاً بحظه الموفور من هذه الأوصاف كلها .

حماد عجرد [1]

« كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون : حماد عجرد ، وحمادُ الرواية ، وحماد بن الزبرقان ، يتنادمون على الشراب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يرمَون بالزندقة جميعاً ، وأشهرهم بها حماد عجرد . « الأغانى جزء ٥ صفحة ١٦٦ طبع بلاق » .

وتجد مثل هذا الكلام كثيراً فى كتَّاب الأغانى ، تجده إذا عرض أبو الفرج لمطيع بن إياس ، وتجده إذا عرض لغير مطيع بن إياس ، وتجد مثل هذا الكلام كثيراً فى كتب أخرى غير الأغانى ، لكتَّاب ورواة آخرين غير أبى الفرج ، إذا عرضوا لواحد من هؤلاء الشعراء العابثين ، الذين عاشوا فى النصف الأول للقرن الثانى من الهجرة ، وتجد فى الأغانى وغير الأغانى كلاماً كثيراً عن شعراء عابثين فى المدن الثلاث ، التى كانت أمصاراً متقدمة للعالم الإسلامى أيام بنى العباس ، وهى الكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن غير هذه المدن من الأمصار الإسلامية ، لا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن دمشق ، ولا عن مصر ، فإن وجدت ذكراً للزندقة والزنادقة ، وللعبث والعابثين آخر أيام بنى أمية ، فإنك واجد مع هذا أن هذه الزندقة وهذا العبث والمجون ، إنما حملت كلها من العراق إلى الشام ، بأمر الوليد بن يزيد ، أو غير الوليد بن يزيد من مجّان بنى أمية .

الزندقة إذن عراقية لأنها فارسية ، نعم ! إنك تجد فى الأغانى وغير الأغانى أن الوليد بن يزيد عبث ومَجَن ، وأراد أن يتخذ لنفسه حاشية وندامى من العابثين وأهل المجون ، فالتمسهم فى الشام ، فلم يجدهم ، وسأل عنهم ، فدله الناس على قوم فى العراق ، دلُّوه على هذين « الحمادين » حماد عجرد ، وحماد الراوية ، ودلوه على مطيع بن إياس ، وكانوا فى الكوفة ، فأرسل يطلب إشخاصهم إليه ، فأشخصوا ، فاتخذهم ندامى له ، حتى قتل فعادوا إلى

[1] نشرت بالسياسة فى ١٢ رمضان سنة ١٣٤٣ — ١٦ أبريل سنة ١٩٢٤ .

أوطانهم . وتجد فى كتب الأدب كلها أو أكثرها ذكراً لطائفة من العابثين ، وأهل المجون المسرفين فيه ، ظهروا أيام بنى أمية ، وأيام كان بنوا أمية حازمين منصرفين إلى الجد ، ظهروا فى الحجاز ، فى مكة وفى المدينة بنوع خاص ، ولكنك إذا بحثت عن مجون هؤلاء ، وعن أصل ما كانوا يظهرون من عبث ، ويتّهمون به فى دينهم وسيرتهم ، انتهيت إلى نتيجتين : نجملهما الآن ، ونفصلهما يوم نعرض للعابثين من أهل الحجاز . الأولى : أن مصدر هذا العبث عراقى ،دعا إليه الموالى الرقيق ، من الفرس وأهل العراق، والأخرى : أن لهذا العبث صبغة عربية ، تميزه من عبث الكوفة والبصرة وبغداد ، لأن زعماء العابثين فى المدينتين المقدستين كانوا من أشراف العرب ، الذين اضطرتهم الحياة السياسية أيام بنى أمية إلى أن ينصرفوا عن السياسة وأمور الدولة ، ففرغوا لأنفسهم ، وكان الله قد أفاء على آبائهم كثيراً من الغنى والثروة الضخمة أيام الفتح ، وكان الخلفاء من بنى أمية يعرفون لهم أقدارهم ، ويمسكونهم فى هاتين المدينتين ، بعيدين عن السياسة ، لا يقطعون عنهم الأرزاق والجوائز ، وإنما يدرّونها عليهم إدراراً ، فكانوا يلهون ويعبثون ، ويستمتعون بهذه الحياة الفارغة ، مستعينين مع ذلك كله بالرقيق والموالى ،من الفرس وأهل العراق .

مهما تبحث إذن عن أصل العبث والمجون والزندقة فى الإسلام ، فلن تستطيع أن تعدو الفرس ، وأهلَ العراق الذين تأثروا بالفرس ، وكانوا بهم أشد اتصالا ، وقد تجد شيئاً غير قليل من تأثير اليونان وفلسفتهم فى زندقة هؤلاء الزنادقة ، وإباحة هؤلاء الشعراء ، ولكن هذا التأثير عرضى لا جوهرى ، إن صح هذا التعبير ؛ فهؤلاء الشعراء والزنادقة كانوا يتخذون من الفلسفة اليونانية حلية ، يزينون بها شعرهم وزندقتهم ، ولكنهم لم يتعمقوا قَطُّ فى الفلسفة اليونانية ، ولم تتأثر بها حياتهم وعواطفهم تأثراً قوياً . على أن زعماء هؤلاء العابثين والزنادقة لم يبلغوا العصر الذى أزهرت فيه الفلسفة اليونانية فى بغداد وغيرها من أمصار المسلمين ؛ فلم يشهد هذا العصر مطيعٌ ولا الحمادون ولا بشار ولا يحيى بن زيد ، فإن أيام هؤلاء قبل عصر المأمون ، وقبل أن يصبح البِدْع فى بغداد ترجمة الكتب اليونانية، درس الفلسفة اليونانية . ولو

أنى أردت أن أشخّص زندقة القرن الثانى للهجرة تشخيصاً ، إن لم يكن علمياً دقيقاً فهو يقرّبها من الأذهان تقريباً لا بأس به — أقول : لو أنى أردت أن أشخص هذه الزندقة تشخيصاً أدبيًّا ، لقلت : إنها ضرب من السُّخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص ، هى ضرب من هذا السخط ، ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم ، وما ذاع فيهم من عقيدة دينية ، وأكثر هؤلاء الزنادقة والعابثين لم يكونوا يكرهون الإسلام ليستبدلوا منه ديناً آخر يؤمنون به ، ويطمئنون إليه حقًّا ، وإنما كانوا يكرهون الإسلام ، وكان كرههم للإسلام يضطرهم إلى أن يحبوا غيره من العقائد الدينية . فهم كانوا يتخذون هذه العقائد وسيلة إلى النَّعْى على الإسلام ، والتخلص من قيوده ، وما أخذ الناس به من واجبات ، لم يكونوا يؤثرون على الإسلام النصرانية ، ولا اليهودية ؛ لأن الفرس لم يكونوا نصارى ، ولم يكونوا من اليهود ، ثم لم يكونوا يؤثرون على الإسلام الديانة الفارسية القديمة ، الخالصة من بِدْع المبتدعين ، وإنما كانوا يؤثرون من هذه العقائد الفارسية ضروباً من البدع ، تدعو إلى الإباحة واللذة ، وترغب فيهما ، وتعين عليهما ، كانوا إذن يطمحون قبل كل شىء إلى أن يستمتعوا باللذات فى غير حساب ولا تقتير . ولولا هذا الميل إلى اللذة ونعيم الحياة ، لما أنكروا من الإسلام شيئاً ، ولا سيما هؤلاء الذين كانوا لا يحفلون بالسياسة ، ولا يكرهون سلطان الدولة العربية ، ولا يريدون أن يثأروا للفرس من العرب ، ولكن الإسلام كغيره من الديانات السماوية شديد فى باب اللذة ، حريص على تطهير الأخلاق ، وأخذ الناس بالطُّهر والنقاء ، فى سيرتهم الخاصة والعامة ، وهذا يناقض الإباحة والإسراف فى اللذة ، ويأخذ عليهما الطريق . فإذا استطاع محب اللذة والمسرف فيها أن يخرج عن أصول الإسلام ، فيستمتع بلذته فى غير حرج ولا جناح ، فهو مضطر بحكم الطبيعة الإنسانية إلى أن يدفع عن مسلكه ، ويلتمس الحجج والأدلة ، أو التعلات والمعاذير ، يحسن بها سيرته ، وقد فعل ذلك هؤلاء العابثون ، فوجدوا ما كانوا يحتاجون إليه فى حياة الفرس ، وما شاع فيهم من البِدَع ، واستحالوا إلى شىء

آخر أكثر من نصر اللذة ، هو التعصب على الإسلام ، وعلى كل دين من شأنه أن يأخذ الناس بشيء من القسط فى الاستمتاع باللذات ، ومن هنا هاجموا أصول الديانات ، وسخروا منها ، ومن هنا آثروا النار التى يعبدها الفرس ، ويردون إليها كل شيء ، على الطين ، الذى ترد إليه الديانات السامية أصل الإنسان والحيوان ، ومن هنا آثروا التثنية الفارسية على التوحيد السامىّ ، وهم فى حقيقة الأمر لا يحفلون بتوحيد ولا بتثنية ولا بتثليث ، وإنما يحفلون باللذات ، فهم يؤثرون التثنية لهذا أيضاً . ولهم من الحياة السياسية فى ذلك العصر معين على الإسراف فى الإلحاد والعبث ؛ فهو عصر انتصار الفرس على العرب ، وهو عصر كان الخلفاء فيه من العرب الهاشميين ، يعتزون بالفرس ، ويتملقونهم ، ويؤثرونهم بالحُظوة ، ويكلون إليهم أمور الدولة كلها ، فما الذى يمنع الفارسية وأنصارها ، الذين يتخذونها وسيلة إلى اللذة والإسراف فى المجون ، أن تنتصر وتسود ، وتظهر جهرة غير مستخفية ولا محتاطة ! من هذا كله نفهم مميزات هذه الزندقة الأدبية ، التى ظهرت فى القرن الثانى للهجرة ، واستأثرت أو كادت تستأثر بالشعراء والأدباء جميعاً . كانت عصر بنى أمية ضعيفة مترددة متسترة ، لا يكاد الناس يظهرون الميل إليها ، فلما اجترأ خليفة من خلفاء بنى أمية على أن يجهر بالفجور ، قويت واستطاعت أن تظهر ، ثم انتصر الفرس ، فانتصرت معهم ، وظهرت واضحة قوية ، حتى عرّضت الحياة الدينية والسياسية للخطر ؛ فاضطر الخلفاء من بنى العباس إلى أن يقاوموها مقاومة عنيفة ، لم تخل فى بعض الأحيان من ظلم وإسراف .

كان حماد عجرد من زعماء هؤلاء الزنادقة ، أو هؤلاء الذين كانوا يتّهمون فى دينهم ، وكانت لهؤلاء الناس أنديتهم ومجالسهم ، فى الكوفة والبصرة ، ثم فى بغداد ، ولم تكن هذه الأندية مستقرة ولا معروفة ، وإنما كانت متنقلة مع الزعماء . فهم كانوا يجتمعون فى دورهم ، وهم كانوا يجتمعون فى الأديار ، وهم كانوا يجتمعون فى البساتين والحانات ، وعلام كانوا يجتمعون ؟ على الشراب والغناء ، والعبث بالنساء والغلمان ، يسرفون فى ذلك إسرافاً لا يعدله إسراف ، ويسخرون فى أثناء هذا الإسراف من أصول الديانات والأخلاق والنظم الاجتماعية

التى تحظُر عليهم ذلك ، وتعرِّضهم من أجله لألوان العذاب ، هل كانوا يجتمعون على ضرب من ضروب العبادة المنكرة ، أو فن من فنون الديانات الغريبة ، أو لون من ألوان الدرس الفلسفى غير المألوف ؟ ذلك شىء أشك فيه بالقياس إلى الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء والأدباء ، بل أنا أجزم بأن هذه الكثرة لم تكن تحفل بشىء من هذا ؛ لأنى قد قلت لك إنها لم تكن مخلصة فى الإيمان بمذهب من المذاهب ، ولا فى إيثار دين على دين ، وإنما كانت تتخذ المانَوِية شعاراً . ولو أنها أنصفت نفسها ، وآثرت الصدق ، لاتخذت شعارها الشك والسُّخرية ، وليس من شك فى أنهم كانوا يذكرون المانوية ، ويؤثرونها على الإسلام ، ولكن تفكهةً وانتقاماً من هذا الدين ، الذى يسلط عليهم الشُّرط وغضب الأمراء .

وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون سخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتهم ، وإن كانت هذه الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة ، وكانوا يعلمون سخط الحكومة على الزندقة أيضاً ، فكانوا يستغلون هذا السخط استغلالا قويًّا ، إذا ساءت الصلة بينهم وبين أصحابهم . وليس أدل من هذا على أن هؤلاء الزنادقة لم يكونوا صادقين فى زندقتهم ؛ فلو أن هناك صلة دينية متينة ، تجمع بينهم حقًّا ، وتكوِّن منهم أقلية ممتازة متضامنة ، لما أساء بعضهم إلى بعض ، ولما سعى بعضهم ببعض ، ولما استعدى بعضهم على بعض السلطان ، ولكنهم كانوا يسرفون فى الإساءة إلى أنفسهم ، وإلى أصحابهم ، ويكفى أن تقرأ ما بين بشار وحماد من الخصومة ، واتصال الهجاء ، لتعلم مقدار هذا الاستعداء ، ومقدار ما كان يضمر الزنادقة بعضهم لبعض من الموجدة والحفيظة ، ومن الحقد والضغينة ، التى كانت تحمل أحدهم على أن يغرى بصاحبه إغراء منكراً . وانظر إلى قول حماد يغرى الأمير بخصمه بشّار ، فهو يمثل فى وقت واحد إجادة حماد فى الشعر ، وميله إلى الشر ، وإيثار الانتقام على كل شىء :

قُلْ لِعِيسَى الْأَمِيرِ عِيسَى بْنِ عَمْرٍ   ذِى الْمَسَاعِى الْعِظَامِ فِى قَحْطَانِ
وَالْبِنَاءِ الْعَالِى الَّذِى طَالَ حَتَّى   قَصُرَتْ دُونَهُ يَدَا كُلِّ بَانِى

يا بْنَ عَمْرٍ عَمْرِ الْمَكَارِمِ وَالتَّقْ ... وَى وَعَمْرِ النَّدَى وَعَمْرِ الطعَانِ

لَكَ جارٌ بِالْمِصْرِ لَمْ يجْعلِ اللـ ... ـهُ لَهُ مِنْكَ حُرْمَةَ الجيرَانِ

لَا يُصَلِّى ولَا يَصُومُ وَلَا يَقْـ ... ـرَأُ حَرْفاً مِنْ محْكَمِ الْقُرْآنِ

إنَّمَا مَعدِنُ الزُّنَاةِ مِنَ السِّفْـ ... ـلَةِ فِى بَيْتِهِ وَمَأْوَى الزَّوَانِى

وَهْوَخِدْنُ الصِّبْيَانِ وَهْوَ ابْنُ سَبْعِ ... ين فَمَاذَا يَهْوَى مِنَ الصِّبْيانِ ؟

طَهِّرِ الْمِصْرَ مِنْهُ يَأَيُّها الْمَوْ ... لَى الْمُسَمَّى بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

وتَقَرَّبْ بِذَاكَ فِيهِ إلَى اللّـ ... ـهِ تَفُزْ مِنْهُ فَوْزَ أَهْلِ الجِنَانِ

يَابْنَ بُرْدٍ اخْسَأْ إِلَيْكَ ،فَمِثْلُ الْـ ... ـكَلْبِ فِى النَّاسِ أَنْتَ لَا الْإِنْسَانِ

وَلَعَمْرِى لَأَنْتَ شَرٌّ مِنَ الْكلْـ ... ـبِ وَأَوْلَى مِنْهُ بِكُلِّ هَـوَانِ

ولم يكن بشار أقل منه ميلا إلى الشر ، ولا رغبة فى الإساءة إلى خصمه ، وفى اتخاذ الزندقة وسيلة إلى هذه الإساءة ، ولعل أحدهما قد سرق من صاحبه طريقة الاستعداء هذه ، ولعلهما لم يسرقاها ، وإنما وجداها طريقة مألوفة بين الناس فى ذلك العصر ؛ فقد أشاع بشار عن خصمه حماد هذه الشائعة المنكرة ، التى أساءت إليه غير قليل ، وهى أنه كان ذات يوم ينشد شعراً ، وإلى جانبه قارئٌ يتلو القرآن ، والناس مجتمعون من حوله ، فلما رأى حماد اجتماع الناس حول القارئ قال : علام يجتمعون ؟ إن الذى أنشده لخير مما يتلو ! وهجا بشار حماداً بأبيات يثبت فيها عليه الزندقة ، فقال :

آبْنُ نِهْيٍ رَأْسٌ عَلَىَّ ثَقِيلُ ... واحْتِمَالُ الرُّءُوسِ خَطْبٌ جلِيلُ

آدْعُ غَيْرِى إلى عِبَادَةِ الاِثْنَيْـ ... ـنِ فَإِنِّى بِوَاحِدٍ مَشْغُولُ

يابْنَ نِهْيٍ بَرِئْتُ منْكَ إلَى اللّـ ... ـهِ جِهَارًا وَذَاكَ مِنِى قلِيل

قال أبو الفرج : فأشاع حماد هذه الأبيات لبشار ، وجعل فيها مكان (فإنى بواحد مشغول) : (فإنى عن واحد مشغول) ليصحح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى ، فما زالت الأبيات تدور فى أيدى الناس ، حتى انتهت

إلى بشار ، فاضطرب منها وجزع ، وهذا الخبر يمثل مكر حماد ، واحتراس بشار ، فقد كان حماد ماكراً شديد المكر ، ماهراً فى الخصومة ، يعرف كيف ينال من خصمه ، وكيف ينتصر عليه ، وكان بشار محترساً شديد الاحتراس ، يكره أن يوصف بالزندقة ، ويشفق من ذلك إشفاقاً شديداً ، وكان يرسل فضل زندقته إلى غيره ، فيتهم الناس بما فيه ، ولهذا أكثر الإكثار كله حين هجا حماداً بوصفه بالزندقة والكفر ، وما كان حماد أكثر منه زندقة ولا كفراً ، وإنما كان الفرق بين الرجلين أن حماداً كان مستهتراً ، يجهر بمجونه ، ولا يخفى عبثه وأن بشاراً كان محتاطاً متحفظاً ، يتكلف الدين والورع ، كلما احتاج إلى ذلك ، ولم يخف أمر بشار على أحد ، بل لقى من احتياطه وتحفظه ما لم يلق حماد من جهره واستهتاره ؛ فقد قتل بشار لزندقته بأمر المهدى ، والرواة يختلفون كما سترى فى موت حماد ، ولكنهم متفقون على أنه قضى حياته موقَّراً ، لم يجرّ عليه عبثه ومجونه أذى ولا شرًّا . وفى كتاب الأغانى خبر يثبت ذلك إثباتاً لا شك فيه ، وهو أن العلماء أجمعوا بالبصرة على أنه ليس فى هجاء حماد عجرد لبشار شىء جيد إلا أربعين بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . وكل واحد منهما هتك صاحبه بالزندقة ، وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط حماد وتهتك ، بفضل بلاغة بشار ، وجودة معانيه ، وبقى بشار على حاله لم يسقط ، وعرف مذهبه فى الزندقة ، فقتل فيه . ولعل فى هذا الخبر شيئاً من المبالغة ؛ فهناك خبر آخر يدل على أن بشاراً لم ينتصر على حماد فى الهجاء ، وإنما الذى انتصر هو حماد ، وإن لم يكن له من جيد الهجاء فى بشار إلا أربعون بيتاً . فلسنا نرى فى سيرة حماد أنه قد سقط ، أو ازدراه الناس ، وإنما نعلم أنه احتفظ بمكانته وسلطانه حتى مات . ونحن نذكر السلطان عمداً ؛ فقد كان لحماد شىء من السلطان الأدنى غير قليل ، كان يخيف الشعراء ، وكان يخيف الأمراء ، وكان يخيف كبار الناس . كان يخيفهم ؛ لأنه كان ماهراً فى الهجاء ، سريعاً إليه ، حديد اللسان فيه . وكان كما قلت لك فى حديث الأربعاء الماضى سيئ الخلق ، سريع الغضب ، مندفعاً إلى الانتقام ، وكان مع ذلك ماكراً لطيف المكر ؛ فكان

الأمراء ووجوه الناس يحتاطون فى معاملته ، ويتلطفون له ، ويبتغون ما يرضيه ، ويتجنبون ما يسوءه ، وربما اضطر أحدهم إلى شيء فأشفق أن يكره حماد ؛ فاعتذر إليه ، وبالغ فى الاعتذار ، وكان حماد يقبل العذر حيناً ، ويرده حيناً آخر ، وكان هو الفائز فى كلتا الحالتين ، فإن قبل العذر كوفئ لقبوله ، وإن بولغ فى ترضيه ، ولقد خاف بعض الناس حماداً ، حتى اضطره ذلك إلى أن يقطع الصلاة ، ذلك أنه كان ذات يوم عند رجل من أشراف البصرة ، فى نفر من وجوه الناس ، وجاء الغداء ، فقيل إن سهم بن عبد الحميد (أحد الحاضرين) يصلى الضحى ، فانتظروا ، وأطال صاحبنا الصلاة ، فقال حماد :

أَلَا أَيُّهَذَا الْقَانِتُ الْمُتَهَجِّدُ ... صَلَاتُكَ للرَّحْمٰنِ أَمْ لِيَ تَسْجُدُ
أَمَا وَالَّذِى نَادَى مِنَ الطُّورِ عَبْدَهُ ... لَـمِنْ غَيْرِ مَا بِرٍّ تَقُومُ وَتَقْعُدُ
فَهَلَّا اتَّقَيْتَ اللهَ إِذْ كُنْتَ وَالِياً ... بِصَنْعَاءَ تَبْرِى مَنْ وَلِيتَ وَتَجْرُدُ
وَيَشْهَدُ لِى أَنِّى بِذَلِكَ صَادِقٌ ... حُرَيْثٌ وَيَحْيى لِى بِذلِكَ يَشْهَدُ
وَعِنْدَ أَبِى صَفْوَانَ فِيكَ شَهَادَةٌ ... وَبَكْرٍ وَبكْرٌ مُسْلِمٌ مُتَهَجِّدُ
فَإِنْ قُلْتَ زِدْنِى فى الشُّهُودِ فَإِنَّهُ ... سيَشْهَدُ لِى أَيْضاً بِذَاكَ مُحَمَّدُ

فلما سمعها سهم قطع الصلاة ، وجاء مبادراً ، فقال له : قبّحك الله يا زنديق ! فعلت بى هذا كله ، لشرهك فى تقديم أكل وتأخيره الله ! هاتوا طعامكم فأطعموه ، لا أطعمه . قالوا : ونزل حماد على محمد بن طلحة ، فأبطأ عليه بالطعام ، فاشتد جوعه ، فقال فيه حماد :

زُرْتُ امْرأً فِى بَيْتِهِ مَرَّةً ... لَهُ حِيَاءٌ وَلَهُ خِيرُ
يَكْرَهُ أَنْ يُتْخَمَ أَضْيافُهُ ... إِنَّ أَذَى التُّخْمَةِ محذُورُ
وَيَشْتَهِى أَنْ يُؤْجَرُوا عِنْدَهُ ... بِالصومِ ، والصَّالحُ مَأْجُورُ

فلما سمعها محمد قال له : عليك لعنة الله ؛ أى شيء حملك على هجائى ، وإنما انتظرت أن يفرغ لك من الطعام ؟ قال : الجوع وحياتك حملنى عليه ،

وإن زدت فى الإبطاء زدت فى القول ، فمضى مبادراً حتى جاء بالمائدة .

كان حماد إذن مخوفاً حياته كلها ، لم يسقطه هجاء بشار ، ولا تشهيره به ، بل انتصر على بشار كما قدمنا ، فإذا أردنا أن نعلل هذا الانتصار الذى ظفر به حماد ، مع أن خصمه أجود منه شعراً ، وأنفذ منه لساناً ، فعلة ذلك شيئان ، أحداهما : أن حماداً كان صادقاً ، يلائم بين قوله وعمله ، فلم يكن يتكلف ديناً ولا ورعاً ، ولم يكن يتستر من عبث أو مجون ، فكان بشارا إذا هجاه وصفه بما لا ينكر ، أما بشار فقد كان متكلفاً محتاطاً ، فكان حماد إذا هجاه أحيا فى الناس حب الاستطلاع ، ودلهم من أمره على ما يجهلون . والآخر : أن حماداً لم يكن يعنى فى هجاء بشار بالزندقة ولا بالكفر كثيراً ، وإنما كان يسلك فى هجائه طريق الشعراء الأولين ، فيهجو أمه وأباه وامرأته ، ويصف شخص بشار بما لم يكن بشار يستطيع أن يصف به شخص حماد ، قال الرواة إن بشاراً بكى حين سمع قول حماد فيه :

وَأَعْمَى يُشْبِهِ القِرْدَ إذا ما عَمِيَ القِرْدُ

فلما سئل عن بكائه قال : يرانى فيصفنى ، ولا أراه فأصفه ؛ وكان هذان الشاعران لما عظمت بينهما الخصومة قد اتفقا على رجل سار بينهما ، يروى لكل منهما ما قال صاحبه فيه ، ويحمل إليه الجواب ، ولم تكن الصحف يومئذ معروفة ؛ فكان اختيار هذا الرجل وسيلة من وسائل النشر ، لا بأس بها . وإذا سألت عن أصل هذا الهجاء ، الذى اتصل بين الرجلين أعواماً طوالا ، فمصدره يسير ، وهو أن بشاراً كانت له حاجة عند حماد ، فأبطأ فيها ، فغضب بشار ، وعاتب صاحبه عتاباً لاذعاً ، فغضب حماد ، وهجا بشاراً ، واتصل الشر بين الرجلين ؛ فكان حديث أهل البصرة ، بل كان حديث أهل العراق أيام حياتهما ، وبعد أن ماتا ، وذلك يدلك على ما قلته من أن حماداً كان سريع الغضب ، مندفعاً إلى حب الانتقام . على أن الصداقة وحسن المودة ربما وقفاه أحياناً عن الاندفاع فى الشر ؛ فقد داعب مطيعاً ذات يوم ، فرد عليه مطيع بشعر منكر ، كان من شأنه أن يغرى حماداً ، ولكن حماداً ملك نفسه ، وغفرها لمطيع ، ولم يرد عليه هجاءه ، وإنما مدحه بشعر لا بأس به ، على أن

حلم حماد كان محدوداً ؛ فهو كان يحلم إذا لم ينله أذى فى الحب أو الهوى ، فإذا ناله هذا الأذى ، فلم يكن للحلم إليه سبيل ، وقد اتصل الهجاء بينه وبين مطيع ، كما اتصل بينه وبين بشار ، لأمرين ، كلاهما حب ، أحدهما : أن مطيعاً زار معه صاحبته خشة ، فازدراه عندها ، وعيره صَلْعته ، وكانت شديدة الحمرة ، فساءت الصلة بينه وبين صاحبته ، فاتصل الهجاء بين الرجلين وانتهز أصحابهما هذه الفرصة ، فأذكوا النار ، ليضحكوا من حماد . والآخر : أن حماداً كان يهوى غلاماً ، فهويه مطيع ، وتقرب إليه ، فاغتاظ لذلك حماد ، وتهاجيا ، ولم يقف هجاء حماد عند بشار ومطيع وغيرهما من أفراد الناس الذين كان يهجوهم كلما اقتضت الأحوال ، وإنما تجاوز هؤلاء جميعاً إلى رجل من أهل الكرخ يعرف بأبى عون ، كان صديقاً لحماد ولمطيع ، وكانت له جارية تسمى جوهر ، كان حماد يحبها ، ويجَنُّ بها ، وكان يلقاها من حين إلى حين ، فتسامع الناس بذلك ، وتحدثوا فيه ، وكره سيدها هذا الحديث ، فحجبها عن حماد ، فأنكر حماد ذلك ، وهجا الرجل ، فأسرف فى هجائه وأقذع .

ولست أروى لك من هذا الهجاء شيئاً ؛ فليس إلى روايته سبيل . . .

وكان حماد ضيق الذرع لا بأصحابه ومداعبيه وحدهم ، بل بالنساك وأهل الزهد ، إذا عرضوا له وانتقصوه . ويختلف الرواة فى قصة له : وقعت مع أبى حنيفة أم مع يحيى بن زياد ؟ ومهما يكن صاحب هذه القصة فقد كان صديقاً لحماد ، ثم نسك وأخذ ينتقص حماداً ، وأخذ حماد كذلك يلاطفه ويرفق به ، لعله يقلع عن انتقاصه ؛ فلم يقبل ، فكتب إليه :

هَلْ تَذْكُرَنْ دَلَجِى إِلَيْـ ـكَ عَلَى المُضَمَّرَةِ القِلَاصِ
أيامَ تُعطـينى وتـأْ خذُ مِنْ أباريقِ الرَّصاصِ
إنْ كانَ نُسْكُكَ لا يَتِـ ـمّ بِغَير شَتمِى وانتقاصِى
أَوْ كُنْتَ لستَ بغير ذا ك تنال منزلةَ الخلاصِ
فعليك فاشْتُمْ آمِناً كلَّ الأمانِ مِنَ القِصاصِ
واقْعُدْ وقُمْ بِى ما بَدَا لكَ فى الأَدَانى والأَقاصِى

فلَطَالَمـا زَكَّيْتَنى وأنا المقيمُ على المعاصِى
أيام أنتَ إذَا ذُكِرْ تُ مُناضلٌ عنِّى مُناصِ
وأنا وأنتَ على ارْتكا بِ المُوبقاتِ من الحِراصِ

ويقول الذين يضيفون هذه القصة إلى يحيى بن زياد : إن هذا الشعر اتصل به ، فلم يزده إلا طعناً فى حماد ، ونعياً عليه ، فقال حماد فيه :

لا مُؤْمِنٌ يُعْرَفُ إيمانُهُ وليْس يحيى بالْفتَى الكافرِ
مُنافِقٌ ظاهره ناسكٌ مخالفُ البــاطِنِ للظَّاهِرِ

أما الذين يضيفون القصة إلى أبى حنيفة ، فيقولون إنه لما قرأ تلك الأبيات خاف من حماد ، فأقلع عن شتمه .

ولو أنى أحببت أن أشخص حماداً كما شخصت مطيعاً والوليد بن يزيد ، لوصفته قبل كل شىء بحدَّة الطبع ، وسوء الخلق ، وحب الانتقام ، والإسراع إليه ، ثم بالصراحة فى القول ، والملاءمة بينه وبين العمل ، وبِكرْه النفاق ، والانصراف عنه ، لا يعنيه أرَضِىَ الناس عنه ، أم سخطوا عليه ، ثم بحدة اللسان ومضيه وإقذاعه ، وكلَفه بفاحش القول ، وبحثه عن أسوئه وأقبحه ، ثم بالسُّخرية من الناس وازدرائهم ، لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلا من أصول الحياة ، كالوليد ومطيع وأبى نواس ، بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء ، يخلص بها كلما ضاقت عليه المذاهب ، وأخذَتْ عليه الطرق ، أودعتْه إلى ذلك حاجة ، لم يكن حماد يحفِل بما يحفِل به الناس من الوفاء ، والانصراف عن التناقض ، وإنما كان صديقاً مخلصاً حتّى تبدو له حاجة ، أو تسنح له فرصة ، أو تضطره ضرورة ، فإذا صداقته قد استحالت إلى عداء ، وإذا هو ليس أقل صدقاً وإخلاصاً فى العداء منه فى المودة والحب ، فقد مدح يحيى بن زياد ، واتخذه صديقاً ، ونال جوائزه ، ثم كان الخلاف فهجاه ، وصادق بشاراً وصافاه ، ثم اختصما ، فلم يعرفا فى الخصومة رحمة ولا رفقاً ، وصافى مطيعاً وأحبه ومدحه ، وأكثر فى الثناء عليه ، ثم اختصما فى امرأة مرة ، وفى غلام مرة أخرى ، فهجاه وأقذع فى هجائه ، وكان على هذا كله

يؤثر شعره وضروراته على البر بالناس ، والعدل فى معاملتهم ، هجا ذات يوم رجلا يقال له : حشيش ، وجعل اسمه قافية لهذا الشعر ، وأراد أن يبالغ فى ذمه فشبهه ببحيش ، وكان بحيش هذا رجلا من أهل البصرة ، وادعاً لا يعرف حماداً ، ولا يعرفه حماد، فلما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له ، وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفة ، فعاتب حماداً ، فقال له ضاحكاً معتذراً : لا بأس عليك ، فإن هذا من آثام القافية ، ولن أعود إليه .

لعلك تسأل بعد هذا كيف استطاع حماد ، على مجونه وفسقه واشتهاره بالزندقة ، ونيله من أعراض الناس ، ووجوه الأمصار ، أن يأمن على حياته غائلة الخلفاء والحكام ؟ والجواب عن ذلك يسير ، وهو أن حماداً كان متصلا أيام العباسيين بأمير من أمرائهم ، هو محمد بن أبى العباس السفاح ، قالوا إنه أدبه ونادمه ، فأمن لاتصاله به كل غائلة ، على أن اتصاله بمحمد هذا جر عليه خطوباً جساماً ، فقد كان محمد هذا خليعاً ، كما كان جعفر بن المنصور حامى مطيع خليعاً أيضاً ، وكان المنصور يكره محمداً ، ويؤثر عليه المهدى بالخلافة ، كما كان المنصور يزدرى ابنه جعفراً ، ويريد إقصاءه عن الخلافة ، وكان محمد هذا يعشق زينب بنت سليمان بن على ، من أشراف العلويين ، فلما ولاه عمه المنصور البصرة خطب زينب هذه ، فلم تقبل خطبته ، فزاده الرفض حبًّا لها ، وهياماً بها ، ولم يكن شاعراً ، أولم يكن يجيد الشعر ، فلجأ إلى مؤدبه ونديمه حماد ، وجعل حماد يتغزل له فى صاحبته ، وجعل حَكَمٌ الوادىّ يغنيه بغزل حماد ، وانتشر هذا الشعر ، ونسبه الناس إلى محمد حيناً ، وإلى حماد حيناً آخر ، ولكن أخا زينب محمد بن سليمان كان يعلم جلية الأمر ، فغضب على حماد وتوعده ، وحلف ليقتلنه ، وظل حماد آمنا ما عاش محمد ابن أبى العباس ، ولكن محمداً مات ، فاضطرب حماد ، وأشفق من وعيده خصمه ، ويقولون إنه لجأ إلى قبر سليمان أبى خصمه هذا ، واستجار به ، وقال شعراً كثيراً جيداً يستعطف به محمد بن سليمان ، فلم يعطف عليه ، ولم يَرْثِ له ، وإنما أقسم ليسقين بدمه قبر أبيه ، قال الرواة : فهرب حماد ، حتى وصل بغداد ، فاستجار بجعفر بن المنصور ، فأجاره على أن يهجوه محمد

ابن سليمان ، فهجاه وبالغ فى هجائه وأجاد ، فلم يزدد محمد إلا سخطاً عليه ، قالوا : وكان حماد فى الأهواز ، فأرسل إليه محمد أحد مواليه ، فقتله غيلة ، ويقال: لم يقتل ، وإنما أصابته علة طالت عليه ، ووصل نعيه إلى بشار ، ولم يكن حماد قد مات ، فقال بشار :

لَو عاشَ حماد لَهَوْنَا بِهِ لكنهُ صارَ إلى النــار

قالوا : فبلغ هذا البيت حماداً وهو عليل ، فقال :

نُبِّئْتُ بَشَّارا نَعانِى ولِلشَّ ـر برانى الخالقُ البارِى

يا ليتنى مِتُّ ولم أهجُه نعمْ ولو صِرْتُ إلى النار

وأى خِزْيٍ هو أخزَى مِن انْ يقال لِى : يا سابَّ بَشَّارِ

ثم مات حماد ، وكان من أمر بشار ما كان ، حتى قتله المهدى ، فدفن بشار مع حماد فى مكان واحد . قالوا :فمر بهما شاعر من شعراء البصرة ، كان يهاجى بشاراً ، يقال له أبو هشام الباهلى ، فوقف على قبريهما ، وقال هذه الأبيات ، التى تختصر فيهما رأى طائفة من المعاصرين :

قد تَبِع الأعمى قفا عَجْرَدِ فأصبحا جاريْنِ فى دارِ

قالتْ بقاع الأرض لا مرْحباً بقُرْب حمــاد وبَشَّارِ

تَجَاورا بعــد تجافيهما ما أبغَضَ الجار إلى الجارِ !

صارا جميعاً فى يَدْى مالك فى النارِ ، والكافرُ فى النار

حسين بن الضحاك الخليع [1]

أريد اليوم أن أحدثك عن شاعر ظريف شديد الظَّرْف ، ربما انقطع نظيره فى شعراء العصر العباسى كله ، وهو مع ظرفه وإسرافه فى المجون ، قليل الفُحش فى اللفظ ، غير متهالك على القول الآثم والألفاظ المنكَرة ، لا يتخيرها ولا يقصد إليها ، وإنما يعرض إليها إذا اضطر إليها اضطراراً ، وهو على ظرفه ورقة حاشيته ، وحرصه على نقاء اللفظ وطهره ، شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، مجوِّد إذا فكر ، مظفَّر إذا بحث ، موفق إلى اللفظ المتين ، والأسلوب الرصين ، فى غير جفوة ولا غلظة ، لا يعرف التكلف فى لفظ ولا معنى ، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته ، وسجيته سهلة مرسلة ، غنية غزيرة المادة ، لا تكاد تنضب ، ولا ينالها إعياء أو كلال . وحياته كلها عِبَرٌ وعظات ، ولكنها عبر وعظات مبتسمة ، ليست بالمظلمة ولا العابسة ، ولا بالتى تردك وتنفرك ، وتجعل للحزن والأسى إلى قلبك سبيلا . ولعلكَ لا تكاد تجد من شعراء هذا العصر رجلا مثله ، تقرأ أخباره فتظل مبتسما منذ تبتدئ إلى أن تنتهى ، دون أن تعبس أو تقطب ، وربما تجاوزت الابتسام إلى الإغراق فى الضحك من حين إلى حين ، ولكنك لن تترك الابتسامَ إلى الحزن الشديد ، وربما اعترضتك فى طريقك سحابة محزنة ، ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هينة ، فهى أضعف من أن تزيل ابتسامتك . وكان الشاعر من المعمَّرين ، بلغ المئة أو كاد ، وعاصر طبقات من الشعراء ، وألواناً من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظل محتفظاً بشخصيته الوادعة المبتسمة ، تغير الناس ، واختلفت الظروف ، وظل هو واحداً لم يتغير . كانَ خليعاً ، بل كان يُعرف بالخليع ، وكان كثير المجون ، مسرفاً فيه ، وما أحسب أن أبا نواس سبقه إلى لذة ، أو تفوق عليه فى مأثم ، ولكنه على خلاعته وإسرافه فى المجون ، وتهالكه على اللذات ، احتفظ طول حياته بشىء

---

[1] نشرت بالسياسة فى ١٩ رمضان سنة ١٣٤٢ — ٢٣ أبريل ١٩٢٤ .

من كرم الخلق ، وطهارة العنصر ، وجودة الأصل ، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تتزلق على نفسه وأخلاقه تزلقاً ، دون أن تترك فيها أثراً باقياً ، وإنما كانت الآثار التي تتركها لياليه الساهرة ، وأيامه المملوءة بالعبث ، هذه الأشعار الجميلة الحلوة ، التي سأظهرك على طرف منها .

قلت : إن حياته كانت عبرة كلها ، فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء ، الذين إنما كانوا يصلون إلى الخلفاء بعد الجهد والكد ، وبعد التلطف وحسن الحيلة ، وإنما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديداً ، يعاشرهم ويرافقهم ، ويتدخل فى حياتهم الخاصة ، وربما تدخل إلى أكثر مما ينبغى ، وكان الخلفاء يبحثون عنه ، ويحرصون على عشرته ، ويبذلون فى ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء ، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر فى أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

نشأ مع أبى نواس فى البصرة ، واختلفا معاً إلى مجالسها وملاهيها ، ثم افترقا ، فذهب أبو نواس إلى بغداد ، وأقام هو فى البصرة ، ولم تكد تمضى مدة قصيرة على أبى نواس فى بغداد ، حتى بعد صوته ، وتسامع به أهل العراق ، لأنه اتصل بالأمراء وأشراف الناس ، فارتفع قدره ، وعليت مكانته ، وحمل الهواء ذلك إلى الحسين فى البصرة ، فغبط صاحبه ، وقفا أثره ، وانتقل إلى بغداد ، فمدح الناس وتقرّب من أشرافهم ، واختلف إلى مجالس بغداد وملاهيها ، وقال الشعر فى الخمر ، وفى ضروب اللذات ، وما هى إلا أن عظم أمره ، وتسامع به أهل بغداد وزعماؤها ، ولكنه مع ذلك لم يصل إلى الرشيد ، وإنما اتصل بأبناء الرشيد ، وهل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا قليلا ؟ وهل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا كما كان يتصل به الشعراء ، الذين كانوا يقصدون إلى ذلك ، ويحتالون فيه ، حتى إذا نالتهم هذه الحظوة أنشدوا الخليفة شعرهم ، وانصرفوا وقد نالوا من جوائزه ما أتيح لهم ! ذلك أن أبا نواس والحسين ابن الضحاك لم يكونا من هؤلاء الذين يصلحون لمصاحبة الرشيد ، فقد كان فى الرشيد شىء من العبث وحب اللهو ، ولكن عبث الرشيد ولهوه لم يكونا قوام حياته ، وإنما كانا ضرباً من الترفيه على النفس ، ولم يكن أبو نواس والحسين من الذين يصلحون لغير اللهو ؛ فلم تنفق بضاعتهما عند الرشيد ،

وإنما نفقت عند الأمراء من أبنائه ، وعند الوزراء وأشباه الوزراء ، من رؤساء الدولة وأشرافها . فأما أبو نواس فاتصل بالفضل بن الربيع وبنيه ، واتصل شيئاً بالأمين ، حين كان وليّاً للعهد ، واتصل بطائفة من أمراء البيت المالك . وأما الحسين فانقطع أو كاد ينقطع لخدمة أميرين من أبناء الرشيد ، لم يكن لهما حظ من الملك ، ولا طمع فيه ، وإنما كانت حياتهما ضرباً من البطالة الاضطرارية ، وكان الله قد وفر عليهما من الثروة وأسباب اللذة ما جعل حياتهما عيداً متصلا ، وهما صالح بن الرشيد ، وأبو عيسى بن الرشيد . وكان الحسين متصلا اتصالا خاصًّا بصالح ، ينادمه ويساقيه ، ويكاد يمضى معه الليل والنهار ، ثم اتصل الحسين بالأمين ، واشتدت صلته به ، حتى تجاوزت علاقته ما بين الشعراء والخلفاء ، إلى شيء يشبه الصداقة والمودة القوية ، ولسنا ندرى إلى أى حد بلغ إخلاص الأمين لنديمه ، ولكنا نعلم أن إخلاص الحسين للأمين لم يكن له حد ، ونعلم أن أيام الأمين أظهرت من هذا الشاعر الخليع المتهالك على اللذة رجلا وفيًّا ، متين الخلق صريحاً ، يعرف كيف يكون من الأنصار السياسيين ، وكيف يتعصب لحزبه ، ويؤيد أصحابه ، ويتعرض فى سبيل ذلك للخطر ؛ كان الحسين من أشد الناس تعصباً للأمين ، وزراية على المأمون ، حين ظهر الخلاف بين الأخوين ، واندفع فى ذلك إلى غير حد ، ثم اشتدت المحنة ، ووصلت جيوش المأمون إلى بغداد ، وأخذت الحرب أشنع أشكالها ، فلم يَخفِ الحسين ولم يفزع ، ولم يكن أقل انتصاراً لصاحبه منه فى أيام اللين والنعمة . ولقد كان يتلقط أخبار هذه الحرب ، حتى إذا وصل إليه من أخبارها خبر ابتهج به ، وأسرع فحمله إلى الأمين مهنئاً مشجعاً . روى لنا أبو الفرج من شعره فى ذلك هذه الأبيات :

أَمينَ ٱللهِ ثِقْ باللَّـ ـهِ تُعْطَ العزَّ والنصْرهْ
كِلِ الأَمر إلى ٱللهِ كَلَاكَ اللهُ ذُو القدرهْ
لنا النصرُ بإذنِ الّلـ ـهِ والكَرَّةُ لَا الفَرَّهْ
وللمُـــرَّاقِ أعـــدائِـ ـك يَومُ السُّوءِ والدَّبْرَهْ
وكأْسٌ تُورِدُ المـــوْتَ كَريهٌ طعمُها مُـــرَّهْ

سَقَوْنَا وسَقَيْنَاهُمْ فكانَتْ بِهِمُ الحِرَّةْ
كذاك الحربُ أحياناً عَلَيْنَا وَلَنَا مرَّةْ

ثم قتل الأمين ، وكانت الكارثة فلم يَهن الحسين ولم يضعف ، ولم ينقلب على عقبيه ، ولم يتملق المنتصر ، وإنما ملكه حزن ليس بعده حزن ، وانطلق لسانه من الرثاء بالجيد المؤلم ، الذى تتقطع له القلوب ، وتتفطر له الأكباد ، وانطلق لسانه أيضاً بالهجاء اللاذع للمأمون وأصحابه ، واستعداء الله عليهم ، بعد أن عجز عن استعداء الناس ، ولج فى ذلك ، وألح فيه ، حتى نهض المأمون من خراسان يريد العراق ، فلم يزدد الحسين إلا هجاء للمأمون ، ورثاء للأمين ، حتى رق له أصحابه ، وأشفقوا عليه ، وألحوا فى نصحه . روى أبو الفرج أن الحسين تحدَّث عن نفسه بهذ القول « كنت عازماً على أن أرثى الأمين بلسانى كله ، وأشفى لوعتى ، فلقينى أبو العتاهية ،فقال لى : يا حسين ، أنا إليك مائل ، ولك محب ، وقد علمت مكانك من الأمين ، وإنه لحقيق بأن ترثيه ، إلا أنك قد أطلقت لسانك من التلهف عليه ، والوجع له ، بما صار هجاء لغيره ، وثلبا له ، وتحريضاً عليه ، وهذا المأمون مُنْصَبٌّ إلى العراق قد أقبل عليك ، فأبقِ على نفسك ، يا ويحك أتجسر على أن تقول :

تَرَكُوا حَرِيمَ أَبيهمُ نَفَلَا والمحصنَاتُ صوارخٌ هُتُف
هيهاتَ بعدَكَ أَن يدومَ لهُمْ عِزٌّ وأَن يبقى لهمْ شَرَفُ

أكفف غرب لسانك ، واطو ما انتشر عنك ، وتلافَ ما فرط منك ، فعلمت أنه قد نصحنى ، فجزيته الخير ، وقطعت القول ، فنجوت برأيه وما كدت أنجو »

وما أشك فى أن أبا نواس لو عاش كما عاش الحسين لأدركه من المأمون شر كثير ، فلم يكن أبو نواس أقل حباً للأمين من الحسين ، ولم يكن أبو نواس أشد بغضاً للمأمون من الحسين ، وأنت تذكر هذه الأبيات القليلة التى قالها أبو نواس يرثى بها الأمين ، فمثَّلت أحسن تمثيل حبه لهذه الدولة الراحلة ، وبغضه لهذه الدولة القائمة :

طَوَى الموتُ ما بينى وبين محمد — وليس لما تطوى المنيةُ ناشرُ

وكنت عليه أَحذَرُ الموت وَحْدَه — فلم يبق لى شىءٌ عليه أُحاذِرُ

فلا وصلَ إلا عَبْرَةٌ تستديمها — أَحاديثُ نفسٍ ما لها الدهرَ آخرُ

لئن عَمِرَتْ دورٌ بمن لا أُحِبُّهُمْ — لقد عمرَتْ ممن أُحبُّ المقابرُ

فانظر بعد هذا إلى رثاء الحسين للأمين ، ورأيه فى الدولتين ؟ وحدثنى : أتجد أبلغ من هذا الشعر فى وصف الهزيمة السياسية ، وحدثنى : أيستطيع منهزم فى السياسة ، معترف بهزيمته أن يصف موقفه بخير من هذا الكلام :

سألونا أنْ كَيفَ نحنُ ؟فقلنا : — مَنْ هَوَى نجمُه فكيف يكونُ

نحنُ قومٌ أَصابنا حَدَثُ الدَّهْ — رِ فظَلْنا لِرَيبه نَسْتكِينُ

نتمنَّى منَ الأَمين إياباً — لَهْفَ نفسى وأَيْنَ منا الأَمينُ

وانظر إلى هذه الأبيات التى تذكِّر بما رويت لك من شعر أبى نواس ؛ ولم لا يقصد الشاعران إلى معنى واحد ، وكلاهما كان محبًّا للأمين ، مؤثراً له ، وكلاهما كان عدوًّا للمأمون ، مسرفاً فى بغضه :

أُعَزِّى يا محمد عنكَ نفسى — مَعاذَ اللهِ والأَيدِى الجسامِ

فهلَّا مات قومٌ لم يموتوا — ودافع عنك لى يوم الحِمامِ

كأَنَّ الموت صادف منك غُنْماً — أو استشفى بقربك مِنْ سقَامِ

واقرأ هذين البيتين :

هَلَّا بَقِيتَ لِسَدِّ فاقَتِنا — أَبدًا وكان لغيرك التَّلَفُ

فلقد خَلَفْتَ خلائِفاً سلَفُوا — ولسوْفَ يُعْوِزُ بعدَكَ الخَلفُ

ويظهر أن هذين البيتين تركا فى نفس المأمون موجدة شديدة على الشاعر ، فقد تحدث ثُمامة بن الأشرس أن المأمون لماوصل إلى بغداد طلب أن يسمى له نفر من أهل الشعر والأدب ، يتخذهم له جلساء . فسمى له قوم ، منهم الحسين ، فذكر هذين البيتين ، وأقسم لا يراه إلا فى الطريق . قال ثُمامة وانحدر الحسين إلى البصرة ، فأقام فيها طوال أيام المأمون .

والناس يتحدثون أن الحسين ضاق بسخط المأمون عليه ، وأشفق من ذلك ، فتوسل إلى المأمون بوسائل مختلفة ، ووسط إليه نفراً من أشراف القوم منهم عمرو بن مسعدة ، ومدحه ، أو استعطفه بشعر لا أجد فيه أنا روح الحسين فلم يبلغ من المأمون إلا أن وصل له أرزاقه ، ولكنه أبى الإباء كله أن يأذن له فى الاختلاف إلى القصر . وسواء أصحت هذه الأخبار كلها أم لم تصح ، فإن فى حياة الحسين أيام المأمون ، مع ما قال فيه وفى أخيه ، آية على ما اتصف به المأمون من الحلم وسعة العفو والإغضاء عن خصومه السياسيين .
ولكن حياة الحسين أيام المأمون لم تكن من السعة واللين على ما تعوّد أيام كان ينادم الأمين ، ويصاحب صالح بن الرشيد ، فقد ضاقت به بغداد ، وأغلقت دونه أبواب الأمراء وزعماء الناس ، واضطر إلى أن يعيش فى البصرة من صلب ماله ، وأشفق عليه بعض أصحابه ، وحدثوه فى ذلك ، وسألوه كيف (تمشى حاله) مع انقطاع الأرزاق ، وكثرة النفقة ، فقص عليهم قصصاً لذيذاً ، يظهرنا على لون من ألوان الحياة الخاصة للأمين . زعم الحسين لسائله أنه يجد مشقة فى الحياة ، ولكنه مع ذلك يعيش وينفق دون أن يحتاج إلى المسألة ، وهو إنما ينفق ويعيش من صلات الأمين وجارية له لم يسمها ، ذلك أن الأمين دعاه ذات يوم ، فزعم له أنه صديقه وعشيره ، وأن عشير الرجل موضع ثقته وسره وأمنه ، وأنه محدثه بشىء يجب أن يخفيه ، وكانت للأمين جارية فتنته لجمالها وحسن غنائها ، ولكنها كانت متجنية ، كثيرة الدل ، مسرفة فيه ، فكانت تنغص على الأمين صفوه ، فضاق الأمين بذلك منها ، وأراد أن يلقى عليها درساً ، وكلّف الحسين أن يلقى هذا الدرس . زعم للحسين أنه سيدعو هذه الجارية وجارية أخرى ، لا تبلغها جمالا ولا إجادة فى الغناء ، وسيأمرهما أن تغنيا ، وطلب إلى الحسين أن يفتر ويتثاقل إذ غنّت الجميلة المحسنة ، وأن يطرب ويشرب ويظهر الجنون والهيام ويشق ثيابه ، إذا غنت الأخرى ، وأعفاه من كل حرج ، ووعده مئة ثوب لكل ثوب يشقه ، فوعد بالطاعة ، وخلا إلى الأمين ، وجاءت الجاريتان ، فغنت المحسنة ، وكان الحسين فتيًّا ، وكان رجلا صادقاً ، ولا سيما إذا شرب ، فلم يستطع أن

يفي بالوعد ، وإنما أخذ يُظهر الرضا والإعجاب ، وكلما أومأ إليه الأمين لم يزدد إلا رضاً وإعجاباً ، ثم غنت الأخرى ، فأخذ يتكلف السرور والطرب واستأنفت المحسنة غناءها ، واستأنف الحسين شرا به ، فإذا لُبُّهُ قد طار ، وإذا هو يصيح ، وإذا الأمين يشير ويقطب ، ويظهر العبوس ، ولكن الحسين عنه فى شغل بطربه ولذته ، حتى ضاق الأمين ، وأمر بالحسين فجُرَّ برجله ، ثم أمر فحجب عنه . وأخذ الناس يعطفون على الحسين ، ويرثون له ، ويسألونه عن سبب هذه النكبة ، فيقول : تحامل علىّ النبيذ ، فأسأت الأدب ، فقومنى أمير المؤمنين ؛ ومضى دون ذلك شهر ، ثم دعى الحسين إلى القصر ، وإذا الأمين يتلقاه لقاء حسناً ، ويخلو إليه فى تلك الحجرة ، ويدعو المغنية ، وينبئ الحسين أن أمر هذه الجارية قد صلح ، وأنها قد انتهت إلى ما يحب ، وأنها قد شفعت للحسين عنده ، فقبل شفاعتها ، ومنح الحسين عشرة آلاف دينار ، ومنحته هى دون هذا المقدار ثم اتصلت صلات هذه الجارية للحسين فما كان يمضى أسبوع ، حتى تنتهى إليه هداياها وألطافها ، فهو يعيش من ذلك أيام سخط المأمون عليه .

على أن أيام المأمون لم تكد تنقضى حتى ابتسم الدهر للحسين ، فعاد إلى بغداد ، واتصل بالمعتصم والواثق والمتوكل ، وكانت له عندهم جميعاً حظوة لا تعدلها حظوة ، وكان مقدماً عندهم جميعاً على غيره من الشعراء ، ولا سيما الواثق ؛ فقد كان يحبه حبًّا شديداً ، ويطمئن إلى منادمته ، ويتخذه موضعاً لسره فى حياته الخاصة ، وما كان يقع بينه وبين جواريه من ضروب المجون والمزاح ، وألوان الهجر والصُّدود . وله مع هؤلاء الخلفاء جميعاً أخبار حلوة ، تبسط فى روايتها أبو الفرج .

فأنت ترى أن هذا الشاعر قد اتصل بالأمراء من أبناء الرشيد ، ثم اتصل بالأمين والمعتصم والواثق والمتوكل من الخلفاء ، وأنت تعلم أن حياة القصر تطورت أيام هؤلاء الخلفاء ، تطوراً غير قليل ، بل إن مستقر الحكم نفسه قد تغير ، وأحاط بالمعتصم وخلفائه قوم غير الذين كانوا يحيطون بالأمين والمأمون ، وأنت تعلم أن الشعر نفسه تطور ، فكان فى القرن الثالث غيره

فى القرن الثانى ، من وجوه مختلفة ، ولكن شاعرنا قد استطاع أن يعاشر هؤلاء الخلفاء ، ويمدحهم وينشدهم من شعره الهزل والجد ، دون أن يغير من شخصيته شيئاً ، وهل كان من اليسير عليه أن يغير شخصية قوية كشخصيته !

وقد يكون من الخير وقد عرضنا لشخصية الحسين بن الضحاك أن نجتهد فى وصفها ، وأن نعطيك منها صورة ما ، لتعرف مكانه من الشعراء الذين عاصروه ، وقد سبقنا القدماء إلى هذا ، فتصوروا هذا الشاعر تصوراً مقارباً ، ولكن ينقصه شىء من الدقة ، شبهوه بأبى نواس ،أو قل خلطوا بينه وبين أبى نواس ، وأسرفوا فى هذا الخلط أحياناً ، حتى رووا لكل منهما شعر صاحبه ، وفى الحق أنك تجد فى ديوان أبى نواس شعراً هو أشبه بالحسين ، وتجد فى أخبار الحسين شعراً هو أشبه بأبى نواس ، ولم يكن القدماء من الدقة وقوة البحث بحيث يصلون إلى التفرقة بين هذين الرجلين اللذين اشتد بينهما التشابه ، حتى أصبحت التفرقة بينهما عسيرة على أشد الناس مهارة فى النقد ، وتعمقاً فى البحث الأدبى . وكان الحسين نفسه يعلم أنه يشبه أبا نواس ، وكان أبو نواس يعلم أن الحسين يشبهه ، وكانت بينهما مودة ، ولكن كان بينهما تنافس شديد أدبى ، لم ينته بهما إلى شر فيما نعلم ، وإنما انتهى بهما إلى الخصام ، وإلى التنابذ أحياناً ، دون أن يتصل بينهما الهجاء ، ودون أن يوقع أحدهما بصاحبه ، وكان الحسين لا يخلو من حمق وسرعة إلى الغضب ، وضيق الصدر ، لم يكن فيلسوفاً ، وإنما كان يلهو ويعبث فى غير فلسفة ومذهب . أما أبو نواس فقد رأينا أنه لم يكن يخلو من فلسفة ، وأن فلسفته كانت تقوم على ازدراء الناس ، والسخر منهم ، والعبث بهم ، وبما يتصل بحياتهم ، من أصول وعقائد ، ومن نظم وقواعد ، فكان يعبث بالحسين صديقه ، ويسخر منه ، ويغيظه ، لا يخفى ذلك ولا يتكلفه ، وإنما يعلنه إعلاناً ، ويعلنه إلى الحسين نفسه ، وكان الحسين يغتاظ ، ولكنه لا يجد شفاء لنفسه إلا أن يشتم أبا نواس فى وجهه أقبح الشتم ، ويتحدث إلى الناس بذلك . ولم يكن أبو نواس يستبيح العبث فى الدين والأخلاق والحياة وحدها ، بل كان يستبيح العبث فى الأدب والشعر أيضاً ،

كان يؤثر نفسه بالخير فى كل شىء ، وكان يرى أنه شاعر مجيد ؛ وإذا كان شاعراً مجيداً فهو خليق أن يسبق الشعراء جميعاً إلى آيات الشعر فى المجون ووصف الخمر ، وكان يسبقهم جميعاً إلا الحسين ، فقد كانت للحسين فى الخمر معان وألفاظ جياد ، يتمنى أبو نواس لو ظفر بها ، وسبق إليها ، ولكن الحسين كان هو الظافر السابق ، وكان ينشدها أبا نواس وغير أبى نواس ؛ فكان أبو نواس إذا سمع شيئاً من هذا فاستحسنه ، حسد الحسين عليه ، وزعم أنه أحق بهذا الشعر من الحسين ، وأن هذا الشعر لم يخلق إلا ليقوله هو ، ثم ينصرف عن الحسين ، ويعود إليه وقد أخذ معناه وصاغه فى لفظ ؛ فإذا أظهر الحسين غضباً ضحك أبو نواس ، وقال : « دع عنك هذا ! فو الله لا يُروَى لك شىء فى الخمر وأنا حى » . وربما أراح أبو نواس نفسه من عناء النقل والسرقة ، فزعم القصيدة برمتها لنفسه ، وصدّقه الناس ، وتناقلوا القصيدة على أنها له .

تحدّث الرواة من هذا بالشىء الكثير ، وهو يمثل لنا ما كان للحسين وأبى نواس من لين الخلق ، وما كان يجمع بينهما من حسن العشرة ، ومن الإخاء فى الأدب واللهو ، ولكنه يمثل لنا شيئاً آخر ، هو الذى يعنينا من وجهة البحث الأدبى ، يمثل لنا هذا التشابه الذى كان بين طبيعة الرجلين وشعريهما ، فقد كان الرجلان مسرفين فى المجون ، متهالكين على الخمر ، مشغوفين بوصفها وذكر آلاتها ، وكان مذهبهما فى ذلك واحداً أو مقارباً . ولم لا ! ألم يتأثروا جميعاً بأستاذ واحد ، هو الوليد بن يزيد ؟ ألم يعدوا جميعاً على شعر هذا الملك ، الذى ظلم فى السياسة وظلم فى الأدب أيضاً ! ثم ألم يتأثرا جميعاً بهذه الحياة البغدادية ، وهذا اللهو البغدادى ! ثم ألم يتصلا جميعاً بالأمين وقصور الأمراء والوزراء ؟ ومع ذلك فالفرق بين الرجلين ظاهر لمن أراد أن يحقق ، ظاهر فى اللفظ ، وظاهر فى المعنى ، وظاهر فى الطبع أيضاً كان أبو نواس كالحسين : ماجناً ، شارباً ، وصافاً للخمر ، محبًّا للغلمان ، ولكنه كان من جهة مستهتراً متهتكاً ، يتمدح بالاستهتار والتهتك ، ويتخذهما مذهباً وديناً ، وكان من جهة أخرى ، بحكم هذا الاستهتار والتهتك ، متسفلا

فى شعره ، لا يتكلف الإجادة إذا تحدث إلى الخلفاء والأمراء وأشراف الناس ، وكان يرسل نفسه على سجيتها إذا تحدث إلى الشعراء والأدباء وأواسط الناس ، ولكنه كان يتحدث إلى الدهماء وإلى طبقات من الرقيق وغلمان الحانات والأديار ، فكان يتبسط إذا تحدث إلى هؤلاء ، وكان كثيراً ما يقول الشعر وهو سكران ، فلم يكن يستطيع الحرص على الإجادة اللفظية ، ثم كان أبو نواس ساخراً شديد السخر ، فكان يتعمد الإساءة إلى أهل اللغة وأصحاب النحو ، فيحرف عليهم قواعدهم ، ويسخر لهم من أصولهم ، وهو مع ذلك لا يتجاوز اللغة ولا وجه الصواب فيها . أما الحسين فكان طول حياته متصلا بالأمراء والخلفاء والوزراء والكتاب ، مقصوراً عليهم ، لا يكاد ينظم الشعر إلا لهم ، أو بمحضر منهم ، فكان بمعزل عما كان يضطر إليه أبو نواس ، من التحدث إلى العامة ودهماء الناس ، وسفلة الرقيق ، وكان الحسين بحكم منزلته من القصور مضطرًّا إلى أن يصطنع هذه اللغة المختارة النقية ، التى تصلح للأرستقراطية ، فقلّ الفحش جدًّا فى شعره وغلبت المتانة والرصانة على ألفاظه وأساليبه ، وغلبت الجودة على معانيه ، ثم لم يكن الحسين يتخذ السخرية مذهباً ، ولم يكن يعنيه أن يغيظ أهل الدين ورجال الصلاح ، ولم يكن يعنيه أن يغيظ أئمة اللغة وأصحاب النحو ؛ فكان فى شعره هدوء واطمئنان ، خلا منهما شعر أبى نواس ، ولم يكن أقل من أبى نواس صدقاً ولا استرسالا مع الطبيعة والسجية ، لذلك لا نجد فى شعره هذا الاحتشام المتكلف ، الذى يصطنعه المنافقون من الفساق ، وإنما كان الرجل فاسقاً لا يجرِّد فسقه ، ولا يظهره للناس عارياً كأبى نواس ، كما أنه لم يكن يحليه ولا يزينه ، فيخلع عليه أثواب الورع والدين . وكذلك كان الحسين ، وله إلى هذا كله ميزة ربما لم يعظم منها حظ أبى نواس ، وهى مفهومة جدًّا ، كان يعاشر الأمراء والخلفاء ، وكان ينشئ لهم الشعر ، ليتغنى لهم فيه المغنون وقد أكثر من ذلك ، حتى أثر فى شعره ، وأصبح شعره كله موسيقيًّا ، وقلّ أن تجد للحسين شعراً لم يتغن فيه المغنون ، وقل أن تجد له شعراً لا يصلح للغناء ، لا بجودة لفظه ومعناه فحسب ، بل لها ولهذا التنسيق الموسيقى الذى

لا تكاد تجده عند غيره . ومن هنا آثر أو كاد يؤثر دائماً القصار من بحور الشعر ، ومن هنا اجتهد فى أن يضيف إلى هذه الأوزان الشعرية العروضية أوزاناً أخرى موسيقية . فانظر إلى هذا البيت ؛ فهو يمثل ما أريد تمثيلا صحيحاً

قد غابَ لا آبَ من يُراقبنا ونام لا قامَ سامرُ الخدَم

فانظر إلى قوله « قد غاب لا آب » وإلى قوله : « ونام لا قام » تجد إلى جودة المعنى وظهور حرص الشاعر على لذته ، هذا النغم الموسيقى ، الذى زاوج بين غاب وآب ، وبين نام وقام ، وهذا النحو من الموسيقى كثير فى شعر الحسين .

وجملة القول فى شخصية هذا الشاعر ، أنه كان كأبى نواس ، ولكنه أنقى من أبى نواس لفظاً ، وأعف منه لساناً ، وأحرص منه على اختيار المتين من الكلام ، ولم يكن يعدل أبا نواس فى خفة الروح ، وحلاوة المجون ، ولم يكن يبلغ أبا نواس فى الاستهتار والتهتك ، ولم يكن أقل من أبى نواس حرارة فى العاطفة ، وصدقاً فى اللهجة ، ولكنه كان يمتاز بشىء من الرجولة والوفاء ، لم يكن لأبى نواس منه حظ عظيم ، وكان يمتاز على أبى نواس بشىء آخر ، وهو أنه لم يكن سريع التنقل فى أهوائه ولذاته ، وإنما كان وفياً فى حبه ، كما كان وفياً فى صداقته ، وكانت قصة الحسين التى استأثرت بحياته الغرامية فى شبابه ، إن صح هذا التعبير ، هى هذا الغرام المتصل بينه وبين غلام من غلمان الأمراء ، هو « يُسْر » غلام أبى عيسى بن الرشيد . وكان « يسر » هذا جميلا خلاباً ، فُتن به صالح بن الرشيد نفسه ، وتلطف له ، واجتهد فى الحظوة عنده ، فوجد فى ذلك عناء شديداً ، ولم يظفر به إلا بعد مشقة وبذل لمقادير ضخمة من المال ، وكان هذا الغلام رسول اللهو بين الأخوين فأحبه الحسين نديم صالح ، كما أحبه صالح نفسه ، وتثاقل يسر على الحسين وازدراه ، ولكن الحسين تلطف واحتال ، وبالغ فى التلطف والحيلة ، حتى وجد من قلب الغلام مكاناً ، ولعل الذى انتهى به إلى هذا المكان من قلب يسر إنما هو شعره الجيد الكثير ، الذى قاله فيه ، ولست أريد أن أقص عليك أخباره مع يسر ، ولست أريد أن أروى لك شعره فى يسر ، فهذا كثير ، لا تسعه هذه الصحيفة ، وإنما أروى لك من هذا الشعر نموذجاً حسناً ، يمثله

تمثيلا صحيحاً، وهى هذه القصيدة التى قالها بعد ليلة لهو، كانت بينه وبين يسر .

تَيَسَّرِى لِلُّمَامِ مِنْ أَمَمِ ولا تُراعِى حمامَةَ الحرم
قد غاب لا آبَ من يراقِبنا ونامَ لا قامَ سامرُ الخَدَمِ
فاسْتَصْحِبِي مُسْعِدًا يُفاوِضُنَا إذا خَلَوْنا فى كلِّ مُكْتَتَمِ
تَبَذَّلِى بِذْلَةً تَقَرُّ بها الْـ عَيْنُ ولا تخْصَرِى وتَحْتَشِمِى
ليتَ نجومُ السماءِ راكدةٌ على دُجَى ليلنـا فلم تَرِمِ
ما لِسرُورى بالشك ممتزجٌ حتَّى كأنِّى أراهُ فى حُلُمِ
فَرِحْتُ حتى استَخَفَّنى فَرحِى وشُبْتُ عَيْنَ الْيَقِينِ بالتُّهَمِ
أَمْسَحُ عَيْنِى مُسْتَثْبِتاً نَظَرِى إخالُنِى نائماً ولَمْ أَنَمِ
سَقْياً لِلَيْلٍ أَفنيتُ مُدَّته ببارِدِ الريق طيبِ النَّسَمِ
أَبيض مُرْتَجَّـةٌ رَوادِفُهُ ما عِيبَ من فَرْقِهِ إِلَى القَدَمِ
إذْ قَصَبَاتُ العَرِيشِ تَجْمَعُنا حتى تجلَّتْ أواخرُ الظُّلَمِ
وليلةٍ بِتُّهـا محَسَّرَةٍ محفوفةٍ بالظُّنُون والتُّهَمِ
سقْياً لِقَيْطُونِها ومِخْدَعِها كَمْ من لِمَامٍ به ومن لَمَمِ
وليلةُ القُفْصِ إنْ سألتَ بِهَا كانتْ شِفَاءَ لِعِلَّة السَّقَمِ
باتَ أَنيسى صريعَ خَمْرَتِه وتِلْكَ إِحْدَى مَصارع الكرمِ
وبِتُّ عَنْ مَوْعدٍ سَبَقْتُ بِهِ أَلْثَمُ دُرًّا مُفَلَّجاً بِفَمِ
أَباحَنِى نَفسَهُ ووَسَّدَنِى يُمْنَى يَدَيْه وباتَ مُلْتَزِمى
حتى إذَا هْتَاجَتْ النَّوَاقِسُ فى سُحْرة أَحْوَى أَحَمَّ كالحُمَمِ
وقلتُ هُبَّا يا صَاحِبِيَّ ونَبِّـ ـهْتُ أَباناً فهبَّ كالزَّلَمِ
فاسْتَنُّها كالشِّهابِ ضاحِكَةً عن بارقٍ فى الإِناءِ مُبْتَسِمِ
صفـراءَ زَيْتِيَّةً مُوشَّحَةً بـأُرْجُوَانٍ مُلَمَّعٍ ضَرِمِ

أَخذتُ رَيْحانةً أَرَاحُ لَها دَبَّ سُرورِى بها دبيب دَمِى
فراجِع العُذْر إنْ بَدَا لكَ فى الْ عُذْر وَإنْ عُدْتَ لَاءماً فَلُم

فانظر إلى هـــذه القصيدة على طولها ، كيف جادت ألفاظها ومعانيها ! وانظر إلى حذر الشاعر وإشفاقه ، وانتظاره وفاء صاحبه بالوعد ، ثم شكه فى هذا الوفاء ، وهو يستمتع بلذاته لشدة حرصه عليه ، وإكباره له ! ثم انظر إليه كيف يأخذ فى تفصيل لذته متبسطاً ، وإذا هو يدنوا من الفحش قليلا قليلا ، حتى إذا لم يبق بينه وبين بلوغه إلا قيد أصبع ، انصرف عنه ، وقد ألمّ به إلماما ، وخيله إليك تخييلا ، فإذا لم يكن بد من التصريح ، ففى لفظ لا يروع التقىّ ، ولا ينبو عنه سمع الرجل الناسك . .

أترى إلى أبى نواس فى مثل هذا الموضع ؟ أكان يعفيك من تصريح بَشع ! أكان يدخل عليك بلفظ مكروه ! بلى ، لو وقف أبو نواس هذا الموقف لتعمّد الإفحاش والإساءة ؛ لأن أبا نواس لا يفكر وهو يقول مثل هذا الشعر فى الشعر وحده ، وإنما يفكر فى خصومه الذين ينكرون عليه لذته ، فيريد أن يغيظهم ويكبتهم ، فيمضى فى الفحش إلى غير حد .

وانظر إلى هذه الأبيات الأخرى التى تمثل لك رقة الحسين ولطفه فى الغزل :

لاَ وَحُبِّيكَ لا أُصا فِحُ بالدّمعِ مَدْمَعا
مَنْ بَكَى شَجْوَه اسْتَرا ح وإنْ كان مُوجعَا
كَبِدِى مِنْ هَوَاكَ أَسْـ قَمُ مِنْ أَنْ تَقَطَّعَا
لَمْ تَدَعْ سورةُ الضَّنَى فىَّ لِلسُّقْم مَوْضِعَا

وما أظن التفسير والتعليق إلا مفسدين لجمال هذا الشعر . ولشد ما أحببنا أن نسمع متغنياً يتغنى فيه ، كما تغنى فيه القدماء ببغداد ! ولقد فتن ثعلب بهذا الشعر ، حتى قال لأصحابه : ما بقى من يحسن أن يقول مثل هذا . . .

ولقد أريد أن أمثل لك شيئاً من عبث الحسين ، فهو كثير ، ولكنى متحير ، لا أدرى ماذا أختار منه . فلأكتف من هذا بهذه القصة ، التى

لا تمثل الحسين وحده ، وإنما تمثل معه أيضاً علمين من أعلام الحياة السياسية أيام الواثق . شك الناس فى رمضان ، وأمر الواثق بالإفطار ، فكتب الحسن ابن رجاء إلى الحسين .

هززتك للصَّبوح وقد نهانى　　أميرُ المؤمنين عن الصِّيامِ
وعندى من قيان المِصْر عَشْر　　تطيبُ بهنَّ عاتقــةُ المُدَام
ومِنْ أمثالهن إذا انتشينا　　ترانا نجتنِى ثَمَرَ الغَرامِ
فكنْ أنْتَ الجوابَ فليس شيءٌ　　أحبَّ إلىَّ من حَذْفِ الْكَلام

قال الحسين : فوردت علىَّ رقعته ، وقد سبقه إلىَّ محمد بن الحارث ابن بُسْخُنَّر ، ووجّه إلىّ بغلام نظيف الوجه ، ومعه ثلاثة غِلْمة أقران حسانُ الوجوه ، ومعهم رقعة قد كتبها إلىَّ كما تكتب المناشير ، وختمها فى أسفلها ، وكتب فيها يقول .

سِرْ على اسْمِ اللهِ يا أشْد　　كلَ من غُصْنِ لُجَيْن
فى ثلاثٍ من بنى الرُّو　　م إلى دار حُسَيْنِ
أشْخِصِ الكَهلَ إلى مو　　لاكَ يا قُرَّةَ عَيْنى
أرِهِ الْعُنْفَ إذَا اسْتَعْ　　صى وَطَــالِبْهُ بِدَيْنِ
وَدَعِ اللَّفْظَ وخاطبْـ　　ـهُ بغَمْزِ الحاجبين
واحذَرِ الرَّجْعَةَ مِنْ وجـ　　ـهك فى خُفَّىْ حُنَيْنِ

قال فمضيت معهم ، وكتبت إلى الحسن بن رجاء جواب رقعته :

دعوتَ إلى مُمَاحَــكَةِ الصِّيامِ　　وإعمــالِ المَلاَهِى والمُدَام
ولو سَبَقَ الرَّسُولُ لَكانَ سعيِى　　إليكَ ينوبُ عن طولِ الكلامِ
وما شوقى إليك بدون شَوْقِى　　إلَى زَمَنِ التَّصَابى والغَرَام
ولكن حل فى نفر عَسُوفٌ　　بمنشور محــلَّ المُسْتَهام
حُسَيْنٍ فاستباح له حَرِيماً　　بَطَرْفٍ باعثٍ سَبَبَ الحِمام

وأظهرَ نَخْوَةً وسطا وأبدى فَظَاظتــه بتركِ للسَّلام

وأزْعَجنى بـألفاظ غِلاظِ وقد أعطيته طرَفَىْ زِمَامِى

ولو خالفتُه لم يخش قَتْلى وقَنَّعنى سريعاً بالحُسـامِ

ولست أروى لك خبره مع الحسن بْن سهل ، ولا قصته فى أمر مُقْحِم ، ولا دهاءه فى أمر الشامى وعشيقته « بَصْبَصْ » ، فأنت تستطيع أن تقرأ هذا كله وأكثر منـــه فى الأغانى . وأحسب أنى قد أسرفت فى الإطالة ، فأختم هذه الصحيفة بهذه الأبيات ، التى قالها الحسين وقد بلغ التسعين أو كاد ، وكان قد نادم المتوكل ، ثم شقت عليه الخدمة فاعتذر ، ووشى به الناس إلى الخليفة ، فكتب إليه هذه الأبيات التى تمثل شعره وهو شيخ قد أدركه الفناء ، فلا تظهر الشعر فى هذا السن ضعفاً ولا وهناً ، كما أنها لا تظهر فيه شباباً ولا قوة :

أمــا فى ثمانين وفَّيْتُها عَذيرٌ وإن أنا لم أعتذِرْ

فكيف وقد جُزْتُها صاعِدًا مع الصاعدين بتسعٍ أُخَــرْ

وقــد رفع الله أقــلامَهُ عن ابن ثمانين دونَ البَشَرْ

سِوَى مَنْ أصَرَّ على فِتْنةٍ وألحدَ فى دينـــه أو كفرْ

وإنِّى لِمنْ أُسَرَاءِ الإلٰـ ـه فى الأرض نُصْب صُروف القدرْ

فإن يقضِ لى عَمَلاً صَالِحاً أُثابُ وإن يقْضِ شَرًّا غفرْ

فَلا تَلْحَ فى كِبَرٍ هَدَّنى فلا ذَنْبَ لى أنْ بلغتُ الكِبَرْ

هو الشيْبُ حلَّ بعقْب الشَّباب فَأَعْقَبَنى خوَرًا مِن أشَرْ

وقد بَسَط اللهُ لى عُذْرَهُ فَمنْ ذَا يَلوم إذَا ما عَذَرْ

وإنى لَفِى كَنَفٍ مُغْدِقٍ وعِزٍّ بنَصْر أبِى المنْتصِرْ

يبارى الرياح بفَضْل السَّما حِ حتَّى تَبَلَّدَ أوْ تنحسِرْ

له أكَّدَ الوحْىُ مِيراثَه ومنْ ذَا يُخالِفُ وحْىَ السُّوَرْ

ومــا لِلْحَسُود وَأشْياعِه ومنْ كَذَّب الحقَّ إلا الحجَرْ

بشار بن برد [1]

ليس وجه بشار بذلك الوجه المشرق الجذاب ، الذى يستميلك ويستهويك ، وإنما هو فيما أعتقد رجل ثقيل الظل ، له من الفن حظه الموفور ، ولكن روحه فى حاجة شديدة إلى الخفة ، ولست أدرى أتشاركنى فى هذا الرأى أم تخالفنى فيه ؛ فأنا أعتقد أن من الشعراء والكتاب من تحبهم وتُعجَب بهم ، ومنهم من تحبهم ولا تعجب بهم ، ومنهم من يظفرون بالإعجاب وحده دون الحب ، أى أنا أعتقد أن الشاعر ليس محبباً إلى النفس لأنه مجيد ليس غير ، وإنما يجب أن يجمع إلى هذه الإجادة خلالا أخرى ، تدنى منك شخصيته ، وتقارب ما بينهما وبين نفسك ، حتى تحبه وتميل إليه . ولم يرزق الله بشاراً من هذه الخلال شيئاً ، أو لم يكد يرزقه منها شيئاً ، وإنما منحه من القوة الفنية والإجادة فى الشعر حظًّا موفوراً ، ولكنه إلى التنفير أقرب منه إلى الترغيب وإيجاد العطف . وقد كان من المعقول أن تكون هذه الآفة التى ابتلى الله بها بشاراً مصدراً لحب الناس إياه وعطفهم عليه ، ورفقهم به ، لو أن بشاراً عرف كيف يتلقى هذه الآفة ، وكيف يحتملها ، وكيف يعرف مكانته منها ، ولكن من البائسين من يجعل الله البؤس مصدر النقمة منهم ، والسخط عليهم ؛ لأنهم يسيئون احتمال هذا البؤس ، أو يضعونه فى غير موضعه . فكم سخط على معدم ، وكان من حقك أن ترحمه ؛ لأنه لم يعرف كيف يكون معدماً أو فقيراً ، كذلك أصاب الله بشاراً بهذه الآفة ، فسلبه البصر ، وكان إلى ذلك نابغة فى الشعر ، يكاد ينعدم نظيره فى قوة الذكاء ، وحدة الذهن ، ولكنه أساء احتمال آفته ، كما أساء الانتفاع بذكائه وحدة ذهنه ، فأصبح بغيضاً إلى الناس ، مُذمَّماً عندهم ، ثقيلا عليهم ، حتى روى الرواة أن عامة أهل البصرة ابتهجوا لموته ، واستبشروا به ، كأن الله قد أزاح عنهم ضُرًّا .

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٦ رمضان سنة ١٣٤٢ — ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٤ .

ربما لم تعرف آداب العرب فى إسلامهم شاعرين كبشار وأبى العلاء ، وكلاهما كان قد أصيب بهذه الآفة ، فأسدلت الظلمة بينه وبين العالم وما فيه من جميل أو قبيح . ولكن الفرق بين هذين الرجلين عظيم جداً ، لا أقول من الوجهة الأدبية أو الشعرية ، فليس للمقارنة بينهما من سبيل ، وإنما أقول من هذه الوجهة التى تحبب إليك الرجل ، أو تبغضه إليك ، كلاهما كان مكفوف البصر ، وكلاهما كان سيئ الظن بالناس ، مسرفاً فى سوء الظن ، لأنه كان مكفوف البصر ، ولكن أحدهما استساع أن يحمل مصابه راضياً مطمئناً ، وأن يكون لهذا المصاب نفسه خيِّراً خفيف الظل ، جذاباً محبباً إلى النفس ، يكاد يكون كله حباً ، وهو أبو العلاء . أما الآخر فقد احتمل مصابه شر احتمال ، ماذا أقول ! بل هو لم يحتمل هذا المصاب ، وأكاد أحسب أنه لم يفترضه ، ولم يشعر بوجوده ، بل أكاد أعتقد أنه اتخذ من هذا المصاب وسيلة إلى الفخر والتمدح ، وأسرف فى ذلك إسرافاً شديداً ، فكان يحمد الله على العمى ، لأنه يحول بينه وبين رؤية الناس ، الذين كان يكرههم ويتبرم بهم تبرماً شديداً ، وليس هذا شيئاً ؛ فقد يستطيع الإنسان فهمه وتأويله ، والاعتذار عنه ، ولكن بشاراً تجاوز الحد فى ذلك ، فلم يكتف بحمد الله على العمى ، بل اتخذ العمى فخراً ، وزعم أن ذكاءه النادر ، ونبوغه الفذ ، إنما هما أثر من آثار هذه المحنة ، وقال فى ذلك كلاماً كثيراً . وكان من اليسير أيضاً أن يفهم الناس ذلك ويحتملوه ، ويجدوا وسيلة إلى الاعتذار عنه ، فليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله قوة العقل ، وشدة الذكاء ، وحدة الذهن ، ونفاذ البصيرة ، ومنحه إلى ذلك قوة الجسم ، ودقة الحس ولطفه ، ومنحه إلى هذا وذاك نفساً ثائرة مضطربة . شرهة إلى اللذة ، لا تقنع منها بالقليل ، ولا تظفر منها بحظ إلا استزادته ، وطمعت فيما هو أعظم منه ، أقول: ليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله هذا كله أن يحتمل آفة العمى ، راضياً بها ، مطمئناً إليها ، وإنما المعقول أن يحدث ذلك فى نفسه سخطاً شديداً على الحياة والأحياء ، لما يجر عليه ذلك من حرمان . . .
أضف إلى هـــذا أن حياة بشار تدلنا على أن أهل عصره لم يكونوا أرقاء ،

ولا حريصين على الرفق وحسن الأدب ، وإنما كانوا يسخرون من بشار ويعبثون به ، ويسرفون فى ذلك ، حتى يبلغوا إعناته ، ويخرجوا به عن طوره . فكان هذا كله مصدراً لما تجده فى هذا الرجل من سوء الخلق ، وشدة البغض للناس ، والموجدة عليهم ، وإضمار الشر لهم ، والإسراف فى السخرية منهم . وماذا تقول فى رجل لم يُخلص لإنسان ! وما نحسب أن إنساناً أخلص له ، وإنما كان سيئ الظن بالناس جميعاً ، منطلق اللسان فى الناس جميعاً ، يمدح ثم لا يلبث أن يهجو ، وربما مدح وهو يضمر الهجاء ، بل لعله لم يمدح إلا وهو يزدرى ممدوحه ! وكان مخلصاً إذا هجا ؛ لأنه كان يزدرى الناس ، ويسرف فى بغضهم ، وقد عظمت فى نفسه هذه الخلّة ، حتى استأثرت به ، وسيطرت عليه ، وأصبحت مقياس حياته ، وقانون ما بينه وبين الناس من معاملة ، وانتهى أمره إلى أن الناس إنما كانوا يصلونه ويمنحونه الجوائز ، لا إعجاباً به ، ولا رحمة له ، ولا عطفاً عليه ، بل إشفاقاً منه ، لأذاه . وعرف هو منهم ذلك ، فنالهم من حيث ينال الضعيف ، مدحهم ولم يكره أن يُنْذِر وهو يمدح ، وربما أعرض عن المدح ، واكتفى بالإنذار ، وربما أعرض عن المدح والإنذار جميعاً ، وسلك أقصر الطرق ، وهجا بالبيت أو البيتين ، فيشفق المهجو من المزيد ، فينزل عندما أراد . ثم انتهى به الأمر إلى أن أصبح يقيناً عنده ، فأصبح بشار من أشد الناس إيثاراً لنفسه ، يرى أن الخير يجب أن يكون موقوفاً عليه ، وأن الشر يجب أن يعدُوَه إلى غيره . ولم لا ! أليس يرى أنه أذكى الناس ، وأشعر الناس ، وأعلم الناس ! وإذن فيجب على الناس أن يؤمنوا له ، ويذعنوا لهواه ؛ فإن فعلوا فذاك ، وإلا ففى لسانه تثقيف لاعوجاجهم ، وإصلاح لما فيهم من فساد . ولهذا لم يعرف هذا العصر رجلا أطول منه لساناً ، ولا أسرع منه إلى شر ، ولا أشد منه إمعاناً فى الفحش إذا هجا ، ولا أقل منه احتفالا بالعدل أو الظلم .

وأخرى من خلال هذا الرجل ، هى أنّه أسرف فى بغض الناس وازدرائهم ، فأسرف لذلك فى إيثار نفسه عليهم ، ومن اتصف بالإيثار فقد

اتصف بالجبن ، لأن الإيثار فى حقيقة الأمر شكل من أشكال الجبن ، ولون من ألوانه ، فليس شجاعاً ذلك الرجل الذى يعجز عن أن يأخذ نفسه بما لا تحب ، وإنما الشجاع حقًّا هو من بدأ بنفسه ، فأخذها بالخير ، وحال بينها وبين الشر ، حتى إذا فرغ من نفسه عُنى بالناس ، وكان بشار من أشد الناس فى عصره جبناً وفرَقاً ، كان طويل اللسان ، سفيهاً مسرفاً فى الهجاء ، إلا أن يبدو له ما يخيفه ، فإذا بدا له ذلك فهو ذليل منكسر . وكان يخاف كل شيء ، كان يخاف السيف ، وكان يخاف السوط ، وكان يخاف اللسان ، وكان يخاف غير هذا كله ، وله فى ذلك أحاديث . زعموا أنه طلب إلى رجل مصور أن يتخذ له جاماً ، ويرسم فيه طيراً ، ففعل الرجل ، وأقبل إليه بالجام ، فوصفه له ، فلم يرض ، وقال : كان يجب أن ترسم فيه طيراً جارحاً يصيد هذه الطيور ، ولكنك عرفت أنى أعمى ، فاستخففت بى ، فلأهجونك . قال صاحبه : لا تفعل ، فأنت نادم إن فعلت ، قال : أتنذرنى ؟ قال : نعم ، قال : وبم ؟ قال : أصورك على صورتك ، وأجعل من ورائك قرداً . . . وأضع ذلك على بابى ، فقهقه بشار ، وصفـّق بيديه ، وقال : قاتله الله ! أمازحه فيأبى إلا الجد . فانظر إليه أشفق من هذه الصورة ، ولو لم ينذره بها المصور لهجاه . وزعموا أنه طلب إلى صديق له تاجر ثياباً بنسيئة ، فلم يوفق الرجل لما أراد ، فغضب بشار ، وكتب إليه بيتين من أقبح الشعر ، ولم يكن هذا الرجل شاعراً ، ولكنه اغتاظ لهذين البيتين ، فرد عليهما بشر منهما ، فانكسر بشار ، وأقسم لا يهجو مثله من سفلة الناس . قالوا : وهجا بشار رَوْح بن حاتم ، فجاءه منه النذير ، فلم يحفل ، وألح فى الهجاء ، فأقسم روح : لئن رأيته لأضربنه بالسيف ، ولو كان بين يدى الخليفة . قالوا : فلما انتهى ذلك إلى بشار نهض من فوره ، فدخل على المهدى ، وعاذ به فأعاذه ، وأرسل فى طلب روح ، فكلمه فى ذلك ؛ فأبى ، وقال : إنه أقسم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحتمل يمينى ، فأحضر المهدى الفقهاء ، ليتأولوا له مخرجاً ، فأفتوا بأن يضربه على جسمه بعرض السيف ، وكان بشار وراء ستار ، فأخرج ، واستل رَوح سيفه ، وضربه بعرضه ،

قالوا : فلما أحس بشار السيف جزع ، وصاح أوْهِ باسم الله ! فتضاحك المهدى . وأحاديث بشار فى الجبن والجزع من الهجاء كثيرة لا تحصى .

وخصلة أخرى تتميز بها شخصيته ، وهى أنه إذا كان أثراً شديد الإشفاق ؛ فقد كان مسرفاً فى النفاق أيضاً وليس يمثل إسرافه فى النفاق أكثر من مكانه من الزنادقة ، ورأيه فيهم . وسيرته معهم . كان من أشد الناس إلحاداً فى الدين ، وتهالكاً على اللذة ، وربما لم يكن كغيره من الشعراء الذين قدمنا الحديث عنهم ، يحب المجون واللذة على غير عقيدة ولا مذهب فلسفى ، وإنما كان رجلا له رأى وبصيرة : يفكر ويناظر ويحاج عن رأيه ، وكان صديقاً لواصل بن عطاء ، ونفر من أصحاب الكلام فى البصرة فكانوا يتناظرون فى الدين ، ثم افترقوا : فأما واصل فمضى فى الاعتزال وأما غيره فذهبوا مذاهب مختلفة فى الكلام ، ومنهم من ألحد ولم يخف إلحاده ، وإنما ترك البصرة فراراً من أميرها ، ومخافة أن يدل عليه أصحابه ومناظروه ، أما بشار فإنه لم يعلن شيئاً خاصًّا ، وإنما مضى فى سيرته ، يخيل للناس أنه يرى رأى الجماعة ، ويضمر الزندقة والإلحاد ، ويزدرى رأى الجماعة ، وكان الناس يعلمون منه ذلك ، وكان واصل يعلمه ، وينكره عليه ، ويهتف به ، فهجاه بشار ، وأسرف فى هجائه ، حتى سكت عنه واصل ، وكذلك كان يفعل مع كل من يخشى منه شرًّا ، ثم لم يكن يكتفى بهذا ، وإنما كان يدفع عن نفسه الزندقة بهذه الطريق يسلكها الجبناء وأنذال الناس ، فيتهم بها غيره من خصومه ، ومن أصدقائه أيضاً ، وقد مر بك فى أحاديثنا الماضية شىء من سيرته مع حماد عجرد ، فقد أسرف فى اتهامه بالزندقة . وما نشك فى أن حماداً كان من الإجادة بعيداً عن أن يبلغ حظ بشار .

كانت زندقة بشار علمية إن صح هذا التعبير ، أو قل : كان لزندقته وجهان : أحدهما علمى نظرى ، فيه ذكر لمذهبه ، ودفع عنه ، وحوار دونه ، والآخر عملى أدبى ، يشارك فيه حماداً ومطيعاً وغيرهما من المجان ، فكان بشار يدين بالرجعة ، ويكفّر الأمة كلها بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنها حادت عن طريق الدين ، فلما سئل عن علىّ رضى الله عنه تمثل بقول

عمرو بن كلثوم :

وما شرُّ الثلاثةِ أُمَّ عَمرٍ بصاحبِك الذى لا تَصْحَبِينَا

وكان يؤثر النار على الطين ، ويفضل النور على الظلمة ، فكان من هذه الناحية فارسى الزندقة ، ثم كان فى حقيقة الأمر فارسياً فى كل شىء ، كان فارسياً فى زندقته ، يقدم النار التى يعبدها الفرس ، وكان فارسياً فى أهوائه وميوله السياسية ، فلم يكن يحب العرب ، ولا يرتاح إليهم ، وإنما كان يحتملهم احتمالا ، وكان ينكر الولاء ، ويحث الموالى على أن ينكروه ، وكان يرى أن الفرس ليسوا أقل كرامة ولا شرفاً ولا حرية من العرب ، ولم يكن يكره أن ينتسب إلى آبائه من الفرس ، وربما فاخر بنسبه الفارسى ، ويقولون إنه اجترأ على ذلك بين يدى المهدى ، ويقولون إن رجلا من أشراف العرب فى البصرة أقبل عليه يعاتبه ، لأنه يفسد الموالى على العرب ، فهجاه ، واضطر الرجل إلى أن يسكت عنه .

كان بشار إذن زنديقاً ، ممعناً فى الزندقة ، وكان شعوبياً ، متشدداً فى الشعوبية ، وكان يحتمى بالنفاق أيضاً ، كما قدمنا ؛ فقد كان يمدح الخلفاء والأمراء وأشراف الناس أيام بنى أمية ، وأيام العباسيين ، يطلب منهم المال ، ويطلب منهم الجاه أيضاً ، ولكنه لم يكن مخلصاً فى شىء من ذلك ، وكان الممدوحون يعرفون منه هذا النفاق ، ويصبرون عليه ، أو يتغاضَوْن عنه ، حلماً مرة ، وعفواً مرة أخرى ، وإشفاقاً فى أكثر الأحيان .

فإذا أردت أن تتمم شخصيته من حيث هو رجل ، فينبغى أن تضيف إلى كل ما قدمنا خصلة أخرى ، وهى أنه كان شديد الوَلَع بالنساء ، مسرفاً فى التشبيب ، مفتناً فيه فنوناً لم يُسْبَق إليها ، وكأنه لم يُلْحق فيها أيضاً . كان شعره كله إغراء بالفجور ، وحثاً على الفسوق ، وإفساداً حتى لأشد النساء حرصاً على الشرف ، وأوفرهن حظاً من الإحصاء ، وقد جزع لذلك الناس فى البصرة ، فسعى إليه وعاظهم وأهل الصلاح منهم ينهونه ، وهتف به خطباؤهم، والمتكلمون فيهم ، ولكن شيئاً من ذلك لم يؤثر فيه ، ولم يردعه ، بل مضى

فى نسيبه وتشبيبه ، وفى استهتاره وتهتكه ، وأكثر نساء البصرة وفتياتها من رواية شعره ، والاستهتار به ، كما أكثرن من الاختلاف إليه ، ومجاذبته الحديث ، وكانت له معهن سيرة مرذولة ، فشكا الناس إلى المهدى ، فنهاه المهدى ، وأنذره بالموت إن لم يكف عن التشبيب ، وفى ذلك يقول :

يا منْظَرًا حسناً رأيتُه ... من وجه جاريةٍ فَدَيتُـــهْ
بعثتْ إلىَّ تســومُنى ... بُرْدَ الشباب وقد طويتُهْ
واللهِ ربِّ محمــدٍ ... ما إن غدرتُ ولا نويتُهْ
أَمسكتُ عنكِ وربَّما ... عرض البلاءُ وما ابتغيتُهْ
إنَّ الخليفةَ قد أَبى ... وإذا أَبَى شيئاً أَبيتُهْ
ومخضَّبٍ رَخْص البنا ... نِ بكى علىَّ وما بكيتُهْ
ويشُوقُنى بيت الحبيـ ... ـب إذا ادَّكَرْتُ وأين بَيْتُهْ
قام الخليفــة دونه ... فصبَرتُ عنه وما قَلَيتُهْ
ونهــانِىَ الملكُ الهما ... مُ عن النساءِ وما عصيتُهْ
لا ، بل وَفَيْتُ فلم أُضِعْ ... عهدًا ولا رأياً رأَيتُــهْ

قالوا : ووفد بشار على المهدى ، فاشترط الحاجب عليه ألا ينشد الخليفة غزلا ، فلما دخل عليه أنشده هذه الأبيات ، ثم أنشده مدحاً لا غزل فيه ، فحرمه المهدى ولم يُجزْه ، وقال الناس لبشار : إنما حرمك لأنه لم يستحسن شعرك . فقال —وهذا يمثل إعجابة بنفسه— : لقد مدحته بشعر لو قيل فى الدهر لأمن الناس صروفه ، ولكنه كذب أملى ، لأنى كذبت فى القول ، ثم قال هذه الأبيات :

خَليلىَّ إن العُسْرَ سَوفَ يُفِيقُ ... وإنَّ يَسارًا فى غَد لَخَلِيقُ
وما كُنتُ إلاَّ كالزَّمَانِ إذَا صَحَا ... صَحوْتُ وإنْ مَاقَ الزَّمَانُ أَمُوقُ
أَأَدْماءُ لاَ أَسْطِيعُ فى قِلَّةِ الثَّرى ... خُزُوزًا وَوَشْياً والْقَليلُ مَحِيقُ

خُذِى مِنْ يَدِى ماقَلَّ إنَّ زَمانَنا شَمُوسٌ ومَعْرُوف الرِّجَالِ رَقِيقُ
لقَدْ كُنْتُ لاَ أَرْضَى بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ ولاَ يَشْتَكِى بُخْلاً عَلَىَّ رَفِيقُ
خَلِيلَىَّ إنَّ الْمالَ لَيْس بِنافِعٍ إذا لَمْ يَنَلْ مِنهُ أَخٌ وَصَدِيقُ
وَكُنْتُ إذا ضاقَتْ عَلَىَّ محَلَّةٌ تَيَمَّمْتُ أُخْرَى ما عَلَىَّ تَضِيقُ
وَما خابَ بيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ عامِلٌ لَهُ فى التُّقَى أَوْ فى المحَامِدِ سُوقُ
ولاَ ضاقَ فَضْلُ اللهِ عَنْ مُتَعَفِّفٍ وَلٰكِنَّ أَخْلاَقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ

فإذا أضفت إلى هذا كله أنه كان أقبح الناس وجهاً ، وأنه كان عظيم الجسم ، ضخم الخلق ، وكان مع هذا كله يزعم أنه جميل ، وأنه خلاب للنساء ، وكان مع هذا يجرؤ على أن يقول :

إنَّ فى بُرْدَىَّ جِسْماً ناحِلا لَوْ تَوَكَّأْتِ عَلَيْهِ لَانهَدَمْ

أقول : إذا أضفت هذا إلى ما قدمنا ، تبينت صورة ليست بعيدة ولا كاذبة من هذا الرجل ، الذى لم يكن جذابا ولا خلاباً ، لا من الوجهة المعنوية ، ولا من الوجهة المادية . ومع هذا فقد كان شاعراً مجيداً ، أجمع العلماء والرواة فى عصره على أنه أشعر أهل هذا العصر ، وزعم هو لنا ذلك ، فتحدث ذات يوم أن له اثنى عشر ألف بيت من جيد الشعر ، فلما سئل عن ذلك قال : إن له اثنى عشر ألف قصيدة ، فويل له إذا لم يكن فى كل قصيدة بيت جيد . قالوا : ولم يجتمع لأحد من الشعراء مثل هذا المقدار من جيد الشعر ، وقد يكون هذا حقاً ، ولكننا فى حاجة شديدة إلى أن نظفر من هذا المقدار الضخم بجزء قليل نتخذه مقياساً لإجادة بشار ، وقد أراد سوء الحظ ألا نظفر من شعر بشار بشىء يذكر . ومهما يكن من شىء فأنا أشك فى قيمة هذا الإجماع ، الذى انعقد على تقديم بشار ، وإيثاره بالإجادة والتفوق ، وأزعم أن شيئاً من هذا الإجماع يعود إلى سفه بشار ، فقد كان بشار يخيف العلماء ويهجوهم ، هجا سيبويه ، لأنه أنكر عليه كلمات ، فاضطر سيبويه إلى أن يستشهد بشعره ، وتملقه الأخفش لشىء كهذا ، وتملقه يونس بن حبيب ،

وكان مع ذلك يكرهه كرهاً شديداً ، ويقال إنه هو الذى وشى به عند المهدى ، واتّهمه بالزندقة ، وتملقه الأصمعى من غير شك ، فقد كان بشار يهجو باهلة ، والأصمعى باهلى ، وبعض هذا الإجماع يعود إلى أن بشاراً كان إذا جدّ متين اللفظ ، رصين الأسلوب ، مؤثراً لنحو أهل البادية فى ألفاظهم وأساليبهم ، وكان لا يكره استعمال الغريب ، ولا يعيبه ، وكيف لا يحب علماء اللغة رجلا يذهب هذا المذهب . ثم يعود بعض هذا الإجماع إلى أن الناس أطبقوا على خوف بشار ، والإشفاق منه ، فكانت له مهابة لم تكن لغيره من الشعراء ، ثم تعلمت عليه طائفة من الشعراء تقدمتْ فى عصرها ، ثم أكثر من الغزل ، ورق فيه ، فأحبه الظرفاء ، وأصحاب الخلاعة ، وتغنّى فيه المغنون ، وتحدّث الرواة أن نساء البصرة كن يلجأن إليه إذا احتجن إلى شعر يُنحِّن فيه ، فهذا كله مصدر هذا الإجماع ، الذى يقدّم بشاراً على غيره من الناس .

ونحن الآن آمنون من بشار ومن هجائه ، غير متأثرين بما كان يتأثر به المعاصرون له . فنحن أقدر على أن نحكم عليه حكماً صادقاً ، لو أتيح لنا الشرط الأساسى لهذا الحكم ، وهو مقدار ضخم من شعره .

على أنى أشارك الرجل الواحد الذى استطاع فى ذلك العصر ألا يُعْجبَ بشعر بشار ، وأن يشدد النكير عليه ، وهو إسحاق الموصلى . أشاركه ، لا فى إسرافه ، فقد تعصّب على بشار ، كما تعصب غيره لبشار ، وأرى بشاراً لم يكن كما ظن القدماء ، ذلك الشاعر الذى لا يشق له غبار ، وإنما كان شاعراً كغيره من الشعراء ، له الجيد ، وله الردىء ، وربما قدمت على بشار رجلا كأبى نواس ، أوكالحسين بن الضحاك . غير أنى لو أخذت أفصل هذا الحكم ، وأستدل عليه ، لم أفرغ منه فى هذا الفصل ، فالخير أن أرجىء ذلك إلى فصل خاص ، فى الأسبوع الآتى .

شعر بشار [1]

قلت فى الحديث عن بشار إن القدماء من الأدباء والنقاد وأهل العلم باللغة مجمعون على تقديمه ، وإيثاره على غيره من الشعراء الذين عاصروه ، وخالفتهم فى هذا الرأى ، وزعمت أنهم لم يكونوا فيه مخلصين ، وإنما تأثروا بمؤثرات كثيرة أشرت إليها ، ثم قلت : إنى أرى فى بشار رأى الرجل الوحيد من القدماء ، الذى استطاع أن ينكر ما كان من تقديم بشار ، والإسراف فى إيثاره ، وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، فقد كان إسحاق فيما يظهر شديد الجحود لبشار : غالياً فى السخط عليه ، والازدراء له ، وكان من النقاد وأهل الأدب من يُحاجُّه فى ذلك ، فيظهر عليه . غير أنى لا أوافق إسحاق بن إبراهيم الموصلى فى ما اندفع إليه من غلو وإسراف ، فأنا لا أزعم أن بشاراً لم يكن شيئاً ، ولا أزعم أن الجيد فى شعره قليل ، وإنما أزعم أن بشاراً كان شاعراً موفور الحظ من الإجادة ، ولكنه لم يكن أشعر أهل عصره وكان من أهل عصره من يجب أن يتقدم عليه كأبى نواس ، وهنا أخالف إسحاق بن إبراهيم الموصلى أيضاً ، فقد كان ازدراؤه لأبى نواس أشد من ازدرائه لبشـــار ، كان لا يعتد بأبى نواس ، ولعلنا نتحدث فى يوم من الأيام عن إسحاق بن إبراهيم ، فنحاول أن نتفهم مصدر هذه الآراء الغريبة ، التى كان يراها فى بشار وأبى نواس وغيرهما من الشعراء ، ولكننا اليوم نتحدث عن بشار ، فلنحرص على ألا نتجاوزه إلى غيره .

كان إسحاق بن إبراهيم يرى أن بشاراً مختلف الشعر مضطربه ، وأن الغث فى شعره لا يعدله غث ولا ردىء ، وكان يقول إن الذى يقول هذا الشعر لا يمكن أن يكون شاعراً مجيداً ، وينشد :

إنما عَظْمُ سُلَيْمَى قَصَبٌ قَصَبُ السُّكرِ لاَ عَظْمُ الجملْ

(١) نشرت بالسياسة فى ١٧ رمضان سنة ١٣٤٢ — ١٢ أبريل ١٩٢٤ .

فَإذا أَدْنَيْتَ مِنهَا بَصَلاً غَلَبَ المِسْكُ عَلَى ريحِ البَصَلْ

وفى الحق أن فى هذا الشعر من السخف والفجاجة شيئاً كثيراً، ولكن أين الشاعر الذى يستطيع أن يبرأ من قول فجّ، ولفظ سخيف؟ ثم أليس من التحكم بل من السخف أن تزعم أن قائل هذين البيتين لا يمكن أن يجيد الشعر ، لأنه قال هذين البيتين ؟ وأنت تعلم أنه قال شعراً آخر كثيراً، منه الذى بلغ من الجودة منزلة رفيعة ! فدونك الشاعر وشعره ، فاقرأ هذا الشعر وانقده ، واحكم على جيده بالجودة ، وعلى رديئة بالرداءة، واجتهد فى أن تتبين الأسباب التى أتاحت للشاعر أن يجيد، والأسباب التى اضطرته إلى أن يسف. ولا تقل إن من قال هذا الشعر الردىء لا يستطيع أن يقول جيداً من الشعر . فلخصمك أن يجيب بأن من قال هذا الشعر الجيد لا يستطيع أن يقول رديئاً من الشعر، وإذا انتهى بكما الحوار إلى هذا الحد، فلستما منتهيين إلى خير، ولا بالغين حجة، وإنما أنتما متعصبان، قد أسرف كل منكما فى تعصبه، حتى أصبح انتظار الخير منكما عبثاً، وأصبح من الحق أن تتركا وما أنتما فيه ...

نعم ! إسراف أن تحكم على الشاعر ببيت أو بيتين ، وإسراف أن تحكم له ببيت أو بيتين ، بل إسراف أن تحكم للشاعر المكثر أو عليه ، بقصيدة أو قصيدتين أو قصائد ، بل لا ينبغى أن تسلك هذه السبيل فى النقد ؛ فهى عتيقة معوجة ، لا تنتهى إلى نتيجة صحيحة ولا مقنعة ، ولا سيما فى هذا العصر، وإنما السبيل أن تتبين روح الشاعر وشخصيته ، وتحكم عليه أوله بما تتبين منهما ، ولست أدرى أين قرأت أن رجلا من نوابغ الموسيقى الغربية أراد أن يحكم على شاب موسيقى ، فاستمع إليه وهو يُوقع ، فلما سمعه يوقع ألحاناً مختلفة ، قال : الآن عرفت صوت نفسك ، كذلك يجب أن نتبين أصوات نفوس الشعراء ، لنحكم لهم أو عليهم ، وأحسب أن صوت نفس بشار ليس بالرخيم ولا بالرقيق ، كما أنه ليس بهذا الصوت الضخم الذى لا يخلو على ضخامته من حلاوة ولين ، إنما هو صوت لاحظ له من الحلاوة ، ولعله يخيفك أكثر مما يستهويك ، ولعله ينفرك أكثر مما يرغبك ، ومهما تكن لبشار الأشعار الجياد البارعة ، فأنا لا أحبه ولا أميل إليه . والغريب أن كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحببه إلينا ولا يعطفنا عليه . فهو ثقيل ،

حتى حين يضحك ، وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحكك ويرضيك ، وهو مر فى جميع مواقفه ، يأتى بالنادرة المضحكة فتضحك ، ولكنك لا تضحك ضحكاً صريحاً ، خالياً من كل شائبة ، وإنما تضحك وأنت مستشعر شيئاً من الألم ، محس شيئاً من المرارة . ومصدر ذلك أن هذا الشاعر كان له مزاج حاد ، أبغض الناس بغضاً شديداً فأصبح إليهم بغيضاً ، وانقطعت بينه وبينهم صلة المودة والعطف ولم يبق بينه وبينهم إلا صلة الخوف والتهيب ، يستغلها هو ، ويتيحون له هم أن يسرف فى استغلالها ، ولقد تقرأ أن بشاراً عند ما ضربه المهدى الضرب الذى أماته ، لم يبقَ شريف من أشراف البصرة إلا تلطف له ، وأرسل إليه الهدايا . ثم تقرأ أنه مات وأخرجت جنازته ، فلم يتبعها من أهل البصرة أحد ، إلا جارية له سوداء ، سندية عجماء ، تصيح : واسيداه ! واسيداه ! فأين هؤلاء الأشراف الذين تلطفوا له ، واستبقوا إلى إرسال الهدايا إليه قبل أن يموت ؟ وما بالهم لم يشيعوه بعد أن مات ؟ لم يتلطفوا له حبًّا ولا عطفاً ، وإنما تلطفوا له تملقاً وإشفاقاً ، فلما أمنوا شره انصرفوا عنه ظاهراً ، كما كانت نفوسهم منصرفة عنه باطناً . غير أنى أخشى أن أتهمَ بالإسراف فى بغض بشار ، وتشويه شخصيته ، والله يعلم أنى ما أحب بشاراً ولا أكرهه ، ولا يعنينى أن تكون شخصيته جذابة أو منفرة .

أنا أخشى أن أتَّهم بالإسراف ؛ فلأجتهد فى أن أحملك على أن تشاركنى فى هذا الرأى الذى أراه ، وعلى أن تحس معى أن بشاراً كان بغيضاً ، حتى حين كان يتندر ، ويريد أن يضحك . قالوا : كان بشار بين يدى المهدى ينشده شعراً . فدخل يزيد بن منصور الحميرى خال المهدى ، وكانت فيه غفلة ، فلما فرغ بشار من إنشاده أقبل عليه يزيد ، وسأله : ما صناعته ؟ فأجابه بشار : أثقب اللؤلؤ . ولست أشك فى أن جواب بشار بديع مضحك ، مفحم أيضاً ، ولهذا لم يستطع المهدى أن يمتنع عن الضحك ؛ ولكنى لا أشك فى أن هذا الجواب قاس ، يدل على حدة المزاج ، ومرارة الطبع ، وغضب المهدى ، فشتم بشاراً ، أو قل لام بشاراً على أن تندر على خاله . فلم يكن جواب بشار على لوم المهدى أقل شدة من جوابه على سؤال يزيد ؛

إذ أجاب : وماذا أصنع به ؟ يرى رجلا أعمى بين يدى الخليفة ينشده شعراً ، فيسأله ما صناعته : . قالوا : ومر بشار بقاضى البصرة ، فسمعه يقول فى قصصه : من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً فى الجنة ، صحنه ألف فرسخ فى مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ فى مثلها ، فالتفت بشار إلى قائده وقال : بئست والله الدار هذه فى كانون الثانى ! . . . وتحدث رجل من أهل البصرة أنه خلا إلى امرأة فى علو بيت ، وبشار تحته ، أو فى أسفل البيت ، وبشار فوقه ، فنهق حمار فى الطريق ، فأجابه حمار فى الجيران ، وحمار فى الدار ، فارتجت الناحية بنهيقها ، وضرب الحمار الذى فى الدار الأرض برجله ، وجعل يدقها بها دقاً شديداً ، فسمعت بشاراً يقول للمرأة : نُفِخَ — يعلم الله — فى الصور ، وقامت القيامة ، أما تسمعين كيف يدق على أهل القبور ، حتى يخرجوا منها ! ولم يلبث أن فزعت شاة كانت فى السطح ، فقطعت حبلها ، وعدت فألقت طبقاً وغضارة إلى الدار ، فانكسرا ، وتطاير حمام ودجاج كان فى الدار لصوت الغضارة ، وبكى صبى فى الدار ، فقال بشار : صح والله الخبر ، ونشر أهل القبور من قبورهم ، أزفت — يشهد الله — الآزفة ، وزلزلت الأرض زلزالها ، فقال البصرى : فعجبت من كلامه ، وغاظنى ذلك ، فسألت : من المتكلم ؟ فقيل لى بشار ، فقلت قد علمت أنه لا يتكلم بمثل هذا غير بشار . . . ومر بشار برجل رمحته بغلة وهو يقول : الحمد لله شكراً . فقال بشار : استزده يزدك . . . ومثل هذا ما تحدثوا به من أنه حين ضُرب الضرب الذى مات له ، كان كلما أوجعه السوط قال : حَسِّ ، وهى كلمة تألم . فقال بعض الحاضرين : انظروا إليه لا يقول باسم الله ، فقال بشار : ويلك ! أثريد هو فأسمى عليه ! ثم زعموا أن قوماً مروا به يحملون جنازة وهم يسرعون المشى بها ، فقال بشار : ما لهم مسرعين ! أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا ، فيؤخذ منهم ! . . . قالوا : وتوفى له ابن ، فجزع عليه ، فقيل له : أجرٌ قدمته ، وفَرَط افترطته ، وذخر أحرزته . فقال : ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته فانتظرته ، والله لئن لم أجزع للنقص ، لا أفرح للزيادة ! . . . وتحدث ابن رَزين — وأنا

أعتذر من رواية هذا الحديث ، ولكنه يمثل بشاراً أصدق تمثيل — قال : أتينا بشاراً ، فأذن لنا والمائدة موضوعة بين يديه ، فلم يدعُنا إلى طعامه ، فلما أكل دعا بطست ، فكشف عن سوأته ، فبال ، ثم حضرت الظهر والعصر ، فلم يصل ، فدنونا منه ، فقلنا : أنت أستاذنا ، وقد رأينا منك أشياء أنكرناها ، قال : وما هي ؟ قلنا دخلنا والطعام بين يديك ، فلم تدعنا إليه ، فقال : إنما أذنت لكم أن تأكلوا ، ولو لم أرد أن تأكلوا لما أذنت لكم . قال : ثم ماذا ؟ قلنا : ودعوت بطست ونحن حضور ، فبلت ونحن نراك . فقال : أنا مكفوف ، وأنتم بصراء ، وأنتم المأمورون بغض الأبصار ، ثم قال : ومه ؟ قلنا : حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم تصل ، فقال : إن الذى يقبلها تفاريق يقبلها جملة ..

أعتقد أن هذه الأحاديث التى تمثل ابتسام بشار وتندُّره ، وما كان الله قد وهب له من ظرف وخفة روح ، لا تعطى من بشار صورة الرجل الظريف ، ولا ذى الروح الخفيف ، وإنما تعطى منه صورة قاسية ، صورة رجل قد كره الناس وازدراهم ، ولعله قد كره كل شيء وازدراه ، فهو لا يحب إلا نفسه ، ولا يعجب إلا بنفسه ، ولا يترك فرصة تتيح له السخر من الحياة والأحياء إلا انتهزها ، ولم يكن فى سخريته هيناً ولا رفيقاً ، وإنما كان غليظاً فظاً قاسياً . ثم إن هذه الأحاديث وما قدمت لك فى الفصل الماضى ، من أخبار بشار تمثله منافقاً فى سيرته ، يدارى الناس ويتقيهم ليعيش ، ثم ينذرهم ويخيفهم لينعم بعيشه ، ثم يسخر منهم متى أتيح له ذلك .

وإذن فهو أقل الناس حظاً من صدق اللهجة والعاطفة ، وإذا قرأت شعر بشار فلا ينبغى أن تبحث فيه شعوره وعواطفه ، ولا عما يحس أو يؤمل فيما بينه وبين نفسه ، وإنما ينبغى أن تبحث فيه عما يريد أن يظهر ، أو عما يريد أن يتكلف للناس من العواطف والشعور والميل ، ليس شعره شفافاً كشعر أبى نواس ، والحسين بن الضحاك ، ومطيع ، وحماد عجرد ، وإنما هو شعر كثيف صفيق ، لا يدل من نفس صاحبه على شيء ، وهو كاذب دائما ، لا يحفل بالكذب ، ويغضب حين يلفته الناس إليه . إنه كان ضخماً فاحش الضخامة ، قويًّا شديد القوة ، ثم لم يستح أن يقول :

إنَّ فى بُرْدَىَّ جِسْماً ناحِلاً لو تَوَكَّأْتِ عليهِ لانْهدمْ

هو إذن ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق حين يمدح ، ولا حين يتغزل ،

ولا حين يرثى ، ولعله إن صدق إنما يصدق فى موضوعين اثنين من شعره : يصدق حين يهجو ، لا أريد أنه يصف الناس بما فيهم ، ويضع يده على مواضع العيب من أخلاقهم وسيرتهم ، وإنما أريد أنه يصدق حين يهجو ، لأنه يصف نفسه ، ويمثل سخطه على الناس ، وما يضطره إليه هذا السخط الشديد من ألوان الإسراف والظلم ، وضروب الاعتداء . ويصدق حين يذكر نفسه وسوء مكانه من الناس ، وبنوع خاص حين يذكر حرمان الذين مدحهم إياه ، وبخلهم عليه بما كان ينتظر . هوفى هذا الموضوع من شعره صادق ، وقد يبلغ التأثير أحياناً ، وما أحسب أنك تخالفنى فى استحسان هذه الأبيات ، وصدق الشاعر فيها ، وهى التى قالها حين مدح المهدى ، وألح فى مدحه ، فحرمه المهدى ، وألح فى حرمانه :

خَلِيلَىَّ إن العُسْرَ سوف يُفيق ... وإنَّ يَسارًا فى غَدٍ لخليقُ
وما كنتُ إلا كالزَّمانِ إذاصحا ... صحوْتُ وإن ماق الزمان أَموقُ
أأدماءُ لا أَسْطِيع فى قِلَّة الثَّرى ... خُزوزًا ووشْياً والقليلُ مَحيقُ
خُذِى من يدى ما قلَّ إن زماننا ... شَموسٌ ومعروف الرجالِ رَقيقُ
لقد كنتُ لا أَرضى بأَدنى معيشةٍ ... ولا يَشْتكى بخْلاً عَلَىَّ رَفيقُ
خَلِيلَىَّ إنَّ المال ليس بنافع ... إذا لم ينل منهُ أَخٌ وصديقُ
وكنتُ إذا ضاقت علَىَّ محَلَّةٌ ... تيَمَّمْتُ أُخرى مَا عَلَىَّ تَضِيقُ
وما خابَ بينَ ٱللهِ والناسِ عاملٌ ... لهُ فى التُّقَى أَوْ فى المحامِدِ سُوقُ
ولا ضاق فضلُ الله عن متعفِّفٍ ... ولكنَّ أَخلاق الرجال تَضِيقُ

ألست تحس معى أن الشاعر صادق متأثر ، وأن تأثره هذا مؤثر أيضاً ! ولا تقل إنه يتكلف الكرم فى هذه الأبيات ، فلم يكن بشار بخيلا ، ولا محباً للبخلاء ، وإنما كان كريماً ، لا لأنه يحب الناس ، ويعطف عليهم بكرمه وجوده ، بل لأنه يزدرى المال ، كما يزدرى الناس ، وله أخبار فى الكرم لا بأس بها ، فقد كان له إخوة ليسوا بالميسورين ، فكان يبيحهم ماله ، وكانوا يسرفون فى الانتفاع بذلك ، حتى لقد كانوا يَعْدُون على ثيابه

فيلبسونها ، وكانوا يتعاطون مهناً لا ينظف صاحبها ، فكانوا يتركون فى هذه الثياب روائح لا تطيب ، وكان بشار يكره ذلك ، ويتبرم به ، ولكنه لم يزجر إخوته ، وإنما احتمل منهم ذلك . وزعموا أنه لبس فى يوم من الأيام ثوباً من هذه الثياب ، وكان أخ له قد ترك فيه رائحة لا تحب ، فأنكر بعض الناس ذلك على بشار ، فقال : إنما ذلك صـــلة الرحم ! وقد نستطيع أن نذكر من كرم بشار ما كان بينه وبين أبى الشَّمَقْمَق من صلة ؛ فقد كان بشار عوّده أن يمنحه مقداراً من المال فى كل عام ، وطمع أبو الشمقمق فى ذلك ، حتى عده ديناً ، ولعل كرم بشار على أبى الشمقمق لم يكن بريئاً ولا خالصاً لوجه الله ، فقد كان بشار جباناً كما قلنا ، وكان أبو الشمقمق سيئ الهجاء ، فكان بشار يخافه ، ويتقيه بالمال ، وله فى ذلك نوادر كثيرة . وتحدَّث بعض الناس أنه دخل على بشار ، فوجد بين يديه دنانير ، فقال له بشار : خذ منها ما شئت ، وقص عليه قصتها ، وهى أن أبياتاً من شعره أعانت شابًّا على حب ، فحمل إليه مئة دينار . لم يكن بشار بخيلا إذن ، وهو لا يتكلف الكرم فى هذه الأبيات التى قدمناها ، وهو صادق حين يشكو ، وحين يظهر أنه لا يحتمل ضيق الحياة ؛ فقد كان واسع العيش مترفاً ، منعماً فى البصرة ، وإنما كان هذا كله يأتيه من الشعر ، ومدحه به أشراف الناس ، وهجائه به أشراف الناس أيضاً ، فليس غريباً أن يسوءه حرمان المهدى إياه ، وليس غريباً أن يحزنه هذا الحرمان ، فقد كان بشار لنفسه مكبراً ، ولم يكن يهون عليه أن يصغِّره غيره مهما يكن . ويروون أن الناس قالوا لبشار حين حرمه المهدى : إنه لم يستحسن ما قلت فيه ، فأجاب : لا ! والله لقد قلت فيه كلاما لو قيل فى الدهر لأمن الناس صرفه ، ولكنه كذَّب أملى ، لأنى كذبت القول فيه ؛ فانظر إليه كيف أبى أن يفترض إلا أن يكون شعره قد أعجب المهدى : وكيف أكبر نفسه على هذا ، فازدرى المهدى ، ولام نفسه ، لأنه مدحه بما ليس فيه !

على أن صدق بشار قليل نادر كما قلنا ، وهو إن أخطأه الصدق والإخلاص فلن يخطئه الفن وحسن الصناعة ، فهو شاعر يعمل شعره ، ولا يصدر الشعر عنه عفواً ، نريد الشعر الجيد ، الذى يستحق أن يروى ويبقى ، فأما غير

ذلك ، فقد كان يصدر عن بشار فى غير تكلف ولا عناء ، وكأن فطنته كانت كهذه الأرض الرخوة ، التى امتلأت بالماء ، كأنها إسفنجة ، يكفى أن تمسها لينبجس منها الماء ، ولكن هذا الماء لم يكن عذباً فى كل وقت ، فقد كان لا يخلو من مرارة وفجاجة ، وربما لم يخل من نَتن أيضاً ، ومن هنا كثر شعر بشار كثرة فاحشة ، حتى استطاع بشار نفسه أن يزعم أن شعره الجيد لا يقل عن اثنى عشر ألف بيت ، وأنه غير مسرف فى ذلك ، لأن له اثنى عشر ألف قصيدة ، فيجب أن يكون فى كل قصيدة بيت جيد . وقد حدثنى قوم أن ديوان بشار موجود الآن فى تونس ، أو فى بلد غير تونس ، وأن من الأدباء من يعمل لنشره[1] ، فإذ كان هذا الخبر صحيحاً فسنستطيع أن ندرس بشاراً ونحكم عليه من كثب ، وأنا لهذا أحتفظ بحكمى عليه ، وأستبيح لنفسى تغيير رأيى فيه ، إذا ظهر هذا الديوان ، وإن كنت أستبعد كل الاستبعاد أن يضطرنى ديوان بشار إلى أن أغير رأيى فى بشار وشعره . فليس بين يدى من شعره مقدار عظيم ، ولكن هذا المقدار القليل الذى أدرسه وأنقده ، يكفينى لأتمثله ، وأحكم عليه ، وسنرى يوم يظهر الديوان : أمخطئ أنا أم مصيب .

بين يدى غزل لبشار ليس بالكثير ، ولكنه ليس بالقليل أيضاً ، وهو سواء أكان قليلا أم كثيراً ، لا يمثل عاطفة ولا شعوراً صادقاً ، وإنما يمثل أمرين اثنين : يمثل تهالكاً على اللذة ، وإفحاشاً فى هذا التهالك ، وافتناناً فيه أيضاً ، دون أن يراقب الشاعر فى ذلك خلقاً أو أدباً أو ديناً ، ويكفى أن تعلم أن علماء البصرة من أهل الدين والوعظ والكلام ، ومن بينهم واصل ابن عطاء والحسن البصرى ومالك بن دينار جميعاً ، قد هتفوا به ، وشكوه بعد أن وعظوه ونصحوا له ؛ ويمثل رغبة فى الفساد وإذاعة السوء ، فلم يكن بشار يكتفى بأن يكون من أصحاب اللذة المتهالكين عليها ، ولهذا كان يتخير إذا تغزل أيسر الألفاظ والأساليب ، وأدناها وأشدها شيوعاً فى النساء وفتيات الهوى ، كأنه كان يريد أن يفهمه النساء والفتيات ، وأن يتأثرن به ، والغريب أنك لا تجد بشاراً يسف فى اللفظ إذا مدح أو تعرض لفن من فنون الشعر ،

(١) يطبع الآن فى القاهرة وقد طبع منه الجزء الأول .

إلا الغزل والهجاء ، وهذا واضح ، فهو إذا تغزل أراد أن يفهمه النساء ، وأن يكون شعره ذائعاً ، يتناقله الشبان وأهل الخلاعة ، وهو إذا هجا فقد كان يريد أن يؤذى من يهجو ، وإنما يؤذيه إذا كان فاحشاً مقذعاً ، وكان مع ذلك سهلا يمكن فهمه وروايته . ولست أشك فى أن المهدى لم يكن جائراً ولا مسرفاً حين نهى بشاراً عن الغزل ، وحين أنذره بالموت إن عاد إليه ، ويكفى أن أروى لك هذه القصيدة التى غضب لها المهدى ، لتعلم أن غزل بشار لم يكن من الجودة والطهر بحيث يؤسف عليه :

قد لامنِى فى خَليلتى عُمَرُ ... واللوم فى غير كُنْهه ضَجَرُ
قالَ : أفق ، قلت لا،فقال:بلى ... قد شاع فى الناس منكما الخبَرُ
قلت : وإذْ شاع ما اعتذارُكَ مِمَّ ... ا ليس لى فيه عندَهم عُذُرُ
ماذا عليهم ! وما لهم خَرِسوا ... لو أنهم فى عيوبهم نظروا
أَعْشَقُ وحدِى ويؤخذون بهِ ... كالتُّرْكِ تغزو فتؤخذُ الخَزَرُ
يَا عَجَبا للخلاف يَا عَجَبَا ... بِفِى الَّذِى لام فى الْهَوَى الحَجَرُ
حَسْبِى وحَسْبُ الذِى كَلِفتُ به ... منى ومنهُ الحَديثُ والنَّظَرُ
أو قبلةٌ فى خِلال ذاك وما ... بـأس إذا . . . .
أو عَضَّة فى ذِراعها ولهـا ... فوق ذِراعى من عضِّها أثَرُ
أَوْ لَمسةٌ دُون مِرْطِها بيدى ... والْبابُ قد حال دُونه السُّتُرُ
والسَّاقُ بَرَّاقـة مُخَلْخَلُها ... أَوْ مص ريق وقد علا البُهُرُ
واسترختِ الكف للعرَاك وقا ... لت : إيهِ عَنى والدَّمْعُ مُنْحَدِرُ
انْهَضْ : فما أَنتَ كالذى زعموا ... أَنتَ وربى مُغازِلٌ أَشِرُ
قد غابَت اليوم عَنْك حاضِنَتِى ... واللهُ لى منك فِيكَ يَنْتَصِرُ
يَا رَبِّ خُذ لِى فقد ترى ضرَعِى ... مِنْ فاسق جاءَ ما به سُكُرُ
أَهْوَى إِلَى مِعْضَدِى فَرَضَّضَهُ ... ذُو قُوَّةٍ ما يطاق مُقْتَدِرُ

أَلَصَق بِى لِحْيَةً له خَشُنَتْ   ذَاتَ سوادٍ كأَنَّها الإِبَرَ
أُقْسِمُ باللهِ لا نَجوتَ بها   فاذْهَبْ فَأَنْتَ المُسَاوِرُ الظَّفِرُ
كيفَ بأُمِّى إذا رأَت شفَتِى   أَم كيفَ إن شاع منكَ ذَا الْخَبَرُ
قد كنتُ أَخشى الذى ابتليتُ به   منك ، فماذا أَقول يَا عِبرُ
قلتُ لها عند ذاكَ : يَا سَكَنِى   لا بأس ، إنى مجرِّبٌ خَبِرُ
قولى لها : بَقَّةٌ لها ظُفُرٌ   إنْ كانَ فى البَقِّ ما لهُ ظُفُرُ

روى شىء من هذه القصيدة لمطيع ، ولكن هذا من خطأ الرواة ، وأنت تقرأ هذه القصيدة ، فإذا أولها جيد متين مستقيم ، لا نكير فيه ، ولكن الشاعر لا يكاد يبدأ هذه القصيدة الخليعة ، حتى يفحش ، لا فى اللفظ ، فليس فى اللفظ فحش كثير ، بل فى المعنى ، فالمعنى كله فحش . ولست أريد أن ألفتك إلا إلى بيتين اثنين من هذه القصيدة ، أحدهما يبين مهارة بشار فى محاكاة النساء ، أو نوع من النساء حين يتفجعن فى تهالك ولذة ، وهى قوله :

قدْ كُنْتُ أَخْشَى الَّذِى ابْتُلِيتُ بِهِ   مِنْكَ فَماذَا أَقُولُ يا عبر

وانظر إلى قوله (يا عبر) . والآخر يمثل النفس الفاتكة الشيطانية التى تعبث بالناس ، وتسخر منهم فى عنف وقسوة ، وأنا أعتقد أن نفس بشار وخلقه وقلبه ، كل هذا مختصر فى هذا البيت .

قُولِى لها بَقَّـــة لَها ظُفُرٌ   إن كانَ فى البقِّ ماله ظُفُـــر

ولست أروى لك غير هذه القصيدة من خلاعة بشار ، فهى تكفى ، وأظن أنها تقوم عذراً للمهدى فى نهيه بشاراً عن ذكر النساء ، وللوعاظ وللعلماء فى سعيهم ببشار إلى السلطان ، ولا سيما أن أمر بشار لم يكن قد وقف عند قول هذا الكلام الفاحش وإذاعته ، وإنما كان النساء يترددن إليه ويشاركنه فى اللهو ، وكان هو يطلب إليهن المواعيد ، فمنهن من كانت تسايره صادقة وفية ، ومنهن من كانت تعبث به عبثاً منكراً ، وأخبار ذلك فى الأغانى كثيرة ، وهى لا تشرف بشاراً ، ولا تدل على أنه كان يكرم نفسه ، ويتأدب بالآداب

التى كانت تفرضها عليه آفته ، وأقلها الحياء والوقار ، ولكنه كان فاجراً مفطوراً على الفجور .

هل أحب بشار حبًّا صادقاً ؟ هذا سؤال أحاول أن ألتمس الجواب عليه فى شعر بشار ، فلا أجد إلى ذلك سبيلا ، فقد قلت لك إن شعره كثيف صفيق ، لا يدل على عاطفة ، وإن الكذب فيه كثير ، والتكلف فيه لا حد له ، أريد تكلف المعانى ، وأنا أعلم أن بشاراً مشغوف بعبدة ، وقال فيها شعراً كثيراً جدًّا ، تغنى فيه المغنون ، وأعلم أن عبدة ، مالت إليه ، وكان بينها وبينه مودة ، ولكنى أقرأ ما بقى لنا من شعر بشار فى عبدة فلا أجد فيه شيئاً يمثّل الحب الصادق القوى حقًّا ، وقد أقرأ هذه الأبيات فأعجب ، بها وأتأثر لها وأحسب الشاعر صادقاً ، ولكنى لا ألبث أن أضحك ، لأنى أعلم أن الشاعر كاذب ، وأن صاحبته تعلم منه هذا الكذب ، وما أشك فى أنها كانت تضحك منه أيضاً ، وتقبله لجودته الفنية ليس غير ، وهذه الأبيات مشهورة يحفظها الناس جميعاً لبشار وهى :

لَم يَطُلْ لَيْلِي ولٰكِنْ لمْ أَنَمْ ... ونَفَى عَنِّى الْكَرَى طَيْفٌ أَلَمْ

رَفِّهِى يَا عَبْدَ عَنِّى واعْلَمِى ... أَنَّنِى يَا عَبْدَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمْ

إنَّ فى بُرْدَىَّ جِسْماً ناحِلاً ... لَوْ تَوَكَّأْتِ عَلَيْهِ لانْهَدَمْ

وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودِى لَنَا ... خَرجتْ بِالصَّمْتِ عَنْ لا ونَعَمْ

ولولا هذا البيت الثالث وما نعلم من ضخامة بشار ، لخدعنا الرجلُ عن نفسه ، فصدّقناه ، وخيل إلينا أنه كان لحب عبدة لا ينام ، ولكن من يدرينا أنه لم يكن ينام أهدأ النوم وألذه ، ثم يزعم السهر والأرق ، كما كان يزعم النحافة والنحول !

وله أبيات زعموا أن الوليد بن يزيد بكى لها ، وهى لا تخلو من جودة ، وأنا أرويها ، لأن قصتها لا تخلو من عجب :

أَيُّها السَّاقِيَانِ صُبَّــا شَرَابِى ... وَاسْقِيانِى مِنْ رِيق بَيْضَاءَ رُودِ

إنَّ دَائِى الظَّمَا وَإِنَّ دَوَائِى ... شَرْبَةٌ منْ رُضَابِ ثغْرٍ بَرُودِ

وَلَهَا مَضْحَكٌ كَغُرِّ الأَقَاحِي ... وَحَدِيثٌ كالْوَشْيِ وَشْيِ الْبُرُودِ
نزلَتْ فى السواد من حبَّة القلْـ ... ـب ، ونالت زيادة المستزيدِ
ثم قالت : نلقاك بعد ليالٍ ... والليالى يُبْلِينَ كلَّ جديدِ
عندها الصبرُ عن لقائى ، وعندى ... زَفَرَاتٌ يأْكلن قلْبَ الحَدِيدِ

قالوا : فطرب الوليد وقال : من لى بمزاج كأسى هذه من ريق سلمى ، فيروى ظمئى ، وتطفأ غُلَّتى . ثم بكى حتى مزج كأسه بدمه ، وقال : إن فاتنا ذاك فهذا ..

فى هذا الشعر متانة وجودة ورقة ، ولكنى لا أحب أوله ، وربما استسخفته ، ولست أدرى كيف يستطيع الساقيان أن يسقيا بشاراً من ريق صاحبته ! . . . وأحسب أن هـذه ليست صناعة السقاة . وإذا كانت هـذه القصة صحيحة ، فهى إنما تمثل رقة هذا الشاعر ، الذى أحبُّه وأعطف عليه ، وهو الوليد بن يزيد ، الذى فاته ريق سلمى ، فمزج كأسه بالدمع ، يسفحه البكاء عليها .

ولنترك غزل بشار ، وننتقل إلى شىء آخر من فنون شعره ، ولكن فى إيجاز فقد أطلنا .

لبشار قصيدتان اشتهرتا بين الرواة اشتهاراً عظيما ، إحداهما ميمية ، قدمها أبو عبيدة على ميميات جرير والفرزدق ، وفتن بها الأصمعى ، وتناقلها أهل بغداد ، وأعجبوا بها إعجاباً عظيماً ، ولهذه القصيدة قصة ، تمثل لنا نفس بشار أيضاً ، قالها لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن يمدحه بها ، ويحرضه فيها على المنصور ، ويهجو فيها المنصور . فلما قمعت ثورة إبراهيم وقتل ، خاف بشار ، فحول القصيدة ، كأنه لم يمدح بها إبراهيم ، ولم يهج بها المنصور ، وكأنه هجا بها أبا مسلم الخرسانى ، فوضع أبا مسلم موضع أبى جعفر ، وحذف من أبيات القصيدة ما لم يكن سبيل إلى تحويله ، وهى :

أَبا جَعفرٍ ما طولُ عيش بدائمٍ ... ولا سالمٌ عما قليل بسالمِ
على الملك الجبَّار يَقْتَحِمُ الرَّدَى ... ويَصْرَعُه فى المأْزق المُتَلاحِمِ

كأنَّكَ لم تسمعْ بقتلِ مُتَــوَّجٍ عظيمٍ ، ولم تسمع بفَتْك الأعاجِمِ
تَقَسَّمَ كِسْرَى رَهْطُهُ بِسُيُوفِهِمْ وأَمسَى أبو العبَّاسِ أَحْلَامَ نائمِ
وقد كان لا يَخْشَى انقلابَ مَكِيدَةٍ عليه ، ولا جَرْى النحوسِ الأشائمِ
مُقِيماً عَلَى اللذَّاتِ حتى بَدَتْ له وجوهُ المنايا حاسراتِ العمائمِ
وقد تَرِدُ الأيَّامُ غُــرًّا وربَّمَا وردن كُلُوحاً باديات الشكائمِ
ومروانُ قد دارت على رأْسه الرَّحَى وكان لِما أجرمْتَ نزرَ الجرائمِ
فَأَصْبَحْتَ تجرى سادِرًا فى طريقهم ولا تَتَّقِى أَشْبَاهَ تلكَ النقــائمِ
تجرَّدْتَ للإسلامِ تعفو سبيلَه وتُعرى مَطَاه للُّيوث الضَّرَاغِمِ
فما زِلْتَ حتَّى استنصَرَ الدِّينُ أهلَهُ عليكَ فعاذُوا بالسيوفِ الصوارمِ
فرُمْ وَزَرًا يُنْجِيكَ يا بْنَ سَلامَةٍ فلستَ بناجٍ من مَضِيمٍ وضَائِمِ
لَحَى اللهُ قوماً رَأَّسوكَ عليهم ومَا زِلتَ مرءوساً خبيثَ المطاعِمِ
أَقُومُ لبسّام عليــه جَلَالَةٌ غَدا أَرْيحيًّا عاشقاً للمكارمِ
من الفاطِمِيِّين الدُّعاة إلَى الهدى جِهارًا ومن يهديك مثلُ ابن فاطمِ
سِرَاجٌ لعَينِ المستضىء وتارةً يكونُ ظلاماً للعدوّ المُزَاحِمِ
إذا بلغَ الرأْىُ المشورةَ فاستعِنْ برأْىِ نصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ
ولا تجعل الشُّورَى عليك غَضَاضَةً فريشُ الخَوافِى قُوَّةٌ للقوادِمِ
وما خيرُ كفٍّ أَمسك الغُلُّ أُختَهــا وما خيرُ سيفٍ لم يؤيَّدْ بقــائِمِ
وخَلِّ الْهُوَيْنَى للضعيفِ ولا تكُنْ نَؤُوماً فإنَّ الحَزمَ ليس بنائمِ
وحاربْ إذا لم تُعْطَ إلَّا ظُلَامَةً شَبَا الْحَرْب خيرٌ من قَبُول المظالِمِ

القصيدة جيدة ، ولعلها من أجود ما قال بشار ، وهو صادق العاطفة فيها ، والناس صادقون حين استحسنوها ؛ هو صادق لأنه كان يكره بنى العباس كرهاً شديداً ، ويؤثر بنى علىٍّ إيثاراً شديداً ، ولم يكن يكره

بنى أمية ، ولعله آسف على دولتهم ، فليس عجيباً أن يفرح لثورة العلويين ، ويغريهم بالعباسيين فى هذه الأبيات المضطرمة المتأججة ، وكان هؤلاء العلماء الذين أحبوا هذه القصيدة متشيعين أيضاً ، كعامة أهل العراق ، يظهرون لبنى العباس غير ما يضمرون ، ثم كان الناس جميعاً ينقمون من بنى العباس ظلماً واستبداد بالأمر ، وازدراء للزعماء من العرب ، ومن الموالى أيضاً ؛فليس عجباً أن يحبّوا شعر بشار وأبياته فى الشورى ، فهذا الحب وهذا الإعجاب يمثلان قبل كل شىء ما تضمر الشعوب للملوك المبغَّضين إليها . على أن صدق بشار ليس وحده الذى يحلى هذه القصيدة ، فلفظها متين كما ترى ، ومعانيها جياد ، وإن كانت ليست من العمق والندرة بحيث تكفل البقاء لقصيدة من القصائد ، ولكن فيها قوة غير مألوفة .

أما القصيدة الأخرى فهى البائية التى مدح بها ابن هبيرة ، وقال فيها :

إِذَا المَلِكُ الجُبارُ صعَّر خدَّه مشينا إليه بالسيوف نعاتبُه

وفيها هذا البيت المشهور ، الذى أعجب به الناس إعجاباً شديداً واستكثروه على شاعر ضرير ، وهو :

كأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رُءُوسِنا وأَسْيافَنَا ليلٌ تَهَاوَى كواكِبُهْ

وليس البيت كثيراً على بشار ، فبشار نفسه ينبئنا بأنه قلد فيه قول امرئ القيس :

كأَنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْباً ويابِساً لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالِى

فأما تشبيه السيوف بالكواكب ، وتشبية مثار النقع بالليل ، فشىء مألوف تحدَّث عنه الشعراء كثيراً ، وليس لبشار فيه إلا هذه الصورة الشعرية ، التى لم يخترعها كلها ، وإنما تأثر فيها شاعراً قديماً كما ترى .

وجملة القول فى بشار أنه كان شاعراً غزير المادة جدًّا ، ولكن الجيد فى هذه المادة لم يكن صادقاً فى شعره ولا مخلصاً ، وإنما كان يتكلف المعانى فى أكثر الأوقات ، وكان يتكلف الألفاظ والأوصاف أيضاً ، ولم يكن

محبّباً ولا جذاباً ، ولا ليناً رقيق الطبع والحاشية ، وإنما كان قويًّا جباراً ، مبغَّضاً إلى الناس ، مُبْغضاً لهم . وإذا أردت أن تعرف الفن الذى برع فيه بشار حقًّا ، فهو فن الهجاء ، وقد عللنا هذا . وفى الحق أنه قتل الهجاء ، وأن الهجاء قتله أيضاً ، فقد كان فاسقاً ، بل كان زنديقاً ، ولم ينفعه تستّره ولا تكتمه ، ولكن الزندقة لم تقتله ، وإنما اتخذت وسيلة إلى قتله . والذى قتله إنما هو هجاؤه للمهدى بشعر لا أستطيع أن أرويه لك ، وهجاؤه ليعقوب بن داود وزير المهدى ، ولأخيه صالح بن داود ، قال الرواة إن بشاراً وَجدَ على المهدى وَجْداً شديداً حين حرمه ، وأعطى غيره من الشعراء ، فذهب ذات يوم إلى حَلقة يونس بن حبيب النحوى ، فسأل هل هنا من يُحتَشَم ؟ فقيل : لا ، فانشد بيتين شنيعين فى المهدى ، لم يلبث يونس وأصحابه أن حملوهما إلى يعقوب ، ولم يلبث هذا أن حملهما إلى المهدى فى تحفظ وتملق وإغراء ، قالوا : فغضب المهدى غَضَباً شديداً ، وقال له يعقوب إنه زنديق ، قد قامت عندى البينة عليه ، فأمر المهدى أن يُضْرَب ضَرْبَ التلف ، فضرب سبعين سوطاً مات لها . قالوا : وقد وجد فى بيته طومار أثبت للمهدى أنه لم يكن زنديقاً ولا كافراً ، فندم المهدى لقتله . وسواء أصح هذا الخبر أم لم يصح ، فالهجاء وحده هو الذى قتل هذا الشاعر ، ولم يكن من الميسور أن تترك الحرية والحياة لشاعر كبشار ، يعلن فى المجامع العامة مثل ما كان يعلن عن الخلفاء ووزراء الخلفاء .

والبة بن الحباب[1]

أبان بن عبد الحميد

كنت أريد أن أحدثك عن شاعر لا أشك فى أنه كان أبعد الشعراء أثراً فى عصره ، ولا شك فى أنه كان من أنبههم ذكراً ، ولا أشك فى أنه كان من أشدهم إمعاناً فى المجون ، وإسرافاً فى الفسق والفجور ، وهو والبة ابن الحباب . ولكنى مع الأسف لا أستطيع أن أحدثك عنه بشىء ذى غناء ، لأن الله لم يقدر لشعره البقاء ، ولا لأخباره وسيرته أن يتناقلها الرواة ، فذهبت حياته كما ذهب أدبه ، دون أن تكون لنا إلى درسهما سبيل ، إلا أن تكشف الأيام فى خزانة من خزائن الكتب عن سفر من الأسفار ، فيه طرف من أخبار هذا الرجل وأشعاره . ونحن مضطرون إلى أن نُعْرِض عن درسه الآن ، ونكتفى بتسجيل اسمه بين أسماء هذا النفر من الشعراء العابثين ، الذين ندرسهم فى هذه الفصول . نسجل اسمه بين أسماء هذا النفر ، لأننا واثقون بأنه قد كان منهم ، ومن زعمائهم ، بل كان أستاذاً من أساتذتهم فى القول والعمل أيضاً ؛ فقد كان والبة بن الحباب أستاذاً لأبى نواس ، تولى تأديبه وتعليمه ألوان الشعر والمجون ، ولما يتجاوز أبو نواس سن الغلمان ، ويظهر أنه قد كانت بين الأستاذ وتلميذه عشرة سيئة ، لم يتحرج من روايتها أبو الفرج ، ولم يتحرج من روايتها أبو نواس نفسه ،ولعل والبة هو الذى مهد لأبى نواس هذه السبيل المنكرة ، التى سلكها طول حياته ، فجعلته مبغضاً ، وجعلته محببا إلى الناس . جعلته مبغضاً لسوء سيرته ، وجعلته محببا لحسن شعره ، وشدة ظرفه ، وتقدمه فى الأدب إلى حد لم يبلغه كثير من معاصريه .

كان والبة بن الحباب هذا عربيًّا صميماً ، من بنى أسد وكنا نود لهذا السبب نفسه أن تكثر لدينا أخباره وأشعاره ، لنعرف كيف كان بلاء العرب

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٥ شوال سنة ١٣٤٢ — ٢٩ مايو سنة ١٩٢٤ .

الصريحين فى الزندقة والمجون ، وهذا اللون من ألوان العبث . فلم أحدثك إلى الآن بعد الوليد بن يزيد إلا عن الموالى ، أو من يشك فى عربيتهم ، أما والبة فلم يكن مولى ، ولم يكن نسبه موضع شك ، ومع ذلك فنحن مضطرون إلى أن نكتفى بهذه الأخبار القصيرة المبتورة التى نقلها إلينا أبو الفرج عن والبة . وهذه الأخبار لا تمثل لنا والبة أقل فجوراً وعبثاً من أبى نواس ، ولا من مطيع ، ولا من حماد ، وربما كان أشد منهم صراحة فى القول ، وإسرافاً فى الفحش ، فالناس يتحدثون أن المهدى أو الرشيد كره لقاءه ومنادمته ، لبيتين قالهما ، فجعل منادمته شراً على كل نديم . أما شعره فلا نستطيع أن نحكم عليه ، لأنا لا نحفظ منه إلا أبياتاً ، ولكن أبا الفرج يحدثنا أنه كان بارعاً فى وصف الخمر وما يتصل من العبث والغزل والمجون . وإذا ذكرنا الغزل ، فإنما نذكر الغزل بالغلمان ، ويحدثنا أنه لم يبرع فى غير هذا الفن من فنون الشعر ، وأنه حاول أن يهاجى أبا العتاهية ، فلم يستطع أن ينال منه شيئاً ، بل لم يستطع أن يثبت فى بغداد ، وإنما اضطر إلى أن ينصرف عنها هارباً أو كالهارب .

فلندع والبة إذن ، ولننصرف إلى غيره من شعراء هذا العصر ، وإلى من ننصرف ؟ ننصرف إلى أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، فهو خليق أن نقف عنده حيناً ، لا لأنه يمكن أن يقرن إلى بشار ، أو إلى مطيع ، أو إلى أبى نواس ، فهو أقصر باعاً ، وأضيق ذرعاً من أن يثبت لرجل من هؤلاء فى الشعر وقوته ، واختلاف فنونه ، وحسن لفظه ، ورقة معانيه ، وصدق لهجته ، لا يستطيع أبان أن يثبت لواحد من هؤلاء فى هذه الخلال ، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يثبت لهم فى خلال أخرى ، ويفوقهم فى بعضها ، وله نواح تستحق العناية ، وتدعو إلى التفكير .

لم يكن خفيف الظل ، ولا محبباً إلى الناس ، وإنما كان فيه شىء من الثقل ينفِّر منه ، ويصرف عنه ، وكان الذين يحبونه قليلين ، ولن يكون حظه من حبنا نحن بأوفر من حظه من حب معاصريه ، قلنا : إنه يثبت لهؤلاء الشعراء فى خلال غير التى ذكرناها ، يثبت لهم فى الزندقة ، فلم يكن أقل منهم عبثاً

ولا مجوناً ، أو قل : لعله كان أقل منهم عبثاً ومجوناً فى اللفظ ، ولكن سيرته لم تكن أقل من سيرتهم ، ولعل ضميره كان أقبح من ضمائرهم، ولعله من أولئك الزنادقة الذين كانوا زنادقة حقًّا ، والذين كانوا يكفرون عن يقين وعقيدة ، لاعن شك أو رغبة فى اللذة ، والذين كانوا يتخذون لحياتهم العامة قاعدة ، تؤلف شخصيتهم من رجلين مختلفين ، أحدهما يكره العرب ودينهم ، ويزدريهم ويزدرى دينهم ، ويضمر لهم ولدينهم حقداً شديداً ، والآخر يُظهر ، الإسلام ويتكلفه ، ويتمدح به ، ويحرص على أن يحسن رأى الناس فيه . من هذه الناحية هو قريب من بشار ، ولكن بشاراً غلبت عليه صناعة الشعر وعبثه ، فكان إلى العبث اللفظى ، وكان إلى اللذة والهوى أقرب منه إلى هذا الكفر والجحود ، يقومان على عقيدة ثابتة ، وعلى رأى سياسى بعينه .

كان أبان يكره العرب ويزدريهم ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يتملقهم ويتقرب إليهم ، ويستفيد من هذا الخلاف الذى شجر بينهم ، لينعم على حسابهم بالحياة ولذتها ، كان فارسيًّا قبل كل شىء ، يريد أن يثأر للفرس . ويعيد سلطانهم إلى الأرض ، ولكنه لم يكن محمقاً ولا قصير النظر ، بل كان يعلم حق العلم أن ذلك غير ميسور فى العصر الذى كان يعيش فيه من طريق مباشرة ، كما يقول أهل هذا العصر ، كان يعلم حق العلم أن لا سبيل إلى أن يزول سلطان العرب ، ويقوم مكانه سلطان فارسى ، فلم يكن يطمع فى ذلك ، ولا يسمو إليه ، وكان يعلم أن هناك وسيلة أبلغ فى الانتقام للفرس ، ورد السلطان الفعلى إليهم ، إذا أخطأهم السلطان الشرعى والفظى ، وهى التقرب إلى الخلفاء ، وأخذهم من مواضع الضعف ، والسيطرة عليهم ، حتى يترك الخلفاء لهم تدبير الأمور ، ويعتمدوا عليهم فى ذلك ، فيتركوا السلطان الفعلى للفرس ، ويحتفظوا لأنفسهم بظاهر القوة ، واسمها ومقامها العالى . وكان هذا المذهب هو المذهب الوحيد المعقول فى ذلك العصر ، بعد أن أخفقت تجربة أبى مسلم ، ولم تنتج لصاحبها إلا الموت ، ولا لحزبه إلا الشر كله ، وكان زعماء هذا المذهب من الفرس هم البرامكة ، الذين فطنوا للأمر فطنة حسنة ، فأحسنوا العمل والتدبير ، وتصرفوا تصرف الماهر ذى الحيلة الواسعة ، والأمل

البعيد ، يسعى إليه فى رفق وثبات ، حتى بلغوا من ذلك ماأرادوا ، ثم أصابهم من الغرور والعجلة ما أفقدهم الرفق وحسن الحيلة ، فتعرضوا لنفس ما تعرض له أبو مسلم ، وأصابتهم تلك النكبة ، التى كانت أعظم وقعاً ، وأبعد أثراً من نكبة أبى مسلم . وكان أبان صديقاً للبرامكة ، متصلا بهم أشد اتصال ، يستشيرونه ويعتمدون عليه فى تدبير أمورهم ، جدها وهزلها ، صعبها وهينها ، وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمى ، وبالغوا فى ذلك ، حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء ، وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلات ، فغضب الشعراء لذلك ، وكان أشدهم غضباً أبو نواس ، الذى كان يكره البرامكة كرهاً شديداً ، كما قلت لك ، حينما كنت أدرس أبا نواس ، غضب الشعراء وغضب أبو نواس خاصة ، وكانت بينه وبين أبان مهاجاة ، تستحق أن نقف عندها حيناً ، لأنها تظهر لنا دين أبان ومذهبه ، ولاسيما أن أباناً قد عجز عن أن يرد على أبى نواس بنحو ما هجاه أبو نواس ، فقد هجاه أبو نواس ، فاتهمه بالكفر والزندقة ، اتهاماً صريحاً منكراً ، لا يخلو من فحش ، ولم يستطع أبان أن يرد على خصمه من هذه الناحية ، فرد رد الضعفاء ، فشتم أبو نواس ، وناله فى أمه وأبيه . . . ولكن هذا الشتم لا يدفع تهمة ، ولا يعفى من إثم ، وإليك القصيدة التى قالها أبو نواس يهجو بها أبان بن عبد الحميد ، وهى تمثل رأى أبان حقاً .

شهِدْتُ يومـاً أباناً لا دَرَّ دَرُّ أبانِ

ونحنُ حُضَّرُ رِواقَ الْ أمـيرِ بالنَّهْرَوَانِ

حتى إذا ما صلاةُ الْ أُولى دَنَتْ لِأوانِ

فقَامَ مُنْذِرُ رَبِّى بالبِرِّ والإحْسَـانِ

وكُلَّمـا قالَ قُلْنا إلى انْقِضَاءِ الأَذَانِ

فَقَال : كَيفَ شَهِدْتُمْ بِذَا بِغَيْرِ عِيـانِ

لَا أَشْهَدُ الدَّهرَ حتَّى تُعَـايِنَ الْعَيْنَـانِ

فَقُلْتُ : سُبحانَ رَبِّى ! فقال : سُبحانَ مانى !
فَقُلْتُ : عِيسَى رَسُولٌ فَقَال : مِنْ شَيْطَانِ
فَقُلْتُ : مُوسَى نَجِيُّ الْـ مُهَيمنِ المنّـانِ
فَقَالَ : رَبُّكَ ذُو مُقْـ لَةٍ إِذَنْ وَلِسَـانِ
أَنَفْسُـهُ خَـلَقَتْهُ أَمْ مَنْ؟ فَقُمْتُ مَكَانِى
وَقُلْتُ رَبِّىَ ذُو رحْـ ـمة وذُو غُفْرَانِ
وَقُمْتُ أَسْحَبُ ذَيْلِى عَنْ هَازِلٍ بِالْقُرَانِ
عَنْ كَافِرٍ يَتَمَرَّى بالكُفْـرِ بالرَّحْمنِ
يُرِيدُ أَنْ يَتَسَاوَى بالعُصْبَـةِ المُجَّـانِ
بِعَجْرَد وعُبَـادٍ وَالْوَالِيِّ الْهِجَـانِ
وَابْنُ الإِيَاسِ الَّذِى تَا حَ تَخَطِّىْ خُلْوَانِ
وابْنِ الْخَلِيعِ عَلى ريـ حانةِ النُّدْمَـانِ
إِنِّى وَأَنْتَ . . . .

فهذه القصيدة تمثل لا رأى أبان وحده ، بل تمثل أيضاً رأى هذه الطائفة من الفرس ، الذين أظهروا الإسلام ديناً ، ورفضوا فيما بينهم وبين أنفسهم ، ورفضوا معه المسيحية واليهودية أيضاً ، وأبوا أن يؤمنوا إلا بما هو فارسى ، لأنهم اتخذوا ذلك سياسة ومذهباً فى السياسة . ثم هى تمثل فى الوقت نفسه رأى أبى نواس فى أبان من الوجهة الأدبية ، فهو يكره أن يقرنه إلى مطيع ، وحماد ، والحسين بن الضحاك الخليع ، ووالبة بن الحباب ، وفى الحق أنه لا يقرن إلى هؤلاء من الوجهة الأدبية كما قلنا ، ولكنه يفوتهم فى الزندقة والإلحاد ، لأنه كان يتخذ الكفر رأياً ، لا وسيلة إلى اللذة . ولست أروى لك رد أبان على أبى نواس ، فهو فحش كله ، وتستطيع أن ترجع إليه فى الأغانى إن شئت ، على أنه لا يدفع حجة ، ولا يبرىء من تهمة . وانظر إلى هذه الأبيات التى قالها

أبو نواس فى هجاء أبان ، دون أن يعرض لدينه أو رأيه ، وإنما أراد أن يجزى شتما بشتم ، وسبا بسب. ولست أرويها كلها ، وإنما أترك منها ما فيه فحش .

صَحَّفَتْ أُمك إذْ سَمَّتْكَ فِى الْمَهْدِ أَبَانَا
صَيَّرَتْ باءً مَكان التَّاءِ تَصْحيفاً عِيَانَا
قَدْ عَلِمْنَا مَا أَرادَتْ لَمْ تُرِدْ إلَّا أَتَانَا
. . . .

على أن من الخير أن أعطيك من أبان صورته التى أعطاها هو من نفسه حين أراد أن يتصل بالبرامكة ، فكتب إليهم هذه القصيدة ، وستقرؤها فترى أن الرجل معجب بنفسه ، مُدلٌّ بعلمه وأدبه ، تيّاه لا حدّ لتيهه وغروره ، وهى :

أَنَا مِنْ بُغْيَة الأَميرِ وكَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْأَمير ذُو أَرْبَاحِ
كاتِبٌ ، حاسِبٌ ،خطيب،أديبٌ ناصحٌ ، راجحٌ على النُّصَّاحِ
شاعِرٌ مُفْلِق أَخَفُّ مِنَ الرِّيشَةِ مما يَكُون تَحْتَ الْجنَاحِ
لِى فِى النحوِ فِطْنَةٌ وَانتِقَادٌ . . . .
ثم أرْوِى مِن ابن سِيرينَ للعلم بقولٍ مُنَوِّرِ الإفْصَاحِ
ثم أرْوَى مِنَ ابْنِ سِيرينَ للشعْرِ وقولِ النَّسِيبِ والْأَمْدَاحِ
وَظَرِيفُ الحديث مِنْ كلِّ فَنٍّ وبَصيرٌ بِتُرَّهَاتِ الْملاَحِ
كمْ وكَمْ قَدْ خبأْتُ عندِى حديثاً هُوَ عندَ الملوك كالتُّفَّاحِ
فبمثلى تخـــلو الملوك وتلهو وتناجِى فى المشكل الفَدّاحِ
أَيْمَنُ الناسِ طائرًا يومَ صَيْدٍ لغَدُوٍّ دَعِيتُ أَوْ لِرواحِ
أَبصَرُ الناسِ بالجوارح والخَيْل وبالخُرَّدِ الحِسَان الصِّبَاحِ
كل ذا قَدْ جَمَعْتُ والحمدُ للهِ عَلَى أننِى ظَرِيفُ المُزَاجِ
لَسْتُ بالناسِكَ المُشَمِّرِ ثَوْبيْه ولا الماجِنِ الخَلِيعِ الوقَاحِ

لَوْ رَمَى بِى الأَمير - أَصْلَحَهُ اللّٰ ه - رِمَاحاً ثَلَمْتُ حَدَّ الرِّماحِ
ما أَنَا واهِنٌ ولا مُسْتكِينٌ لِسِوَى أَمرِ سيِّدِى ذِى السَّماحِ
لَستُ بالضَّخْمِ يا أَميرُ ولا القزْ مِ وَلَا بِالمُجَحْدَرِ الدَّحْدَاحِ
لِحيةٌ جَعْدَة ووجهٌ صَبيحٌ واتِّقَادٌ كَشُعْلَةِ الْمِصْبَاحِ
إن دعانى الأَميرُ عاينَ مِنِّى شَمَّرِيًّا كالْبُلْبُلِ الصَّيَّاحِ

أرأيت شاعراً أشد غروراً وافتتاناً بنفسه من هذا الشاعر ! على أنه لم يلبث فيما ذكر الرواة أن أخذ يسعى بأبى نواس عند البرامكة ، فاغتاظ أبو نواس ، ونقض عليه قصيدته هذه ، فقال :

أَنْتَ أَولَى بقِلَّةِ الحظِّ مِنى يَا مُسَمَّى بالبلبل الصَّيَّاحِ
قَدْ رَأَوْا منه حين غَنَّى لديْهِمْ أَخْرَس الصَّوْتِ غيرَ ذى إِفْصَاح
ثُمَّ بالرِّيشِ شَبَّهَ النَّفْسَ بالخِفَّ ةِ مِمَّا يكون تَحْتَ الجَنَاحِ
فإِذا الشُّم من شَماريخِ رَضْوَى عندَهُ خِفَّةً نَوى الْمِسبَاحِ
لمْ يَكُنْ فيكَ من صِفاتك شىْءٌ غَيْر خَلقٍ مُحَجْدَرٍ دحْداحِ
لِحْيةٌ نطَّةٌ ووجهٌ قَبِيحٌ وانْثِنَاءٌ عَنِ النُّهَى وَالصَّلَاحِ
فِيكَ مَا يَحْمِلُ المُلُوك على الخُرْ قِ وَيُزْرِى بالسَّيِّدِ الجَحْجَاحِ
فِيك تِيهٌ وفيكَ عُجْبٌ شَديدٌ وطِماحٌ يفوقُ كُلَّ طِمَاحِ
بَاردُ الظَّرْفِ مُظلِمُ الكِذْبِ ذُوخَرْ قٍ مُعِيدُ الحَدِيثِ نَزْرُ المُزَاحِ
فَالَّذِى قُلْتُ فِيكَ بَاقٍ صَحِيحٌ وَالَّذِى قُلْتَ ذَاهِبٌ فِى الرِّيَاحِ .

كان أبان إذن مسرفاً فى حب نفسه ، والإعجاب بها ، وكان لذلك هجاء قبيح اللسان ، اتصل الهجاء بينه وبين أبى نواس ، كما اتصل بينه وبين رجل آخر ، كان صديقاً له ، وهو المعذل ، ولكن هجاءه قبيح ، ليس منه ما يصلح للرواية ، على أن المتانة تنقصه ، وهو من هذا الهجاء الذى تسمعه ، فتنفر من قائله ، لا ممن قيل فيه . ولم يكن أبان مغروراً ولا مفتوناً بنفسه ،

ولا قبيح اللسان فحسب ، بل كان شريراً قاسياً ، يؤثر الشر ، ويجد فيه لذة . وقد روى له أبو الفرج قصتين ، كلتاهما تمثل نصيبه من القسوة وحب الشر ، كما أن كلتيهما تعطينا صورة من شعره ، ومن الحياة فى عصره . قالوا : كان يقيم بالقرب من أبان رجل ثقفى يقال له محمد بن خالد ، وكان عدوًّا لأبان ، فتزوج محمد هذا ثقفية معروفة ، هى عمارة بنت عبد الوهاب ، مولاة جنان ، التى كلف بها أبو نواس ، وأكثر فيها الشعر ، وكانت عمارة غنية موفورة الثروة ، فاغتاظ أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة ، التى بلغت عمارة ، فأفسدت زَوَاجها :

لَمَّا رأَيْتُ البَزَّ والشَّارَه ... والفَرْشَ قد ضاقتْ بِهِ الحارهْ

واللَّوْزَ والسُّكَّرَ يُرْمَى بِهِ ... مِنْ فَوْقِ ذِى الدَّارِ وَذِى الدَّارَهْ

وأَحْضَرُوا المُلْهِينَ لَمْ يَتْرُكوا ... طَبْلاً وَلَا صَاحِبَ زَمَّارَهْ

قُلْتُ لِماذَا ؟ قِيلَ : أُعْجُوبَةٌ ... محمدٌ زُوِّج عَمَّــارَه

لَا عَمَّرَ اللهُ بهَا بَيْتَهُ ... وَلا رَأَتْهُ مُدْرِكاً ثَارَهْ

ماذَا رأَتْ فيهِ وَماذَا رَجَتْ ... وَهْىَ مِنَ النِّسْوَانَ مُخْتَارهْ

أَسْودُ كالسَّفُودِ يُنْسَى لَدَى التَّـ ... نُّورِ بَلْ مِحْرَاكُ قَيَّارَهْ

يُجْرِى عَلَى أَولادِه خمسةً ... أَرغفةً كالرِّيش طَيَّــارهْ

وأهلُه فى الأَرْضِ من خَوْفِهِ ... إنْ أَفرطُوا فى الأَكْلِ سَيَّارهْ

وَيْحكِ فِرِّى وَاَعْصِى ذَا بِهِ ... فَهَذِهِ أُخْتُكِ فَــرَّارَهْ

إذا غَفَا باللَّيْلِ فاستيقظى ... ثُم اطْفِرى إنَّكِ طَفَّارَهْ

فلما وصل الشعر إلى عمارة فرت ، وأضاف أبان إلى قصيدته هذه الأبيات :

فصَعِدتْ ذَائلةً سُلَّماً ... تخاف أَنْ تَصْعَدَهُ الفَارهْ

« سرورُ » غَرَّتْها فلا أَفلحتْ ... فإنهــا لخنــاء غرّارهْ

لَوْ نِلْت ما أَبعدْتَ من رِيقها ... إنَّ لهــا نفثة سَحَّارهْ

أما القصة الأخرى فأشد من هذه قسوة ونكراً ، وأقبح منها عاقبة وأثراً ؛ قالوا : كان لأبان جار ، وكان يعاديه ، فاعتل علة طويلة ، وأرجف أبان بموته ، ثم صح من علته ، وخرج ، فجلس على بابه ، فكانت علته من السل ، وكان يكنى أبا الأطول ، فقال له أبان :

أبا الأطولِ طوَّلْتَ وما يُنْجيك تَطْويلُ
بِكَ السُّلُّ وَلاَ وَاللـ ـهِ ما يَبْرَأُ مَسْلُولُ
فَلَا يَغْرُرْكَ مِنْ ظَنٍّ لكَ أَقْــوَالٌ أباطِيلٌ
أرى فيكَ عَلامَاتٍ وللأشيــاء تأويلُ
هُزالاً قَدْ بَرى جِسْمـ ـك والمسْلولُ مهْزُولُ
وذِبَّاناً حَــواليكَ فَموْقُــوذٌ ومقْتُــولُ
وَحُمَّى منكَ فى العظْمِ فأَنْتَ الدَّهْرَ مَمْلُولُ
وَأَعــلاماً سِوَى ذَاكَ تُوارِيهــا السَّرَاوِيلُ
وَلَو بالفِيــل مما بـ ـكَ عُشْرٌ ما نَجا الفِيلُ
فَما هذَا عَلَى فيك قُــلاعٌ أَوْ دَمَامِيلُ
وَمَــا بالُ مُناجِيكَ يُوَلِّى وَهُوَ مَعْلُولُ
فإنْ كَانَ مِنَ الخوْف فقَدْ سالَ بِكَ النيــلُ
وذا داءٌ يُزَجِّيكَ فَلَا قالٌ وَلا قِيلُ

فلما أنشده هذا الشعر أرعد واضطرب ، ودخل منزله ، فما خرج منه بعد ذلك حتى مات .

قلت : إن أبان بن عبد الحميد لا يثبت للشعراء المعروفين فى فنون الشعر ، التى اعتادها الشعراء ، ولكنه يفوقهم فى شىء نحسب أنه هو الذى سبق إليه ، فهو إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين ، نعنى أنه ابتكر فى الأدب العربى فناً لم يتعاطه أحد من قبله ، وهو فن الشعر التعليمى ،

وهو فن ليس له فى نفسه قيمة أدبية ، ولا سيا فى العصور المتحضرة ، كعصر العباسيين ، وإنما قيمته فى تلك العصور التى لاحظ لها من علم ولا من حضارة ، والتى لا تنتشر فيها الكتابة ، ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه ، فنى مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمى ويفيد ، لأنه أيسر حفظاً من النثر ، ولعل أولَ مَن سبق إلى هذا الفن هو الشاعر اليونانى « هسيود » ، الذى عاش فى القرن الثامن قبل المسيح ، ونظم طائفة من القصائد ، فيها جمال شعرى لا بأس به ، ولكنه قصد بها إلى تقييد طائفة ، مما كان اليونان يَرَونه علماً فى ذلك الوقت ، فقد نظم تاريخ الآلهة وأحاديثهم ، كما نظم هذه القصيدة المشهورة ، التى تعرف بالأعمال والأيام ، والتى بين فيها فصول السنة ، وما يلائمها من ضروب الزراعة ، وما يحتاج إليه الزارع من أداة وجهد وفن ، إلى غير ذلك ، مما تجده فى هذه القصيدة الجميلة .

إلى هذا الفن سبق أبان بن عبد الحميد فى الأدب العربى . فأنشأ كثيراً من الشعر التعليمى ، طرق فيه فنوناً مختلفة ، من العلم والحكمة والدين ، وقد تحدث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب « كليلة ودمنة » ليسهل عليهم حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف ، واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو الفرج أبياتاً أربعة من هذا النظم ، ولكن صديقاً لى دلنى على كتاب ، أو قطعة من كتاب مخطوط ، توجد فى دار الكتب المصرية ، وهو كتاب الأوراق للصولى ، وفى هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة ، ولست أريد أن أروى لك منه إلا شيئاً قليلا جداً ، فهو لا يستحق الرواية ، ولا العناية فى مثل هذا الحديث ، الذى نعنى فيه بالأدب والفن ، أكثر مما نعنى بالكلام المنظوم ، وهذا أول النظم :

هذا كِتَابُ أدبٍ ومِحْنَهْ وهُو الذى يُدْعى كليلَه دمنهُ

فيهِ ضَلالاتٌ وفيهِ رُشْد وهُو كتاب وَضَعَتْهُ الهندُ

فَوصَفُوا آداب كُلِّ عالِم حِكايةً عَنْ أَلسُن البَهَائم

فالحكماءُ يَعْرِفُون فَضْلَهُ والسُّخَفَاءُ يَشْتَهُونَ هَزْلَهْ
وهوَ على ذاك يسيرُ الحفظِ لذٌّ على اللِّسيان عند اللفظِ

وانظر كيف افتتح باب الأسد والثور :

وإنَّ منْ كانَ دَنِيءَ النَّفْسِ يَرْضَى مِنَ الأَرْفَعِ بالأَخَسِّ
كمثل الكلْب الشَّقيِّ البائس يفرَحُ بالعَظْم العتيق اليابِسِ
وَإنَّ أهلِ الْفَضْل لا يُرْضِيهِم شَيءُ إذا ما كانَ لاَ يُغْنِيهِمُ
كالأَسَدِ الَّذِى يَصِيدُ الأَرْنَبَا ثُمَّ يَرى العَيْرَ المُجِدَّ هَرَبا
فيُرْسِلُ الأَرْنَبَ مِنُ أَظْفارِهِ وَيَتْبَع الْعَيْرَ علَى أَدْبارِهِ
والكلْبُ مِنْ دِقَّتِهِ تُرْضِيهِ بِلُقْمةٍ تَقْذِفُها فى فيـهِ

وعلى هذا النحو العادى الذى لا جمال فيه ، إلا أنه برىء من الرّكة ، يمضى أبان فى نظم كتابه . على أنه فى هذا ناظم لكتاب معروف ، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة ، إلى تأليف كتب منظومة ، فنظمَ قصيدة طويلة فى الصوم والزكاة ، روى منها الصّولىّ طَرَفاً ، وهذا أولها :

هذا كتابُ الصَّوْم وهوَ جامِعُ لِكُلِّ ما قامتْ بهِ الشَّرائِعُ
منْ ذلكَ المنزلُ فى القرآنِ فضْلاً عَلَى مَنْ كان ذا بيان
ومِنـهُ ما جاءَ عَنِ النبيِّ مِنْ عَهْدِهِ المُتَّبَعِ المرْضىِّ
صَـلَّى الإلٰه وَعَلَيْهِ سَلَّمَا كما هدى اللّهُ بهِ وعَلَّما
وبَعْضُهُ عِلَى اختلافِ النَّاسِ مِنْ أَثَرٍ ماضٍ وَمِنْ قِيَاسِ
والجامعُ الَّذِى إليه صَارُوا رَأْىُ أَبِى يُوسُفَ مِمَّا اختَارُوا
قَالَ أَبُو يوسف : أَمَّا المُفْتَرَضْ فرمضانُ صَوْمُهُ إِذَا عَرَضْ
والصَّوْمُ فى كَفَّارَةِ الأَيمَانِ مِنْ حِنْثٍ مَا جَرَى علَى اللِّسَان

ومَعَهُ الحَج وفى الظِّهارِ الصَّوْمُ لا يُدْفَعُ بالإنكارِ
وخَطأُ القتلِ وحَلْق المحْرِمِ لِرَأْسِهِ فِيهِ الصِّيَامُ فافْهَم
فَرَمَضَانُ شَهْرُهُ معْرُوفُ وصَوْمُهُ مُفْتَرَضٌ مَوْصُوفُ
والصومُ فى الظِّهار إن لم يَقْدِرِ مُظـاهِرٌ يوماً على مُحَرَّر
والقتلُ إن لم يَكُ عَمْدًا قتلُه فإنَّ ذاك فى الصيام مثلُهُ
شهرانِ فى العِـدَّة كاملان مُتَّصِـلانِ لا مُفرَّقانِ
والْحِنْثُ فى رواية مقبوله ثلاثةٌ أيامهـا مَوْصوله
ومثلُها فى العِـدة الأَيام للمحرم الحالقِ فى الإحرام
ثلاثةٌ نصومها إن حَلَقَا لا بـأس إن تابَعَها أو فَرَّقَا

ولكننا قد بعدنا عن الأدب وجماله ، وأمعنا فى الفقه إمعاناً ، وكأنما نروى هذه المنظومات التى حفظناها فى الأزهر أيام الصبا .

ولم يقف نظم أبان عند هذين الموضوعين ، بل يحدثنا أبو الفرج أنه نظم قصيدة طويلة سماها ذات الحلل ، تناول فيها تاريخ الخليقة ، وغير ذلك من موضوعات العلم ، وانتهى فيها إلى المنطق ، فألم به ، ولم يرو لنا من هذه القصيدة شىء .

وأحسب أن مكانه من البرامكة هو الذى حمله على اختراع هذا الفن ؛ فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم ، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهيلا . وليس من شك فى أن هذه الأموال التى أصابها من البرامكة ، حينما نظم كليلة ودمنة ، قد أطمعته ، فنظم القصائد الأخرى ، ليصيب مثل ما أصاب .

وكان أبان شديد الحرص على المال ، يضحى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العقيدة والرأى وكان يحسد مروان بن أبى حفصة ، لمكانه من الرشيد ، ولظفره بالصلات الضخمة ، والجوائز السنية ، فقد انتهى الأمر ببنى العباس مع مروان بن أبى حفصة ، إلى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم ، فغاظ

ذلك أبان بن عبد الحميد ، وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان . قال الرواة ؟ فعاتب البرامكة ، وأنكر عليهم تقصيرهم فى الانتهاء به إلى الرشيد ، حتى يصيب من عطائه مثل ما يصيب مروان ، فقالوا له : يجب أن تذهب مذهب مروان ، فتذم آل علىّ ، فقال : والله ما أستحل ذلك ، ثم أصبح فاستحله ، وقال قصيدة طويلة ، آثر بها بنى العباس على بنى أبى طالب ، وأثبت فيها حق بنى العباس فى وراثة الخلافة دون بنى على ، ودفعها إلى الفضل ابن يحيى ، فركب بها إلى الرشيد ، فنالته صلاته وجوائزه . وهذا أول هذه القصيدة التى ذهب فيها مذهب الفقهاء وأصحاب المناظرة . فلم تكن كلها شيئاً إلى جانب هذا البيت من شعر مروان :

أنّى يَكُونُ وَلَيس ذَاكَ بِكائِنٍ ... لِبنِى الْبَنَاتِ وِراثةُ الْأَعمامِ

وأول القصيدة :

نَشَدْتُ بحق الله من كان مسلماً ... أَعُم بما قد قلته العُجم والعَرَبْ

أَعَمٌّ رسولِ اللهِ أقربُ زُلفــةً ... لديهِ أَم ابن العَمّ فى رُتبةِ النسبْ

وأيهما أولى به وبعهــده ؟ ... ومَن ذا له حق التُّراثِ بما وجبْ ؟

فإن كان عباسٌ أحقَّ بتلكُمُ ... وكان عَلِيٌّ بعد ذاك على سبَبْ

فأبناءُ عبَّاس هُم يَرِثُونه ... كما العمُّ لابن العم فى الإرْثِ قد حَجَب

وهى طويلة ولكنها تخلوا من كل جمال أدبى ، وقد أجازها الرشيد مع ذلك ، فأحسن جائزتها ، لم يجز الأدب ، وإنما أجاز السياسة .

وقد انتهى بنا القول فى أبان إلى السياسة ولا بد لنا من أن نعرض لشاعرين خليقين بالعناية كلها من هذه الناحية ، أحدهما مروان بن أبى حفصة الشاعر السياسى لبنى العباس خاصة ، والثانى السيد الحميرى ، وهو الشاعر السياسى لبنى علىّ خاصة ، وإن كان قد مدح بنى العباس ، وظفر بجوائزهم . وإذا درسنا هؤلاء الشعراء الثلاثة من هذه الناحية السياسية ، فسننتهى إلى هذه النتيجة : وهى أن أبان بن عبد الحميد أشدهم نفاقاً ، وأكثرهم اتجاراً

برأيه ودينه . كان كالبرامكة يتشيع للعلويين ، ثم طمع فى أموال الرشيد ، فأنكر العلويين ، وآثر عليهم بنى العباس ، وهو يُقسم ما يستحل ذلك ! . . . وفى الحق أنه لم يكن يحب آل علىّ ولا بنى العباس ، وإنما كان كغيره من هؤلاء الفرس ، الذين يذهبون مذهب البرامكة ، يتخذ التشيع للعلويين لوناً سياسياً ، يخفى أطماعه ومآربه الفارسية . أما مروان بن أبى حفصة فأسرته كلها من أتباع بنى أمية وأنصارهم ، والغلاة فى مدحهم وتأييدهم ، ولكن الله أدال من بنى أمية لبنى العباس ، فدار مع الأيام ، ووجد فى ذلك مَغنما ، فاندفع فيه ما اندفع بنو العباس فى العطاء . وأما السيد الحميرى فعلوىُّ المذهب ، صادق فى علويته ، مسرف فيها إسرافاً لا يعدله إسراف ، ولكن الله أدال من بنى أمية لبنى هاشم ، وكان السيد كغيره من الناس ، يحسبون أن الأمر سيؤول إلى العلويين ، فلما آل الأمر إلى العباسيين دون العلويين ، انقسمت شيعة العلويين ، فمنهم من أعلن حقده وسخطه على بنى العباس ، فاشترك فى فتن العلويين وثوراتهم ، ومنهم من اتقى ، فحفظ الود لآل على ، وجامل العباسيين وأخذ أموالهم ، ومن هؤلاء السيد الحميرى ، ولكن هذا بحث يحتاج إلى عناية وتحقيق وروية ، ونحسب أن الخير فى إرجائه إلى الأسبوع الآتى .

مروان بن أبى حفصة [1]

السيد الحميرى

جمعت هذين الشاعرين إلى أبان بن عبد الحميد ، فى آخر حديث الأربعاء الماضى ، ولم أجمعهما إليه عبثاً ، وإنما جمعتهما إليه لأن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة صلة ، تجعل التفكير فى أحدهم وسيلة إلى التفكير فى الآخرين . وليست هذه الصلة شعرية ، فهم يتفاوتون فى الشعر تفاوتاً شديداً ، لكل منهم فيه مذهبه وسبيله كما سنرى . وليست هذه الصلة مجوناً ولا عبثاً ولا زندقة ، فقد كان أبان بن عبد الحميد من أهل المجون والعبث والزندقة ، يستر ذلك ويخفيه ، حتى خدع الناس عن نفسه ، وحتى غضب يونس بن حبيب وقد ذكر أصحابه كفر أبان ، ولم يكن مروان بن أبى حفصة ماجناً ولا عابثاً ولا زنديقاً ، وإنما كان أشد الناس انصرافاً عن اللغو والعبث ، وأشد الناس حرصاً على الجد وحسن السيرة ، لأسباب سنبينها بعد حين . أما السيد الحميرى فلم يكن من المسرفين فى الاستهتار والتهتك ، ولا من الذين يتخذون العبث واللهو سيرة وديناً ، وإنما كان رجلا كغيره من الشعراء الذين عاشوا فى العصر الجاهلى والأموى ، يأخذ بحظه من لذات الحياة ، لا متجاوزاً فى ذلك حداً ، ولا مستهتراً فيه ، ولا متحدياً غيره من أهل التقى والدين ، كان يشرب الخمر كما كان يشربها جرير والفرزدق والأعشى ، ولكنه لم يكن يعكف عليها عكوف أبى نواس . ولم يكن يتغناها أو يشيد بذكرها ، كانت سيرته فى ذلك سيرة الشعراء من العرب ، لا من الموالى ، فسنرى فى غير هذا الحديث أن هناك فروقاً جلية بين شعراء العرب وشعراء الموالى ، تفسر لنا هذا المجون الكثير ، الذى نجده فى صدر الدولة العباسية .

ليست الصلة إذن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة مجوناً ولا عبثاً ولا زندقة ، ولا تشابهاً فى المذهب الشعرى والأدبى ، وإنما الصلة بينهم سياسية ، الصلة

---

(1) نشرت بالسياسة فى ١ من ذى القعدة سنة ١٣٤٢ — ٤ يونيو سنة ١٩٢٤ .

بينهم هذا المذهب السياسى الذى ذهبوه جميعاً ، دون أن يكونوا فيه جميعاً ، مخلصين ، فكلهم مدح بنى العباس ، وتقرب إليهم ، وأفاد من أموالهم ، وكلهم كان هواه مع غير بنى العباس ، ولا بد من توضيح ذلك بشىء من التفصيل .

رأينا فى الحديث الماضى أن أبان بن عبد الحميد لم يكن مخلصاً لبنى العباس ، ولكنه كان مخلصاً لمال بنى العباس ، يشتهيه ويحرص عليه ، فعاتب البرامكة ، لأنهم لم يقدموه إلى الرشيد ، فلما قال البرامكة إن الحق عليه فى ذلك أن يهجو العلويين ، ويؤثر عليهم بنى العباس ، أظهر تردداً ، وقال إنه لا يستحيل ذلك ، ثم أصبح فاستحله كما قلنا ، وأنشأ قصيدته المعروفة ، يثبت فيها أن بنى العباس أحق بوراثة الخلافة من بنى على ، ولم يكن أبان علوياً مخلصاً ، وإنما كان قبل كل شىء فارسياً مخلصاً ، وكان كغيره من هؤلاء الفرس ، يتخذ التشيع لعلى وآل بيته لوناً سياسياً ، إذا كانوا قد وثقوا بأن من المستحيل أن يسترد الفرس فى ذلك الوقت استقلالهم السياسى ، وحريتهم الدينية ، على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام ، فلم يكن لهم بد من أن يصلو إلى السلطان من الإسلام ، ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية ، فنصروا الضعيف المضطهد من هذه الأحزاب ، وهو حزب العلويين ، وكان هذا الحزب ضعيفاً أيام عثمان ، مضطهداً أقبح الاضطهاد طوال أيام بنى أمية ، فأيده الفرس وناصروه ، حتى وصلوا به إلى السلطان . ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان ؛ لأن ظروفاً سياسية خاصة ، تدرس فى التاريخ لا فى هذه الصحيفة الأدبية ، دعت إلى أن يستأثر بنو العباس بالحكم دون بنى على ؛ فلان الفرس ومرنوا ، وآزروا بنى العباس ، ليصلوا معهم إلى السلطان ، وتشدد منهم فى مذهبهم العلوى قوم ، لقوا فى سبيل هذا المذهب منايأهم ، ومن هؤلاء أبو مسلم ، ومنهم البرامكة أيضاً . وقد حدث فى ذلك الوقت شىء يشبه كل الشبه ما حدث فى فرنسا أيام الثورة التى ظهرت سنة ١٨٣٠ ، فقد قام الجمهوريون بالثورة وهيئوا أسبابها لى ، وانتهوا بها إلى الفوز ، حتى أزالوا سلطان « بوربون » ، ولكن ظروفاً سياسية خاصة حادت بالحكم عن الجمهوريين إلى آل « أورليان » ، فقام ملك « لويس فيليب » وانقسم الثائرون المنتصرون إلى قسمين متنازعين : قسم الجمهوريين الذى عملوا وضحوا ، وفازوا ، ثم قسم أنصار « أورليان » الذين اجتنوا

ثمار الفوز ، وكان الجمهوريون يقولون إن خصومهم قد اختلسوا الجمهورية (Examoter la Répuplique) وانقسم هؤلاء الجمهوريون فيما بينهم وبين أنفسهم ، فنهم من مال إلى الدولة الفائزة ، فانصرف من الحكم الجمهورى إلى الحكم الملكى الحر ، ومنهم من تشدد فى مذهبه الجمهورى ، ومضى يأتمر ويدبر الثورات ، حدث هذا أو شىء قريب منه جداً حين قامت الدعوة الهاشمية لنقض السلطان الأموى . فقد كان سواد الناس يدعو للعلويين وينصرهم ، حتى إذا تم الفوز لهذه الدعوة الجديدة ، لم ينتصر العلويون ، وإنما انتصر بنو هاشم جملة على بنى أمية ، واستأثر بالحكم من بنى هاشم آل العباس ، دون آل على ، فانقسم الهاشميون على أنفسهم : منهم من أيد العباسيين تأييداً ظاهراً خالصاً ، ومنهم من أيد العلويين ، فمضى يأتمر ويثور ، ثم انقسم العلويون فيما بينهم وبين أنفسهم أيضاً ، فاطمأن بعضهم إلى السلطان القائم ، وأرجأ الثورة إلى سنوح الفرصة . وأبى بعضهم إلا أن يثور . وعلى هذا كان مقام العلويين من العباسيين فى ذلك الوقت مقام الجمهوريين من أنصار « أورليان » سنة ١٨٣٠ .

أما الفرس فقد ذهبوا هذا المذهب نفسه ، وانقسموا هذا الانقسام نفسه ، وكان أبان بن عبد الحميد من الذين اعتدلوا فى الحكم ، فأبوا أن يظهروا النصر لبنى العباس ، كما أبوا أن يظهروا السخط عليهم ، ثم رأى هذه الأموال الضخمة التى يفيدها مروان بن أبى حفصة من خلفاء العباسيين ، فطمع وعدل عن مذهبه السياسى . فلم يبق علويًّا معتدلا ، بل أصبح عباسيًّا متطرفا ؛ هذا هو أبان بن عبد الحميد .

أما السيد الحميرى فقد استطاع أن يكون علويًّا متطرفًا ، وعباسيا معتدلا ، واستطاع ذلك فى وقت واحد ، فكان من أشد الناس إخلاصاً لآل على ، يجهر بذلك ويعلنه ، ولا يتحرج منه . وكان فى الوقت نفسه مسروراً بفوز بنى العباس ، لا لأنهم فازوا على العلويين ، بل لأنهم يمثلون بنى هاشم ، الذين فازوا على الأمويين كان يجمعه إلى أنصار بنى العباس الفرح بسقوط الأمويين ، وكان يعلن هذا الفرح ، وينتظر أن يأتى يوم آل على ، وهو لا ينتظر هادئاً ولا صامتاً ، وإنما كان يبث الدعوة لآل على ، ويبذل فى ذلك من الجهد والقوة ما استطاع . ثم لم يكن فرحه بسقوط الأمويين وحده هو الذى يدنيه من بنى العباس ، وإنما كان هناك شىء آخر يدنيه منهم ، وهو الرغبة والرهبة ، كان يطمع فى أموال بنى العباس ، ويفيد

منها غير قليل ، وكان يخشى بطشهم ، فيتقيه بالقصيدة يمدح بها آل العباس ، بين القصائد الطوال الكثيرة يشيد فيها بآل علىّ .

أما مروان بن أبى حفصة فكان شيئاً غير هذا كله ، وكان رجلا يخالف هذين أشد الخلاف ، ولا يتفق معهما إلا فى شىء واحد ، هو مدح بنى العباس وتأييدهم . كانت أسرة مروان بن أبى حفصة منذ عرفها الأدب التاريخ متصلة ببنى أمية ، محسوبة عليهم ، إن قبلت هذا التعبير ، فقد كان أبو حفصة جده الأعلى عبداً فارسيًّا لمروان ابن الحكم ،شهد معه حصار عثمان فى داره ، وأبلى فى الدفاع عن الخليفة بلاء حسناً ، وأظهر شجاعة ومكراً فى حماية مولاه مروان ، وإنقاذه من الموت ، ثم شهد مع مروان جميع مواقفه السياسية والحربية المشهورة ، وكان يعينه فيما تولى من الأعمال قبل خلافته ، ونشأت عن ذلك صلة من صلات الموالاة القوية المتينة ، بين آل أبى حفصة وآل مروان ، حتى لقد كان الخلفاء من بنى مروان يؤثرون آل أبى حفصة على العرب ، وعلى أشراف العرب أيضاً ، وحتى لقد أبى خليفة مروانى أن يسمع لنفر من أشراف العرب ، أقبلوا يشكون إليه أن رجلا من آل أبى حفصة قد أصهر إلى العرب ، وخالف الحكم الشرعى ، الذى لا يبيح للموالى تزوج العربيات ، أبى الخليفة أن يسمع لهذه الشكوى ، بل زجر الشاكين زجراً شديداً ، واضطر الحفصى إلى أن يسعى لدى الخليفة فى الرفق بهم ، والعطف عليهم ، وكان من آل أبى حفصة شعراء ناصروا الأمويين مناصرة شديدة ، حتى إن أحدهم ندم على عصر الحجاج ، وزعم فى شعر له أن الدين قد تعرض للخطر من حادث الحجاج ، فاضطربت أمور العراق ، وظهر فيه الثائرون ، كل هذا يبين لك شدة هذه الصلة التى كانت بين الأمويين وبين آل أبى حفصة ، وهو فى الوقت نفسه يبين لك شيئاً آخر ، هو الذى نقصد إليه فى هذا الحديث ، وهو ، خلق مروان بن أبى حفصة .

فما كان الحظ يديل من بنى أمية لبنى العباس ، حتى انتفض مروان ابن أبى حفصة ، فإذا هو شاعر بنى العباس،ولسانهم السياسى ،وإذا هو أشد الناس انتصاراً لهم ، وأبلغ الناس دفاعاً عنهم ، وإذا هو الشاعر الذى نستطيع أن نقول فيه: إنه نظم الدفاع عن نظرية العباسيين فى وراثة الملك ،وصاغها فى هذه الصيغة الفقهية الشعرية معاً، فقال :

أنَّى يكُونُ وليسَ ذاكَ بكائنٍ لبنى البناتِ وِراثةُ الأَعمام

يريد أن العباسيين أحق بوراثة النبي ، لأن أباهم العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أحق بوراثة ابن أخيه من الأسباط ، وذلك بحكم الفقه والميراث . وقد وقع هذا البيت على العلويين وأنصارهم موقع الصاعقة ، فاضطربوا له اضطرابا شديداً ، واشتد سخطهم على مروان ، وأضمروا له الشر ، وأظهروا له اللعنة ، وما زالوا به حتى قتلوه ، كما سنرى . أما موقع البيت مع العباسيين فقد كان أجمل وقع وأحسنه ، حتى كان مروان شاعر الحزب العباسي حقاً ، وكان أثيراً عند المهدي والهادي والرشيد ، وكان مروان أول شاعر أخذ من العباسيين مئة ألف درهم مرة واحدة ، ثم كانت له عليهم دالة ، وكانت له عندهم عادات ، فتقرر في ديوان الخلافة أن جائزة مروان يجب أن تكون ألوفا ، تعدل أبيات قصيدته عدداً فكان إذا بلغ بقصيدته المئة ، بلغت جائزته مئة ألف . وهذا هو الذي غاظ أبان ابن عبد الحميد ، فكان منه ما كان ، على أن أبان بن عبد الحميد حين أراد أن يقلد مروان بن أبي حفصة لم يستطع أن يكون شاعراً ، وإنما كان فقيهاً ، يناضل عن رأي في الفقه ، ففصّل النظرية العباسية تفصيلا ، ودافع ، عن كلياتها وجزئياتها ، كما يقول أصحاب المنطق ، دفاع الفقيه . فكيف استطاع مروان بن أبي حفصة أن ينكر ماضيه وماضي أسرته ، وأن يجحد ولاء الأمويين ، وينتفض فإذا هو عباسي أكثر من العباسيين ؟ ليس الجواب عليه عسيراً ، ولا في حاجة إلى بحث وتدقيق ؛ فقد كان مروان بن أبي حفصة محبّاً للجمال ، شرهاً إليه ، لا يشبع منه ، ولا يقنعه منه الكثير كان محبّاً للمال ، هذا التعبير ضعيف ، لا يصف مروان ولا خُلقه ، وإنما كان مروان يعبد المال عبادة ، ويقدسه تقديساً ، وكان فيما بينه وبين نفسه يزدري الأمويين والعباسيين والعلويين ، وكان فيما بينه وبين نفسه مقتنعاً بأنه يفوز بأموال العباسيين ، فلو أدال الله منهم للأمويين أو للعلويين لسار مع الدولة الجديدة سيرته مع الدولة القديمة ، ليظفر منها بهذا المال الذي يعبده ويقدسه . لم يكن إذن عباسيّاً مخلصاً ، بل لم يكن شاعراً من شعراء الأحزاب بالمعنى الصحيح ، لم يكن من هذه الألسنة السياسية الحزبية ، التي هي مرآة لقلوب أصحابها ، والتي تمثل الإيمان الصادق ، والعقيدة الراسخة ، التي لا تؤثر المال على الرأي ولا تضن بالنفس على الموت ، في سبيل الرأي السياسي . لم يكن مروان من هؤلاء ، وإنما كان شاعراً مجيداً ، يستطيع أن يكسب المال بشعره ، وقد رأى فرصة سانحة ، فأحسن انتهازها ، وقدِّر له التوفيق ، فجمع من المال ما لم يجمعه شاعر

من قبله وأمثال مروان بن أبى حفصة كثيرون فى عصور الثورات والاضطراب السياسى ، والجهاد العنيف بين الأحزاب ، تجدهم فى كل مكان وفى كل زمان ، ولكن الذين يبلغون من الإجادة الفنية بين هؤلاء ما بلغه مروان قليلون جداً . . .
كان مروان شرهاً إلى المال ، ولكن الغريب من أمره أنه لم ينتفع بهذا المال ، ولم يستمتع بشىء منه ، وإنما عاش عيشة بؤس وحرمان ، فكان من أبخل الناس ، وتستطيع أن تقول إنه كان أبخل شاعر عرفته العرب إلى ذلك الوقت . وكان الناس يضربون الأمثال ببخل مروان ، ويتندّرون به فى مجالسهم وأحاديثهم ، فهم يقولون مثلا إنه كان إذا قدم بغداد ، ليمدح خليفة من الخلفاء . ويظفر بجائزته ، لم يأكل إلا الرأس ، يبعث غلامه ، فيشترى له رأساً ، فيعيش عليه حيناً ، وقد كلم فى ذلك ، فأجاب جواباً بديعاً ، أجاب بأن الرأس لا يكلفه طبخاً ولا تهيئة ، فهو إذن يكفيه بعض المؤونة ، ثم إنه لا يحتمل زيادة ولا نقصاً ، فلا يستطيع الغلام أن يخونه فيه ، فهو إن أكل أذناً أو عيناً أو نحو ذلك ، ظهر سيده على ما أكل ، ثم إن له فى الرأس مرافق ، فهو يتخذ منه ألواناً مختلفة ، دون أن يتكلف لذلك الأثمان ، التى يتكلفها الذين يريدون أن يتخذوا من الطعام ألواناً مختلفة ، فهو يأكل الأذنين لوناً ، والعينين لوناً آخر والغلصمة لوناً آخر ، وعلى هذا النحو .
وزعم ناس من الرواة أنهم مروا بمروان ، فنزلوا عنده فى اليمامة ، فأطعمهم لحما ، فلما فرغوا من طعامهم دفع إلى غلامه فلساً وآنية ، ليشترى له شيئاً من الزيت يطعم منه ، فذهب الغلام وعاد بالزيت ، ولكن مروان اتهمه بالسرقة والخيانة ، فجعل الغلام يسأله كيف أخونك فى فلس واحد ، وجعل مروان يجيب : أخذت الفلس ، واستوهبت الزيت . ثم يتحدثون عن مروان نفسه أنه قال : ما فرحت لشىء قط كما فرحت يوماً وقد أجازنى المهدى بمئة ألف دينار ، فوزنتها فزادت درهما ، فاشتريت به لها ويقولون إنه : مر بامرأة فأضافته ، فلما أراد الانصراف وعدها إن بلغت جائزته مئة ألف أن يهب لها درهما ، فلم تبلغ جائزته إلا ستين ألفاً ، وكان يريد معن بن زائدة ، فوهب للمرأة أربعة دوانق ، وهو شىء لا يكاد يبلغ ثلثى الدرهم ، كما أن الجائزة لم تبلغ ثلثى مئة الألف .

وأحاديث مروان فى البخل والحرص كثيرة ، روينا لك منها هذا الطَّرَف ،

لنصور لك حبه للمال تصويراً كافياً ، على أن هذا التصوير فى حاجة إلى أن نتمه ونكمله بقصة رواها أبو الفرج ، ولها قيمتها ، لأنها تمس شعر مروان ، وهى أنه مر ذات يوم برجل من باهلة وهو ينشد جماعة قصيدة له ، كان قد أنشأها فى مدح مروان بن محمد الأموى ، قبل أن يبلغ هذا الشاعر الخليفة بقصيدته ، فاستمع مروان لهذه القصيدة ، فأعجبته ، وكان أولها :

مَرْوانُ يابنَ محمَّدٍ أنت الَّذِى زِيدَتْ بِهِ شَرفاً بنُو مَرْوَانِ

فلما فرغ الشاعر من إنشاد قصيدته ، تبعه صاحبنا إلى بيته ، وقال له : إنك لم تظفر من هذه القصيدة بما كنت تريد ؛ فقد قتل مروان ، وذهبت دولته ، فبعنى هذه القصيدة ، لأنتحلها لنفسى ، وتفوز أنت بشىء من المال ، قال الرجل : قد فعلت . فساومه مروان ، وانتهيا إلى ثلاث مئة درهم ، ثم استحلف مروان صاحبه بالطلاق والأيمان المحرجة ألا يذكر هذه القصيدة ، ولا يرويها ، ولا ينسبها إلى نفسه ، فحلف الرجل ، وانصرف مروان إلى بيته ، فغير القصيدة . وزاد فيها ، ونقص منها ، وحولها إلى معن بن زائدة ، فقال :

مَعْن بن زائدَةَ الَّذِى زِيدَتْ بهِ شَرَفاً إلى شَرَفٍ بَنُوا شَيبان

ووفد بها على معن ، فملأ يديه ، وأقام عنده مدة ، حتى أثرى .

على أننا نستطيع أن نعرف كيف اتصل مروان بن أبى حفصة ببنى العباس ، فبلغ عندهم من الحظوة ما بلغ ، وظفر منهم بما كان يطمع فيه من مال . يظهر أنه فى أول أمره لم يكن يفكر فى الا تصال بهم ، ولا فى الارتقاء إلى هذه المنزلة ، منزلة الشعراء الذين يبلغون قصور الخلفاء ، وينشدونهم فيها الشعر ، وكأنه كان قد ترك ذلك لأهل العراق ، واكتفى بحظه من معن بن زائدة ، وقد كان هذا الحظ عظيما موفوراً ، فجود مَعْن معروف ، وقد عرف مروان كيف يستغل هذا الجود ويستثمره. لكن معناً مات ، فحزن عليه مروان ، ورثاه رثاء كثيراً جيداً ، منه هذان البيتان:

أقمنـــا باليمامةِ بعد مَعْنٍ مُقاماً لا نريدُ بهِ زَوالاَ

وقُلْنـــا أين نرحَلُ بعدمَعْنٍ وقد ذهب النوالُ فلا نَوالاَ

ثم بداله ، فوفد على المهدى فيمن وفد عليه من الشعراء ، وكان اسمه وشعره قد سبقاه إلى المهدى ، كما سبقاه إلى المنصور من قبل ، ولعل اسم مَعْن هو الذى

رفع مروان ، حتى انتهى به إلى قصور الخلفاء .

وفد على المهدى ، فأنشده قصيدة يمدحه فيها ، فسأله المهدى : من أنت ؟ قال : شاعرك وعبدك ، مروان بن أبى حفصة ، قال المهدى ألست القائل ، وذكر البيتين السابقين ، ثم قال لقد ذهب النوال فيما زعمت ، فلا نوال لك عندنا ، ثم أمر به فسحب برجله ، حتى أخرج. ومن قبل المهدى وَجد المنصور على مروان ، لأنه أحسن مدح معن ، ووجد على معن ، لأنه أكثر العطاء لمروان ، حتى إنه لام معناً فى ذلك ، ولكن معناً عرف كيف يخلص من لوم المنصور .

كان المهدى إذن واجداً على مروان ، حاسداً لمعن بن زائدة ، ولهذا حرم مروان وأهانه ، وكان مروان قد فهم هذا ، وكأنه قد استفاد من رحلته هذه ، فعرف الميول السياسية حول الخليفة ، واستفاد مما عرف ، فأقام عامه فى بلده اليمامة ، ثم استأنف الرحلة ، فدخل على المهدى مع الشعراء ، وأنشده ، وكان الخامس أو السادس بين المنشدين ، وأنشده قصيدة يظهر أنها خلبت أهل عصره ، وكان من حقها أن تخلبهم ، فإنها آية من آيات الشعر السياسى ، وآية الجودة فى اللفظ والمعنى ، وصفاء الأسلوب ورقته ، فى غير ضعف ولا ركة ولا تبذل ، ومطلعها :

طَرَقتكَ زائرةً فحى خَيالَها   بيضاءُ تخلِط بالجمالِ دَلاَلَها

قادَتْ فوادَكَ فاستقادَ ومثلُها   قادَ القلوبَ إلى الصِّبا فأَمالَها

فلم يكد يبدأ فى إنشاده حتى أخذ على الناس أهواءهم ، فاستمعوا له معجبين ، وبلغ بهم ذلك أنهم كانوا كأنما تعلقوا بشفتى الشاعر ، حتى إذا هجم على الموضوع السياسى ، وأخذ يحاجّ العلويين ، ويخاصمهم عن حق بنى العباس فى وراثة الخلافة ، أخذ المهدى يزحف من صدر مصلاه ، حتى صار على البساط ، إعجاباً بما يسمع ، وإليك هذه الأبيات التى استخفت المهدى ، وأحسب أنها ما تزال تستخف من له علم بالحياة السياسية يومئذ :

هلْ تَطْمِسُون من السماءِ نجومَها   بأَكُفكُمْ أَوْ تَسْتُرُونَ هِلالَها

أَوْ تَجحَدون مقالةً عن ربِّكُمْ   جبريلُ بلَّغَها النبى فَقَالَها

شَهِدتْ من الأَنفالِ آخر آيةٍ   بتُراثِهِمْ فأَردتُمُ إِبْطالَها

فلما فرغ من إنشاده سأل المهدى عن القصيدة كم هى ؟ قال مروان : مئة

بيت ، فأمر له بمئة ألف درهم ؛ وكانت هذه أول مئة ألف درهم نالها شاعر من خلفاء بني العباس . قال الفضل بن الربيع ، وهو الذى شهد هذه القصة : فلما كانت أيام الرشيد دخل عليه مروان ، فأنشده قصيدة يمدحه فيها ، فسأله : ومن أنت ؟ قال : شاعرك وعبدك مروان بن أبي حفصة ، فذكر له ذينك البيتين ، اللذين رثا بهما معن بن زائدة ، وقال له مثل مقالة المهدى ، وأمر به فأخرج ، قال الفضل بن الربيع : فلما كانت أيامٌ تلطف مروان ، حتى دخل على الرشيد ، فأنشده قصيدته التى أولها :

لعمرُكَ ما أَنسى غَداةَ المحصَّب ⁂ إشارةَ سَلْمى بالبَنان المُخضَّبِ

وقد صدَرَ الحُجَّاجُ إلا أقلَّهم ⁂ مصادِر شَتَّى موكِباً بعد موكِبِ

طرب الرشيد ، وسأله عن قصيدته كم هي ؟ قال : ستون أو سبعون ، فأمر له بعدد أبياتها ألوفاً ، وكان ذلك رسم مروان فى القصر حتى مات .

لعلك تريد الآن أن تعرف شيئاً عن شعر مروان ، وأنا آسف الأسف كله ، لأنا لا نستطيع أن نتحدث فى ذلك عن علم ولا عن بصيرة ، إذ لم يحفظ لنا الرواة من شعر مروان إلا أبياتاً قليلة متفرقة ، ومع ذلك فنستطيع أن نصور شعر مروان تصويراً مقارباً ، إن لم يكن صحيحاً ، وأكبر الظن أنه صحيح .

لم يكن مروان متصرفاً فى فنون الشعر ، ولعله لم يعْدُ منها فنًّا أو فنين ، فلسنا نعرف له غزلا ، إلا هذا الغزل الذى تعود الشعراء أن يبدءوا به مدائحهم ، ولسنا نعرف له هجاء إلا هذا النحو من الهجاء الذى يضطر إليه الشعراء السياسيون ، حين يدافعون عن مذهبهم ، ويهاجمون خصومهم . على أن موقف مروان كان فى هذا دقيقاً جدًّا ، فهو لم يكن ينصر بنى العباس على بنى أمية ، فيبلغ منهم ما يريد ، ويهجوهم فى حرية ، وإنما كان السيف هو الذى انتصر للعباسيين من بنى أمية ، وكان العباسيون فى حاجة إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بنى هاشم ، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً ، كان الدين يأباه فى ذلك الوقت . وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً ؛ فالعلويون من بنى هاشم ، وهجاؤهم هجاء للعباسيين ، ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين ، الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين ، مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة ، البريئة من الشتم والقذف ، فكان دفاعهم أبلغ ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً من هجاء أولئك

الشتامين المسرفين فى الشتم ثم لا نعرف لمروان مجوناً ولا عبثاً ، فلم يكن كما قلنا ماجناً ولا عابثاً ، وإنما كان بخيلا ، والبخل والعبث شيئان لا يتفقان ، ومن ضن على نفسه باللحم وطيبات الطعام، لم يستبح لنفسه خمراً ولا ما تستتبعه الخمر. ثم لا نعرف لمروان فخراً، وما نحسب أنه فاخر أو مال إلى الفخر؛ فقدكان رجلا عملياً، يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة، وكان يضن بوقته وجهده على الفخر الذى لا يفيد .

لم يعرض إذَنْ إلا لفنين اثنين : المدح والرثاء ، وهو فى المدح أشعر منه فى الرثاء ، وهذا طبيعى، فهو راغب حين يمدح ، يطلب المال ، ويحرص على أن يظفر به ، فمعقول أن يجيد ، وأن يبلغ من الإجادة حظًّا عظيماً ، أما فى الرثاء فهو لا يرغب ، ولا يطلب مالا ، وإنما يفى بعهد ، ويشكر صنيعه . ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه إلى الإجادة ، إلا أن يكون حساساً ، دقيق الشعور ، راقى النفس ، ولم يكن مروان من هذا كله فى شىء ، وإنما كان ، كما قلت لك ، رجلا عملياً يريد المال . على أن رثاءه لمعن ليس بالردىء ، وكذلك رثاؤه للمهدى ، وهل نستطيع أن نعد رثاءه للمهدى رثاء ؟ هو مدح لأنه عزاء للخليفة الجديد ، ففيه ذكر للخليفة الراحل ، والثناء على وارثه . وفيه المثوبة والعطاء ؛ فهو إلى المدح أقرب منه إلى الرثاء . أما مدح مروان فمن آيات المدح العربى ، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة ، ولكنها تكفى لنحكم أن مروان كان قد أتقن المدح ، وبرع فيه ، بل نحسب أنه تفوق فى هذا الفن على غيره من المعاصرين ، ولكن مدح مروان ينقسم إلى قسمين متمايزين ، أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف ، وهو موجه لمعن بن زائدة فهو يفتن فى وصف معن بالجود والكرم والشجاعة والحب، ثم يفتن فى مدح بن شيبان الذين ينتمى إليهم معن، وهو لا يخرج فى مدحه هذا عن سنة الشعراء من قبله ، ولكنه جيد المعانى منتقاها ، حسن الألفاظ صافيها .

وأما القسم الثانى فهو هذا المدح السياسى الذى كان ينشده الخلفاء من بنى العباس ، وهو مدح إن شئت ، ولكنه يمتاز عن المدح المعروف ، بما فيه من هذا النضال السياسى ، الذى كان يحتاج إلى مهارة وفطنة ، ودقة وخفة ، والذى كان يضطر صاحبه إلى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، وإلى أن ينصر العباسيين دون أن يزدرى خصومهم . وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويين ،

لا لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصما قويـّاً عنيداً ماهراً فى الخصام ، وقد رأيت فيما قدمنا أمثلة من خصومته ، وقوة حجته فى الخصومة .

ثم هناك شيئان لا بد من الإشارة إليهما ، ليكمل رأينا فى مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكماً مُعلـَّلاً ، إن صح هذا التعبير .

الأول أن مروان لم يكن عراقيـّاً ، ولم يرض الإقامة فى العراق ، ولم يُطِل عشرة العراقيين ، من أهل المجون والعبث ، وإنما كان من أهل اليمامة ، أقام فيها ، لا يبرحها إلا وافداً على أمير أو وزير أو خليفة ، فإذا أنشد قصيدته ، وظفر بجائزته ، عاد إلى اليمامة ، وأقام فيها عامه ، ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره فى شعر مروان ؛ فهو أقرب إلى شعر الجاهليين والإسلاميين ، منه إلى شعر المحدَثين ، من شعراء الحضارة العباسية ، تقرؤه فتجد عليه هذه المسحة ، التى تخلو ، أو تكاد تخلو من الدُّعابة والخفة ، وتمتاز بشىء من الجلال والرصانة ، وهو يمثـّل البادية تمثيلا صحيحاً . ولهذا أثره فى وجهة أخرى . فقد رضى علماء اللغة جميعاً عن مروان ، وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا فى أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إيثاره على بشار وأبى نواس ، لأنه كان أقرب منهما إلى الأسلوب البدوى القديم ، ولكن أنى لهم ذلك وقد سلـَّط الله عليهم لسان بشار وأبى نواس ، فاضطروا إلى أن يحابوا هذين الشاعرين ويتملقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار ، وإيثاره على مروان . ومع ذلك فليس إلى المقارنة سبيل بين الشاعرين ، إذا اتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التى كان يعنى بها علماء اللغة . وهى وجهة المتانة والرصانة فى اللفظ والأسلوب ، لا يقاس إلى مروان فى هذا أحد من شعراء العراق . أما إذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، إذا اتخذنا اختلاف الفنون التى طرقها الشاعر ، وقرب المأخذ ، والدنو من أذهان الناس ، والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس إلى بشار ، ولا إلى أبى نواس بنوع خاص ، على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعاً شريفاً فى فنه ، لا يخاف ولا يهاب ، فصدق نفسه ، وصدق الناس وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين ؛ وهذا العالم اللغوى هو ابن الأعرابى الذى ختم الشعر بمروان ، وأبى أن يدوّن لأحد من المحدَثين بعده ، والذى كان ينشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيدة من شعر مروان ، وهى :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنّهم أُسودٌ لها فى بطنِ خَفّانَ أَشْبُلُ
هُمُ يمنعون الجار حتى كأنّما لجارهِم بينَ السِّما كَيْنِ منزلُ
لهاميمُ فى الإسلام سادوا ولم يكن كأوّلهمْ فى الجاهلية أوّلُ
هم القوم إنْ قالوا أصابوا وإن دُعُوا أجابوا ، وإن أعطَوْا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فِعالَهم وإن أحسنوا فى النائبات وأجْملوا

وكان ابن الأعرابى يقول : لو أن مَعْناً أعطى مروان كل ما يملك بهذه الأبيات لما بلغ حقه .

والآخر أن مروان لم يكن سريعاً فى الشعر ، ولا متعجلا ، ولا مسترسلا مع الطبع ، وإنما كان بطيئاً متمهلا . كان يجيد الشعر ، لأنه كان يجوّده . وكان يسلك هذه الطريقة التى يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها ، فى هذه القصائد التى يسمونها الحوليّات. كان ينفق أشهراً فى إنشاء القصيدة ، وأشهراً فى إصلاحها ، وأشهراً فى عرْضها ، حتى إذا استقام له هذا كله ، أنشد قصيدته لممدوحه ، خليفة كان أو وزيراً أو أميراً ، فليس عجباً مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يستنكر ، وأن يبرأ من الضعف والوحشية معاً .

ولقد يحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء ، الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن ينشده الخلفاء . ولست أشير إلا إلى سيرته مع بشار ، فلها معناها . كان مروان يعرض القصيدة على بشار ، ويسأله رأيه فيها ، فلا يجيبه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة ، بل يقدر له قيمة القصيدة ماليًّا ، فيقول : سيعطونك عليها كذا وكذا . . . وقد صدق بشار مرتين ، فأظهر له مروان العجب من ذلك ، فقال بشار : ألم أقل لك إنى أعلم الغيب ! ولم يكن يعلم الغيب ، وإنما كان يفهم مروان ، ويفهم الخلفاء ، ويفهم الميول السياسية ، التى كان من شأنها أن تجزل حظ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضاً ، ولكنه تناقض مفهوم ، كان شديد الحرص على الإجادة فكان يشك فى شعره ، ويستشير فيه الشعراء والنحاة ، ولكنه كان مع ذلك معجباً بنفسه ، لا يقدم عليها أحداً بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجرير . واسمع رأيه فيهم وفى نفسه ، فقد عقده شعراً ليثبت كما يقول :

ذهب الفرزدقُ بالفَخَار وإنما حُلْوُ القريضِ ومُرُّه لجريرِ
ولقد هجا فأَمضَّ أخطلُ تغْلِبِ وحوى اللُّهى ببيانه المشهورِ
كلٌّ الثلاثة قد أجاد فمدحُه وهجاؤه قد سار كل مَسِيرِ
ولقد جريتُ ففُتُّ غيرَ مهلِّلٍ بجراءٍ لا قَرِفٍ ولا مَبْهورِ
إنى لآنَف أن أُحَبِّرَ مِدحة أبدًا لغير خليفة ووزيرِ
ما ضرَّنى حسدُ اللئام ولم يَزلْ ذو الفضل يحسُده ذوو التقصيرِ

أما رأى مروان فى النقد فبديع ، كان ينشد الشعر لامرئ القيس ، ويقول هو أشعر الناس ، ثم ينشد شعر الأعشى ، ويقول هو أشعر الناس ، ثم ينشد شعر زهير ، ويقول هو أشعر الناس ، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء ، فرآهم جميعاً أشعر الناس ، قال ضاحكاً : الناس أشعر الناس .

ولست أعرف رأياً كهذا الرأى ، يمثِّل الشك فى نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد .

أظن أنى قد صورت لك مروان بن أبى حفصة تصويراً مقارباً ، إن لم يكن صحيحاً . وكنت أريد أن أتحدث معه عن السيد الحميرى ، كما ترى فى عنوان هذا الحديث ، ولكنى أطلت فأرجئ السيد إلى الحديث الآتى ، وأختم هذا الفصل بموت مروان يقُصُّه قاتله .

روى صاحب الأغانى عن رجل يقال له صالح بن عطية الأضجم ، أنه قال : لما قال مروان :

أنّى يكونُ وليس ذَاكَ بكائنٍ لبنى البناتِ وِراثةُ الأَعمام

لزمته ، وعاهدت الله أن أغتاله ، فأقتله أى وقت أمكننى ، وما زلت ألاطفه وأبَرّه ، وأكتب أشعاره ، حتى خُصصت به ، فأنس بى جداً ، وعرفت ذلك بنو حفصة جميعاً ، فأنسوا بى ، ولم أزل أطلب غرّة ، حتى مرض من حمى أصابته ، فلم أزل أظهر له الجزع عليه ، وألازمه وألاطفه ، حتى خلا لى البيت يوماً ، فوثبت عليه ، فأخذت بحلقه ، فما فارقته حتى مات ، فخرجت وتركته ، فخرج إليه أهله بعد ساعة ، فوجدوه ميتاً ، وارتفعت الصيحة ، فحضرت وتباكيت ، وأظهرت الجزع عليه حتى دفن ، وما فطن بما فعلت أحد ، ولا اتهمنى به .

السيد الحميرى [1]

علويون ، وعباسيون

اضطرنا ذكر أبان بن عبد الحميد إلى أن نعرض للشعر السياسى فى صدر أيام العباسيين ، فذكرنا أبان بن عبد الحميد نفسه ، ورأينا مذهبه ، وكيف كان يتخذ التشيع للعلويين لوناً سياسياً ، كسادته البرامكة ، ثم كيف لم يمنعه هذا أن يكون حرباً على العلويين ، كسادته البرامكة أيضاً . ثم ذكرنا هذا الشاعر الذى قصره شعره السياسى على بنى العباس ، فدافع عنهم وناضل ، حتى قتله رجل من شيعة العلويين غيلة ، وهو مروان بن أبى حفصة ، الذى كان خليقاً أن يكون أموى النزعة ، ولكن حبه للمال ، وتهالكه عليه ، قطع الصلة بينه وبين قديمه ، وحمله على أن يقف شعره على من كان بيدهم المال والسلطان .

ونريد اليوم أن نرى شاعراً سياسيًّا ثالثاً ، يختلف كل الاختلاف عن هذين الرجلين ، اللذين رأيناهما ؛ فهو لم يكن فارسيًّا ، ولا ميالا إلى الفرس ، ولا متصلا بزعمائهم ، ولا متأثراً بحضارتهم تأثراً خاصًّا . وإنما هو رجل عربى خالص ، لأمه وأبيه ، وهو من عرب اليمن ، أبوه من حمير ، وأمه من الأزد ، وهو إسماعيل ابن محمد ، المعروف بالسيِّد الحميرى .

ليس فارسيًّا ولا متصلا بأحد من زعماء الفرس ، وإذن فلم يكن تشيعه طلاء سياسيًّا كاذباً ، يستر الشُّعوبية وبُغْض العرب ؛ ولم يكن أموى النزعة ، بل لم تكن بين أسرته وبين الأمويين صلة مودة ، كما كانت الحال بين آل أبى حفصة والمراونة ، وإنما كان الأمر على عكس ذلك بالقياس إلى السيد الحميرى ، فإن جده يزيد بن مُفَرِّغ هجا زياداً وآل زياد ، وعرَف سجن عبيد الله بن زياد . وكان أبو السيد وأمه من الخوارج الإباضية ، فكانا يكرهان الأمويين ، كما كان يكرهان بنى هاشم ، وكانا يشتمان معاوية ، كما كانا يشتمان عليًّا ، ومع ذلك فقد كان السيد الحميرى شيعة لعلىٍّ وأبنائه ، ولعل شيعة العلويين لم يظفروا بشاعر مثله

---

(١) نشرت بالسياسة فى ٢١ ذو القعدة سنة ١٣٤٢ — ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٤ .

فى حياتهم السياسية كلها ؛ وقف عليهم عمره وجهده ، وكاد يقف عليهم مدحه وثناءه ، مخلصاً فى ذلك كله إخلاصاً لا يشبهه إخلاص . ولم يكن السيد الحميرى نفسه يعرف كيف وصل التشيع إليه ، بل كان إذا سئل عن ذلك قال : غاصت رحمة الله على غوصاً، وكان يسمع أبويه يشتمان علياً ، ويبالغان فى شتمه فكان يكره ذلك ، ثم صح له مذهبه فى التشيع ، وظهر منه أبواه على هذا الرأى ، فيقال إنهما هما بقتله ، فاستجار منهما بعقبة بن سَلْم ، فأجاره حتى ماتا، وتم له ميراثهما .

هو إذن يخالف أبان بن عبد الحميد ، فى أنه لم يكن فارسياً ولا ميالا إلى الفرس ، ويخالف مروان بن أبى حفصة، فى أنه لم يكن أمويا ولا ميالا إلى بنى أمية ، ولكنه مع ذلك يوافق الرجلين ، فى أنه لم يتعفف عن أموال بنى العباس، بل تقرّب إليهم ، وأثنى عليهم ، وأنشدهم شعره ، وأخذ من أموالهم ما استطاع ، مع أنه لم يكن يحبهم ولا يهواهم ، وإنما كان هواه مع قوم آخرين ، هم آل على .

على أن أمر السيد الحميرى يخالف أمر صاحبيه من هذه الناحية أيضاً ، فهو فيما بينه وبين نفسه لم يأثم حين مدح العباسيين ، وظفر بجوائزهم ، وهو لم يقل كما قال أبان بن عبد الحميد: لا أستحل ذلك،ثم استحله،وإنما كان السيد الحميرى يستحل ذلك ، كان يستحل أن يظهر غير ما يضمر ، وأن يمدح بنى العباس بلسانه ، ويلعنهم فى قلبه ، فيظفر بمالهم ، ويتقى شرهم ، كان يستحل ذلك كما كانت تستحله عامة الشيعة ، الذين كانوا يقولون بمذهب التقيّة، ويستبيحون لأنفسهم أن يروا فى السياسة والدين رأيين ، رأياً تجاريا، إن صح هذا التعبير ، يصطنعونه فيما بينهم وبين الناس ، ليعيشوا ويأمنوا،ويستمتعوا بلذات الحياة والأمن، ورأياً آخر يخفونه على الناس جميعاً إلا أنصارهم وأولياءهم ؛ وهو الرأى الذى يصطنعونه فيما بينهم وبين الله ، وعلى هذه السيرة سارت الشيعة العلوية أيام الأمويين ، وعليها سارت أيضاً أيام العباسيين ، وهى معقولة ، ممكنة التفسير ، فقد لقيت شيعة على من الاضطهاد وألوان المحن أيام بنى أمية ، ما لم يلقه حزب سياسى آخر ، إذا استثنينا الخوارج ، على أن المقارنة بينهم وبين الخوارج من هذه الناحية لا معنى لها ، وكانت شيعة علىّ من وجوه الناس وأشرافهم، وذوى الثروة والمكانة فيهم ،

فلم يكن لهم بُد من أن يداروا الناس ويتقوهم، ليحتفظوا بثرائهم ومكانتهم ، حتى إذا سنحت لهم الفرص ، أو برقت لهم بارقة أمل نهضوا لحقهم ، فطالبوا به ، ودافعوا عنه ، وعلى هذا النحو استطاع الكُمَيت بن زيد ، وهو الشاعر الذى يمكن أن يوضع مع السيد الحميرى ، أن يمدح بنى أمية ، ويفيد من أموالهم ، وعلى هذا النحو استطاع «كُثَيِّر» أيضاً أن يمدح الأمويين ، ويصيب من جوائزهم ، بل على هذا النحو استطاع «الفرزدق» أن يُضمر ميله إلى العلويين ، ويكتمه كتماناً ، وأن يقصر مدحه أو يكاد يقصره على الخلفاء من بنى أمية .

فليس غريباً أن نرى السيد الحميرى يمدح بنى العباس ، ويتقرب إليهم ، مع أنه كان من غلاة العلويين ، الذين أسرفوا فى علويتهم ، حتى تجاوزوا بها كل حد . كان السيد الحميرى علوياً غالياً ، وكان من الرافضة ، وقد جنى عليه غلوُّه ورفضه هذان جناية عظيمة ، هى التى تعنينا ، وإن كانت لم تعنه ، ولم تنل منه ، ذلك أنه عاش عيشة هادئة مطمئنة ، فلم ينله أذى ، ولم يتعرض لخطر ، بل استمتع من نعيم الحياة بكثير ، ولكن رفضه وغلوه بغّضا شعره إلى الناس ، وحملاهم على أن يُعرضوا عنه الإعراض كله ، إما لأنهم كانوا يكرهون أن يرووا شتم أبى بكر وعمرو وغيرهما من أصحاب النبى وأزواجه ، وإما لأنهم كانوا يخشون السلطان إن رووا ذلك أو تناقلوه ، ومهما يكن من شىء ، فقد كان السيد الحميرى أحد الشعراء الذين عرفوا بكثرة الشعر ، ولم يتقدمهم فى ذلك أحد ، فى جاهلية أو إسلام ، وهم بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد . فأما بشار فقد ذهب شعره ، لما كان فيه من زندقة ومجون وكفر ، وأما أبو العتاهية فقد حُفِظ له ديوانه ، لما كان فيه من زهد وورع ودين ، وأما السيد فقد ذهب شعره ، لما كان فيه من شتم السلف ، والطعن عليهم ، والإسراف فى الزراية بهم . ولقد احتاط أبو الفرج احتياطاً شديداً ، وتحرّج تحرجاً عظيماً ، فى رواية ما روى من أخباره وأشعاره القليلة ، ولو استطاع لأعرض عن ذلك إعراضاً ، وكان الرواة وأئمة اللغة يتحرجون من شعره ، ويختلسون الفرص اختلاساً يتلون فيها شيئاً من شعره ، خفية دون أن يظهر عليهم الناس ، وكان منهم من يأسف ويأسى ، لأنه فيما بينه وبين نفسه يُكبر هذا الشاعر ، ويقدر شعره ، ولكنه لا يستطيع ، لخوف أو لدين ، أن ينزله منزلته

الصحيحة من الشعراء ، كان الأصمعى يُقدّمه على طبقته ، لولا إسرافه فى شتم السلف ، وكذلك كان أبو عبيدة ، وكذلك كان غيرهما من الرواة الذين عاصروهما .

ولعلك تتساءل عن مصدر هذا الخوف العظيم ، الذى كان يشتمل على الناس إذا ذكر السيد الحميرى أو شعره ، والذى كان يحمل أصدقاء الشاعر والمعجبين به ، على أن يتناقلوا شعره سرًّا فيما بينهم ، فمصدر هذا الخوف شيئان : أحدهما الدين ، والآخر السياسة . وما رأيك فى رجل لم يدع نقيصة من النقائص ، ولا مأثمة من المآثم ، ولا لوناً من ألوان العيب ، إلا رمى بها خيرة المسلمين وسلفهم الصالح ، لا يستثنى من هؤلاء جميعاً إلا بنى هاشم وشيعتهم ! فأما أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أصحاب النبى ، مهاجرين وأنصاراً ، فلم يسلموا من لسانه ، ولم يأمنوا من ذمه ونعيه . أفتظن أن أولئك المسلمين الذين كانوا يعيشون أيام المنصور والمهدى ، على قرب عهدهم بالسلف ، وشدة حرصهم على تكريمه وتعظيمه ، كانوا يستطيعون أن يرووا هذا الشعر أو يسمعوه ، دون أن يأخذهم الألم ، وينالهم الاشمئزاز ، ويصيبهم شىء من الحرج فى دينهم ، يصرفهم عن هذا الشعر صرفاً !

أما السياسة فقد أريد أن أنتهز هذه الفرصة ، لأبين لك مقدار البغض والعداء اللذين كانا يفصلان بين آل العباس وآل على ، أيام السيد الحميرى ، وليس أدل على ذلك ، ولا أنطق به ، ولا أبلغ فى وصفه ، من هاتين الرسالتين اللتين تبادلهما المنصور ومحمد بن عبد الله بن الحسين العلوى حين خرج بالمدينة . هاتان الرسالتان اللتان أرويهما على طولهما ، تصفان لك هذا العداء الشديد ، الذى كان يقسم بنى هاشم قسمين : قسماً يوالى العباسيين ، وقسماً يوالى العلويين ، وهما على هذا تبينان لك شيئاً آخر أشرت إليه فى فصل مضى ، وهو النظرية السياسية والدينية التى كان يعتمد عليها العباسيون فى إقامة ملكهم ، والتى دافع عنها مروان بن أبى حفصة ، ودافع عنها أبان بن عبد الحميد ، والنظرية السياسية الدينية التى كان يعتمد عليها العلويون فى المطالبة بحقهم ، والتى قامت عليها الثورات ، وسفكت من أجلها الدماء ، واستغلها الفرس لأهوائهم وشهواتهم السياسية .

لما خرج محمد بن عبد الله بالمدينة ، كتب إليه المنصور يرغّبه ويرهبه ، ويخوفه عاقبة الخروج والبغى ، ويبذل له الأمان إن تاب وعاد إلى رأى الجماعة .

فكتب إليه محمد بن عبد الله هذا الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد عبد الله المهدى ، إلى عبد الله بن محمد . « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكّن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت علىّ ، فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا . وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا علياً كان الوصى ، وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا ، وشرف آبائنا ، لسنا من أبناء اللُّعناء ولا الطُّرداء ولا الطلقاء ، وليس يمتُّ أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمت به من القرابة والسابقة والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاماً على ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صلّى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة ، سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وإن هاشماً ولد علياً مرتين ، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين ، وإنى أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أماً وأباً ، لم تُعْرِقْ فىّ العجم ، ولم تتنازع فىّ أمهات الأولاد . فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار ، فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة ، وأهونهم عذاباً فى النار . وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار ، ولك الله علىّ إن دخلت فى طاعتى ، وأجبت دعوتى ، أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته ، إلا حدّاً من حدود الله ، أو حقّاً لمسلم أو معاهد . فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ؛

لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلى . فأى الأمانات تعطينى ! أمان بن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله بن على ، أم أمان أبى مسلم » !

فانظر إلى هذا الكتاب كيف عرض فيه محمد بن عبد الله نظرية العلويين السياسية والدينية ، وهى أنهم ورثوا الخلافة عن النبى ، لأن أباهم كان وصى النبى ، ولأن أمهم بنت النبى ، وما كان لغيرهم أن يلى الخلافة وهم أحياء ، ثم انظر كيف افتخر بمكانه من النبى فى الإسلام والجاهلية ، وبهذه الكرامة التى خص الله بها أهل البيت . وكيف ذكر أنه ابن خير الأخيار ، وخير الأشرار ، وخير أهل الجنة ، وخير أهل النار ، يريد أبا طالب ، الذى مات ولم يُسلم ، فيروى أنه أقل أهل النار عذاباً ، ثم انظر كيف كيف ختم كتابه بهذا التعبير ، يصف فيه المنصور بأنه نقض العهد ، وخان الذمة مع قوم آمنوه ، فقتل منهم من قتل ، وسجن منهم من سجن .

وكان وقع هذا الكتاب شديداً فى قصر المنصور ، فقد انتدب الكتاب والأمراء للرد عليه ، وأبى المنصور إلا أن يرد بنفسه ، فكتب هذا الكتاب .

(بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فقد بلغنى كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جل فخرك بقرابة النساء ، لتُضلَّ به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعَصَبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أباً ، وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحماً ، وأعظمهن حقًّا ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه ، لما مضى منهم ، واصطفائه لهم .

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً رِزْقَ الإسلام ، لا بنتاً ولا ابناً ، ولو أن أحداً رُزِق الإسلام بالقرابة ، رُزِقه عبد الله ، أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء ؛ قال الله عز وجل : « إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فأنذرهم ، ودعاهم ، فأجاب اثنان ، أحدهما أبى ، وأبى اثنان : أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه

وبينهما إلاً ولا ذمة ولا ميراثاً .

وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار ، وليس فى الكفر بالله صغير ، ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ولا ينبغى لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار . وستّرد فتعلم ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

أما من فخرت به من فاطمة أم على، وأن هاشماً ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ،وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين ،فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم إلا مرة، ولا عبد المطلب إلا مرة ، وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أمًّا وأباً ، وأنه لم تلدك العَجَم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرًّا، وانظر ويحك أين أنت من الله غداً ، فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفساً وأباً، وأولا وآخراً ، إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ولد ولده ، وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم ، إلا بنو أمهات أولاد ، وما وُلد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن حسين ، وهو لأم ولد، ولهو خير من جدك حسين بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على وجدّتُه أم ولد، ولهو خير من أبيك، ولا مثل ابنه جعفر ، وجدّتُه أم ولد، ولهو خير منك .

أما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى يقول فى كتابه: « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » . ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورّث بها ! ولقد طلب بها أبوك بكل وجه، فأخرجها نهاراً ، ومرّضها سرًّا، ودفنها ليلا، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ، ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون ، وأما ما فخرت به من على وسابقته ، فقد حضرتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة، فأمره غيره بالصلاة، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل ، فلم يأخذوه ، وكان فى الستة فتركوه كلهم ، دفعاً له عنها، ولم يروا له حقًّا فيها . أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان، وقُتل عثمان وهو له مُتَّهم،

وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعدٌ بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده، ثم طلبها بكل وجه ، وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكّم حكمين رضى بهما ، وأعطاهما عهده ، وميثاقه فاجتمعا على خلعه . ثم كان حسن ، فباعها من معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالاً من غير ولائه ولا حلِّه . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه ، وأخذتم ثمنه ، ثم خرج عمك حسين بن على على ابن مرْجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه ، وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم ، وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قُتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم ، وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء من المحامل ، كالصبى المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسنينا سلفكم وفضلناه ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا ذكرنا أباك وفضلناه ، للتقدمة منّا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلماً منهم ، مجتمعاً عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة، فاحتججنا له، وذكّرناهم فضله ، وعنّفناهم وظلمناهم بما نالوا منه . ولقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ، وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك ، فقضى لنا عليه عمر ، فما نزل عنها فى الجاهلية والإسلام ، ولقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه إلا بأبينا ، حتى نعشهم الله ، وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به ، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره، فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله إلا ولده ، فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل فى الجاهلية ولا إسلام ، فى دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه وموِرثه وأما ما ذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ، وينفق عليهم ، للأزمة التى أصابته ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات طالب وعقيل

جوعاً ، ولَلَحق جفان عتبة وشيبة ،ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسُّبة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدى عقيلا يوم بدر ، فكيف تفخر علينا وقد عُلْناكم فى الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحُزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم ، فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا إلا نفسكم . والسلام عليك ورحمة الله) . (الطبرى جزء تاسع) .

أترى إلى المنصور كيف استطاع أن يهدم مفاخر ابن عمه ، وأن يقيم على أنقاضها مفاخر العباسيين . ثم أترى إلى نظرية العباسيين فى خلافتهم ، هذه التى تقوم على أن العم أحق بالوراثة من البنت ، وعلى أن العباس قد ورث النبى ، فأبناؤه يرثونه ، وعلى أن بنى علىّ قد نزلوا عن حقهم فى الخلافة حين باعها الحسن من معاوية بخرق ودراهم ، وهو نفس الكلام الذى كان يردده مروان بن أبى حفصة وأبان بن عبد الحميد، وغيرهما من الشعراء السياسيين لبنى العباس ، فالمنصور هو الذى وضع هذه النظرية ،واحتج لها بالفقه والسُّنة ، وجعلها مذهباً سياسياً ودينياً ناضل عنه الشعراء .

ثم انظر إليه كيف عير العلويين نكرانهم للجميل ، وكفرهم للنعمة ، فقد نهض بنو العباس يثأرون لهم ، ويطلبون بدمائهم ، حتى أدركوا الثأر ، ومحوا العار ، وأذلوا دولة بنى أمية ، فلم يروا من أبناء عمهم إلا عقوقاً وجحوداً .

ولسنا نريد أن نحكم بين العباسيين والعلويين فى هذه القضية ، فذلك شىء لايعنينا الآن ، وإنما نريد أن نمثل العداء الذى كان بين هاتين الأسرتين ، ونحسب أن هذين الكتابين يمثّلانه تمثيلا قوياً ،وأنت تعلم أن الحرب اتصلت بين المنصور ومحمد هذا ، حتى قتل محمد فى المدينة ، وقتل أخوه إبراهيم فى البصرة ، وكل هذا يبين لك إلى أى أحد كان الناس يخافون من رواية الشعر الذى يدافع عن العلويين ، ويؤثرهم على غيرهم بالخلافة ، فى ظل رجل قوى كالمنصور .

على أن شاعرنا السيِّد الحميرى ، لم يكن من أنصار الحسن والحسين ، أو بعبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين ، وإنما كان من الكَيْسانية ، الذين كانوا ينصرون الابن الثالث من أبناء علىّ ، محمد بن خولة الحنفية ، والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت ، وإنما تغيب عن الناس ، واحتجب عنهم حيناً ،

وسيعود فيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جوراً ، فلم يكن على السيد الحميرى بأس أن يمدح بنى العباس ، ويتقرب منهم ، ما دام صاحبه محمد ابن الحنفية لم يعد من غيبته بعدُ .

ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخَصلة لم نرها فى شاعر من الذين تحدثنا عنهم قبل اليوم ، وهى أنه كان سخيفاً ضعيف العقل ، شديد الإيمان بالخرافات والأوهام ويظهر أن هذه الخصلة جاءته من مذهبه نفسه فى الرَّجعة ، فقد أسرف فى هذا المذهب ، كما أسرف فى مدح العلويين ، والإيمان بهم ، حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يُقبل وما لا يقبل ، فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين ، رضيه العقل أو لم يرضه ، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين ، رضيه العقل أو لم يرضه ، وكان يكفى أن يسمع رجلا من أهل القصص ورواة الأساطير ، يروى كرامة من الكرامات ، يضيفها إلى أحد العلويين ، حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيدة ، ويتخذ هذه القصيدة وسيلة إلى ذم السلف ، والنعى عليه .

وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ، ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية فى الوقت نفسه ، وهى أنه كان يستبيح ضروباً من اللهو المنكر ، ويسرف فى شرب الخمر ، وغير ذلك من ألوان العبث ، لا لأنه كان يجحد الدين أو يزدريه ، بل لأنه كان يُدِلّ على صاحب الدين . كان يحب النبى وآله ، ويمنحهم مودته ونصره ، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك ، وسيشفعون له فى ذنوبه وآثامه ، لما قدّم بين يديه من مدح العلويين ، ونصرهم على خصومهم ، وكان بنو هاشم وبنو على خاصة يُطمعونه فى ذلك ، ويعترفون له به ، فإذا ذكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر ، قالوا : وأى ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت! بل قال أحدهم إن مَنْ أحب آل على لم تَزِلّ له قدم إلا ثبتت له أخرى . وعلى هذا كان السيد الحميرى يلهو آمناً فى دينه ودنياه ، يعتمد فى دينه على العلويين ، ويعتمد فى دنياه على العباسيين ، يقدر أن العلويين سيشفعون له عند الله ، ويعلم أن العباسيين يتقون شره ، ويؤثرون مدحه على هجائه . وكان من معاصريه من يكره ذلك ، ويمقته كل المقت ، ويضمر للسيد عداء وحقداً لا يعدلهما عداء ولا حقد . ومن هؤلاء سوّار بن عبد الله العنبرى ، قاضى البصرة

للمنصور ، فقد كان العداء بينه وبين السيد شديداً ، وكان قد أجمع ألا يَقْبل للسيد شهادة ، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غير مرة ، وكان السيد قد هجاه ، فأسرف فى هجائه ، فشكا ذلك إلى المنصور ، فنهاه عنه ، وأمره أن يذهب إلى القاضى ، فيعتذر إليه ، وأبى القاضى أن يقبل معذرته ، فاستأنف السيد الهجاء ، وألح فيه . ويقال إن سواراً أعد شهوداً على السيد بالسرقة ، ليقطع يده فعلم السيد ذلك ، فجزع وفزع إلى المنصور ، فعزل المنصور سواراً من القضاء للسيد أو عليه ، ولم يلبث سوار أن مات ، فتبعه السيد بعدائه وبغضه وهجائه . وتستطيع أن تقرأ هجاء السيد لسوار فى الأغانى ، فهو كثير ، لا أروى منه شيئاً ، لأنى قد أطلت ، بل لست أروى من شعر السيد إلا أبياتاً تمثل لك مذهبه الشعرى . على أنى أعتقد أن السيد لا يمتاز عن غيره من الشعراء من الوجهة الفنية إلا بشيئين اثنين :

أحدهما الإكثار الذى لم يشاركه فيه إلا بشار وأبو العتاهية ، فقد زعم الرواة أن قصائده فى آل على كادت تبلغ الثلاثة الآلاف .

والآخر أنه كان سهلا مطبوعاً ، شديد النفرة من الغريب ، وقد سئل عن ذلك ، فأجاب بأنه يؤثر أن يقول كلاماً يفهمه الناس ، على أن يقول كلاماً يُعْجَب به الرواة . وهذا طبيعى بالقياس إلى شاعر سياسى ، يدافع عن حزب مضطهد ، كالسيد الحميرى ، فهو لا ينظم شعره للخاصة وحدهم ، وإنما ينظمه للعامة ، الذين يريد أن يتخذ منهم أنصاراً .

وانظر إلى هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

امْرُرْ على جَدَث الحُسَــيْــنِ فقل لأَعظمه الزكيّهْ
آأَعظُماً لا زلت من وطْفاء ساكبة رَويّهْ
وإذا مررتَ بقبرهِ فأَطِل به وَقْفَ المطيّهْ
وابكِ المُطَهــر للمطهّــ والمطهّرةِ النّقيّه
كبكاء مُعْوِلةٍ أتتْ يوماً لواحــدها المنيّهْ

وانظر إلى هذه الأبيات ، التى بعث بها إلى المهدى ، يسأله ألا يعطى آل أبى بكر وعمر من مال الدولة :

قل لابن عَبَّاسٍ سمّى محمد لا تُعْطِيَنَّ بنى عَدِىٍّ دِرْهما
اِحْرِمْ بنى تَيْمِ بن مُرَّةَ إنَّهُمْ شَرُّ البريَّةِ آخرًا ومقدَّما
إنْ تُعْطِهِمْ لم يشكروا لك نعمة ويكافئون بأن تُذَم وتُشْتَما
وإن ائتمنتهمُ أو استعملتهمْ خانوك واتخذوا خَراجك مَغنما
ولئن مَنَعتَهمُ لقد بدءُوكُمُ بالمَنْع إذا ملكوا وكانوا أظْلما
مَنَعوا تُراثَ محمَّدٍ أعمامه وبنيــه وابنته عديلةَ مَريمَا
وتآمروا من غير أن يستخلِفوا وكفى بما فعلوا هنا لك مَأْثَمــا
لم يشكروا لمحمدٍ إنعامَه أفيشكرون لغيره إن أنْعما
واللهُ مَنَّ عليهمُ بمحمدٍ وهداهمُ وكسا الجُنُوب وأطْعما
ثم انبَرَوْا لوصيِّهِ ووليِّهِ بالمُنْكَرات فجرَّعوه العَلْقَمَا

وانظر إلى هذه الأبيات يهنئ بها أبا العباس السفاح :

دونكموها يا بنى هاشم فجدِّدوا من عهدها الدارِسَا
دونكموها لا علا كعبُ منْ كان عليكم مُلْكَها نافِسا
دونكموها فالبسوا تاجَها لا تعدَموا منكم له لابِسَا
لو خُيِّر المِنْبَر فُرْســانَه ما اختــار إلَّا منكم فارسَا
قد ساسها قبلكُم ســاسةٌ لم يتركوا رطْباً وَلا يابسا

والآن وقد فرغنا من شعراء المجون والسياسة فى هذا العصر ، فسنحدثك عن شعراء آخرين لم يسلكوا فى شعرهم مجوناً ولا سياسة ، وإنما ذهبوا مذهب غيرهم من الشعراء .

القديم والجديد [1]

تقرأ فى الرسائل الفارسية « لمنتسكيو » رسالة لا تخلو من فكاهة ولذة . تناول فيها بالعبث والمزاح خصومة الأدباء ، الذين كانوا يتنازعون فى عصره حول القديم والجديد ، وحول القدماء والمحدثين . نجد فى الرسالة أن الباريسيين يحبون القهوة ، ويكلَفُون بها . قد ظهر حبهم إياها ، وكلفهم بها ، حتى أنشئت أندية خاصة يختلف إليها الناس ، يقرءون الصحف ، ويتناقلون الأخبار فى بعضها ، ويلعبون بالشِّطْرنج فى بعضها الآخر ، وتقدّم إليهم كئوس القهوة فى أثناء القراءة واللعب . ومن بين هذه الأندية ناد خاص ، يظهر أن للقهوة فيه فضلا على غيرها من القهوات التى تقدّم فى الأندية الأخرى ، كأن فيها شيئاً يشحذ العقل ، وينبه الخاطر ، ويزيد البصيرة نفوذاً ، والذكاء توقُّداً ، والألسنة انطلاقاً ، فالذين يختلفون إلى هذا النادى ، ويتناولون القهوة التى تقدّم فيه ، أفصح الناس لساناً ، وأعذبهم بياناً ، وأقدرهم على التصرف فى فنون السحر ، وأبرعهم فى اصطناع ضروب الجدال ، فهم يتحدثون ويتناقشون ويتجادلون ، وهم يتقاذفون ويتشاتمون ، كأعنف ما يتقاذف الناس وأقبح ما يتشاتمون ، كل ذلك فى ألفاظ مختارة منتقاة ، تقع وَقْع الصواعق ، وتنفذ نفوذ السهام ، وكل هذه المناقشة ، وكل هذا العنف ، وكل هذا الجدال ، إنما يدور حول شاعر يونانى ، عاش أو لم يعش منذ ألفى سنة ، يُكبِره بعضهم ، حتى يبلغ به منزلة لا تعدلها منزلة ، ويحقره بعضهم ، حتى يبلغ به من الخسة دركاً ليس دونه درك ، وهم يختصمون ويتنابذون ويقتتلون ، دفاعاً عن هذا الشاعر ، أو هجوماً عليه . ويغتبط الكاتب بأنه ليس هذا الشاعر ، ويحمد الكاتب الظروف التى أماتت هذا الشاعر ، قبل أن تقوم هذه المعركة العنيفة حول أسمه ومكانته ، فلو قد أدركها لقتلته ، أو لنالته بشر من الموت ، إن كان هناك شر من الموت .

على هذا النحو يتحدث « منتسكيو » عن أدباء الفرنسيين ، الذين كانوا يختصمون فى القرن الثامن عشر حول القدماء والمحدثين ، ويظهر أن عبث

(١) نشرت بالسياسة فى ١ رجب سنة ١٣٤٢ — ٦ فبراير سنة ١٩٢٤ .

« منتسكيو» وسخريته من هؤلاء المختصمين ، وأن عبث غير « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين ، لم يصرفاهم عن الخصومة ، ولم يلهياهم عن القديم والجديد، فظلوا يختصمون فى القرن الثامن عشر ، كما كانوا يختصمون فى القرن السابع عشر ، وكما اختصموا من قبل ذلك ، وكما اختصموا من بعده ، حتى انتصر جديد على قديم ، ثم أصبح هذا الجديد قديماً ، واختصم الناس حوله وحول جديد آخر ، فما زالت الخصومة حتى انتصر هذا الجديد على ذلك القديم .

ويظهر أن هذه الخصومة ستستمر أبداً فى كل لغة ، وفى كل جيل ، وحول كل أدب ، على شرط أن يكون للغة والأدب والجيل الذى يتصرف فيهما حظ من الحياة ؛ وقد تأخذ الخصومة حول القديم والجديد أشكالا مختلفة ، وصوراً متباينة ، تمثل العصر الذى تنشأ فيه ، والظروف التى تحيط بها ، ولكنها مهما تختلف أشكالها ، وتتباين صورها ، ومهما تختلف العصور التى تنشأ فيها ، والظروف التى تحيط بها ، خصومة بين القديم والجديد ، لا مصدر لها إلا الحياة من حيث هى حياة ، ولا منصرف عنها ، لأنها الحياة .

نقول هذا كله بعد أن فرغنا من قراءة فصل فى مجلة « الهلال »، التى صدرت أول هذا الشهر ، وكاتب هذا الفصل الذى نسجل مسرورين أنه ممتع ، هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، كتبه يدافع به عن المذهب القديم فى الأدب ، لأن كاتباً آخر هو الأستاذ سلامة موسى ، كتب فى مجلة « الهلال » ، التى صدرت فى الشهر الماضى فصلا عن الأستاذ الرافعى ، هاجم فيه المذهب القديم فى الأدب مهاجمة عنيفة ، وجعل فيه الأستاذ مصطفى الرافعى زعيماً من زعماء هذا المذهب القديم ، فلم يكن بد للأستاذ من أن يدفع هذا الهجوم العنيف دفعاً عنيفاً، ولم يكن بد لقارئ « الهلال » من أن يقرأ هذين الفصلين العنيفين ، ثم تساءل : فيم يختصم الكاتبان ؟ وما أصل هذا العنف فى خصومتهما ؟ وهل لهذه الخصومة نتيجة أو أثر فى الأدب القديم ، أو فى الأدب الجديد ؟

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة « الهلال » ، وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعى ، وإذا كان لنا ألا نسرف فى استقصاء التاريخ ، وألا نذهب بالقارئ إلى ما بعد به العهد ، فقد

يكون لنا أن نذكر القارئ بأن مصدر هذه الخصومة فى هذه الأيام الأخيرة ، انما هى صحيفة الأدب فى « السياسة » ، فى الصيف الماضى اشتدت الخصومة بين الأستاذ الرافعى وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له ، بعث بها إلى « السياسة » تحت عنوان : « أسلوب فى العَتْب » ، وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتّاب القدماء ، فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الأسلوب ، وكانت حول هذا الإنكار خصومة طويلة ، انتهت إلى الشتم والتنابذ ، ثم لم تكد تنتهى السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكاتب أديب من كتاب فلسطين ، هو الأستاذ خليل السكاكينى ، رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد ، وحول الإيجاز والإطناب ، تناول فيها بالنقد كاتباً أديباً من كتاب سورية ، هو الأمير شكيب أرسلان ، فرد عليه الأمير رداً طويلا ، واشتدت المناقشة بين الكاتبين ، حتى انتهت إلى شىء من العنف ليس بقليل . ثم عرض الأستاذ سلامة موسى للأستاذ الرافعى فى مجلة « الهلال » ، فعده مع الأمير شكيب أرسلان ، من زعماء المذهب القديم ، وأشار إلى الكاتب الأديب خليل أفندى السكاكينى ، على أنه من أنصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد فى الأدب ، ويخطئ من يظن أن هذه الخصومة ستنتهى غداً أو بعد غد ، ويخطئ من يسأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة ، وعن آثارها الحسنة أو السيئة ، فستستمر هذه الخصومة فى الأدب العربى ، كما استمرت فى الآداب الأخرى ، وكما استمرت فى الأدب العربى القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التى أنتجتها فى كل زمان ، وفى كل مكان ، فينتصر قديم على جديد ، ثم يصبح هذا الجديد قديماً ، وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ، ينتصر متى آن له الانتصار ، وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والأدب العربى حظ من حياة .

هذه الخصومة إذن مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن ، فليس الأدب العربى بدعاً من الآداب ، وليس الأدب العربى العصرى بدعاً من الآداب العربية المختلفة . فليختصم الأستاذان سلامة موسى ومصطفى صادق الرافعى ، وليختصم الأديبان خليل السكاكينى وشكيب أرسلان ، ولكنا نظن أن من حقنا نحن القراء

على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيم يختصمون ؟ وأن نطلب إليهم ، فى رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة ، حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا ، فقد ظهر لنا إلى الآن ، أن هؤلاء المختصمين يختلفون فى أشياء ، لم يستطيعوا بعد أن يحددوها ، وآية ذلك أنك تقرأ مقال الأستاذ الرافعى ، فتجده يسأل ما « المذهب الجديد » ؟ وما « المذهب القديم » ؟ ويحاول أن يتبين هذين المذهبين ، وما بينهما من فروق . ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع ، بينة الحدود ، لما كلف نفسه هذا السؤال ، ولما احتاج إلى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا فى الخصومة بين الأديبين خليل السكاكينى ، وشكيب أرسلان : فهما يختلفان فى الإيجاز والإطناب والمساواة ، يرى أحدهما أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية ، قد عمد إليها أكبر الكتاب ، وأرفعهم قدراً ، منذ كان النثر العربى إلى الآن ، فمن الحق أن نتبع طريقهم فى ذلك . ويرى الآخر أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية ، ولكن له مقامه ، فلا ينبغى أن يعمد إليه الكاتب ، ولا سيما فى هذا العصر . إلا بمقدار ، وإلا حين تدعو إليه الحاجة الأدبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الذوق ، دون أن يحددوا هذا الذوق . أليس من حقنا أن نسألهم عن هذا الذوق ما هو ؟ وما حده ؟ وما الذى يريدون منه ؟ ولا تقل أن الأستاذ الرافعى قد أجاب عن هذا السؤال ، فنحن نعترف بأن جوابه أدق من أن نفهمه ، وأشد غموضاً من أن نظهر عليه ، وانظر إلى ما يقول فى الذوق : « وأنت تعلم أن الذوق الأدبى فى شىء إنما هو فهمه ، وأن الحكم على شىء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً . . » نعترف بأننا لا نفهم هذا الكلام ، بل نعترف بأننا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم . فإذا كان الذوق الأدبى فى شىء إنما هو فهمه ، وإذا كان الحكم على شىء إنما هو أثر الذوق فيه ، فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد إنما هو الفهم والذوق جميعاً ؟ ذلك أن الجملة الأولى صريحة فى أن الذوق هو الفهم ، وإذن فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، وإذن فليسا شيئين وإنما هما شىء واحد ، هو الفهم ، وإذن فالنقد والفهم والحكم والذوق كل أولئك شىء واحد ، تدل عليه ألفاظ مختلفة . نعترف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه

الجملة ، ولم نذقها ، وإذن فنحن لا نستطيع أن نعتقدها ، ولا نحكم فيها ، لأن الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معاً ، وتستطيع أن تدور فى ذلك ما شاء الله أن تدور . فما زال الأستاذ الرافعى مطالباً بأن يوضح لنا نظريته هذه فى الذوق ، ونحسبه يحتاج فى توضيحها إلى عناء كثير ، ذلك أنه يخيَّل إلينا أن الذوق شىء ، والفهم شىء آخر ، وأن من الإسراف أن نقول إن الذوق هو الفهم ، فقد نفهم أشياء كثيرة دون أن نذوقها ، وآية ذلك أنا نفهم كثيراً من كلام الأستاذ الرافعى ، دون أن نذوقه أو نعجب به . وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا ، فنزعم أننا قد نذوق أشياء كثيرة ، دون أن نفهمها ، وإثبات ذلك ليس بالشىء العسير ، فما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ، ويطربون لها ، يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يسمعون للموسيقى ، فيطربون ويتأثرون ، وينتهى بهم ذلك إلى شىء يشبه الذهول ، لا يفهمون الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الإخصائيون . فأنت ترى أن الذوق والفهم شيئان مختلفان ، قد يجتمعان حينما تفهم قصيدة من الشعر أو فصلا من النثر وتعجب بهما ، وحينما تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ، ولكنهما قد يفترقان حينما تقرأ فصلا من فصول الكتّاب المتكلفين ، أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين ، فتفهم النظم ، وتفهم النثر ، ولكنك تكرههما وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحينما تسمع قطعة من الموسيقى ، فتعجب وتطرب ، دون أن تفهم ما أراد الموسيقى .

وللأستاذ الرافعى فى فصله هذا آراء كهذا الرأى ، محتاجة إلى شىء من المناقشة ، ومنها ما كان يحتاج إلى شىء من التواضع قبل أن ينشر ويعلن إلى الناس . انظر إليه مثلا يزعم أن المذهب الجديد فى الأدب ليس فى حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف فى اللغة والأدب العربى ، وقوة فى اللغة والأدب الأجنبى ؛ وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد ، إنما هم قوم أضاعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم ، وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ، فكانت قوتهم فى هذه اللغات والآداب ، وضعفهم فى اللغة العربية وآدابها ، مصدر تورطهم فى فنون سخيفة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد ، وإنكارهم للمذهب القديم ، ضرباً من الاعتذار لأنفسهم ، ولوناً من ألوان الغرور بأنفسهم أيضاً .

نعتقد أن الأستاذ الرافعى مسرف فى هذا الحكم ، ولعل مصدر إسرافه فى هذا الحكم ، إن صحت نظريته السابقة ، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد ، وهو إنما أخطأ الفهم ، لأنه أخطأ الذوق ، أو هو إنما أخطأ الذوق ، لأنه أخطأ الفهم ، وتستطيع أن تدور مع الأستاذ الرافعى حول الذوق الذى هو الفهم ، أو حول الذوق الذى ليس هو الفهم ، حتى تتعبا ، فتسقطا معاً ، وقد بلغ منكما الكلال والإعياء ، ولكن الأستاذ الرافعى معذور على كل حال ، فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم ، دون أن يفهم ويذوق ، وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحياناً ، فتخطئه الإصابة فى الحكم . ونظن أن للأستاذ الرافعى حظًّا من الإنصاف ، وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وأن قوتهم فى اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ، فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا « فولتير » . وإذن فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفاً ، وليس اعتذاراً لأنفسهم ، وليس تعصباً للأدب الأجنبى الذى تفوقوا فيه . وما نظن أن الأستاذ ينكر على خصمه سلامة موسى أنه يفهم الأدب العربى كما يفهم الأدب الإنكليزى ، ويستطيع أن يحكم فيهما عن فهم هو الذوق ، أو ذوق هو الفهم ، أو فهم ليس ذوقاً ، أو ذوق ليس فهماً ، وما نظن أن الأستاذ ينكر علينا نحن أنا نستطيع أن نفهم الأدب العربى ، وأن نفهم الأدب الفرنسى وأن نحكم فيهما أحياناً عن ذوق وفهم ، أو عن فهم دون ذوق ، أو عن ذوق دون فهم . ثم هب سلامة موسى وغيره من خصوم الأستاذ الرافعى ، وأنصار المذهب الجديد ، ضعافاً فى اللغة العربية وآدابها ، فهناك قوم ينصرون المذهب الجديد ، وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور ، تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأى الأستاذ فى هؤلاء ، وما أصل مذهبهم الجديد ، وهم يجهلون اللغات الأجنبية ، ولا يتعصبون لها ؟ ثم ما لنا نذهب بالأستاذ بعيداً عن الموضوع الذى أتقنه وبرع فيه ؛ فلسنا نشك فى أن الأستاذ أتقن الأدب العربى ، وأحسن روايته وفهمه وتقليده ، وأسرف فى هذا التقليد ، وهو يناقض نفسه بعض المناقضة ، فيصرح بأن العرب عرفوا القديم

والجديد ، فكان القرآن الكريم جديداً ، وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها ، وتجددت الآداب العربية غير مرة ، يصرح بهذا ، ولكنه فى الوقت نفسه يزعم أن أحداً من العرب وأدبائهم لم يذكر مذهباً جديداً ولا قديماً ، وإذن فقد تجددت الآداب العربية غير مرة ، دون أن يشعر العرب بهذا التجدد ، أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكروه . والحق أن الآداب تجددت غير مرة ، وأن العرب شعروا بهذا التجدد ، وأنهم ذكروه ، واختصموا فيه ، كما يختصم فيه الأستاذ الرافعى وأصحابه الآن . وقد كتبنا فى هذا المكان من « السياسة » فصولا طوالا فى العام الماضى ، فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد أيام بنى العباس . وإذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » ، فليس ذلك دليلا على أنهم لم يعرفوا القديم والجديد، ولم يذكروهما ، ولم يختصموا حولهما ، وما معنى لفظ « البديع »؟ وهل كان البديع جديداً أم هل كان قديماً ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتّاب والشعراء قوم غلَوا فيه ، فرضى عنهم قوم ، وأنكرهم آخرون ؟ أم هل قبله الناس جميعاً ، وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ وإذا كان الأستاذ لا ينكر أن العرب اختصموا حول القديم والجديد فى الشعر وفى النثر، فهل يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك فى أن أنصار الجديد من العباسيين مثلا لم يكونوا ضعافاً فى اللغة العربية وآدابها ، ولم يعتذروا لأنفسهم عن هذا الضعف ، بتعلقهم بالجديد وغلوهم فيه ، أكان أبو نواس ضعيفاً فى اللغة العربية وآدابها ؟ أكان أبو تمام ضعيفاً فى اللغة العربية وآدابها ؟ أكان المتنبى ضعيفاً فى اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبو نواس ، وانتصر للجديد ، وقد جدد أبو تمام ، وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبى ، وانتصر للجديد، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم، فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون. ونستطيع أن نؤكد للأستاذ الرافعى أن الأدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد ، كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابهما ، كما يفهمون الفرنسية وآدابها ، وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ، ومنهم من يؤثر الفرنسية ، وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ، ومنهم

من يؤثر مذهب المحدثين ، فليس المذهب الجديد قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب ، وإنما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله ، قائم على الفهم قبل كل شيء ، قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون ما لا يحسه أنصار المذهب القديم ، ويرون ما لا يراه أنصار المذهب القديم . ويشعرون بأنهم يَحْيَوْنَ ، فيريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس ، وأن يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذى هم فيه ، دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

ورأى آخر للأستاذ الرافعي يحسن أن نناقشه ولو قليلا . فهو يرى أن من الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد ، وأن يتعلموا الأدب العربى من جديد ، ليأخذوا منه بالحظ الموفور ، فيسلكوا فيه سبيل القدماء ، ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ، ولغتهم الجديدة ، فيدخلوا فى اللغة والأدب ما ليس من حقهم أن يدخلوه ، ذلك لأن اللغة موروثة ، وهى ملك الملايين من الأعمار ، ولطائفة طويلة من العصور ، فيجب أن نقبلها كما ورثناها ، دون أن نُدخل فيها شيئاً من عند أنفسنا .

ونحن نعترف بأننا نخالف الأستاذ كل المخالفة فى هذا الرأى ، ونسمح لأنفسنا بأن نراه عقماً ، ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا فى هذه اللغة التى نتكلمها ، ونتخذها أداة للفهم والإفهام ، حظاً يجعلها ملكاً لنا ، ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ، ونزيد فيها ، كلما دعت إلى ذلك الحاجة ، أو قضت ضرورة الفهم والإفهام ، أوكلما دعا إليه الظرف الفنى ، لا يقيدنا فى ذلك إلا قواعد اللغة العامة ، التى تفسد اللغة إذا تجاوزناها . فليس لأحد أن يمنعك أو يمنعنى أن نضيف إلى اللغة لفظاً جديداً ، أو ندخل فيها أسلوباً جديداً ما دام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنهما أن يفسدا أصلا من أصول اللغة ، أو يخرجا بها عن طريقها المألوفة ، ولولا هذا وأن اللغة ملك لأبنائها ، يضيفون إليها ، ويدخلون فيها ، لما نمت اللغة ، ولما شاعت ، ولما استطاعت أن تنى بحاجات أهلها ، التى تتجدد وتتنوع بتجدد الأزمنة ، وتبدل الظروف ، والكتاب والشعراء فى كل عصر وفى كل مكان ، يضيفون إلى لغاتهم ، ويدخلون فيها ، ويجددونها ،

فمنهم من يسعده الحظ ، فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ، ويتهالكون عليها ، حتى تشيع وتصبح جزءاً من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ ، فلا يحفل الناس بما أدخل ، ولا بما أضاف .

ومما يحسن أن ينبه إليه الأستاذ الرافعى ، فى رفق ولين أيضاً ، أنه يسرف فى سوء الظن بأوربا وأمريكا ، وفى سوء الحكم عليهما ، ولعل مصدر ذلك أنه يقرأ لغة أوربا وأمريكا ولا يفهمها ولا يذوقها ، فهو يخطئ فى الحكم على أوربا وأمريكا ، وهو مسرف حين يظن « أن فى أوربا وأمريكا من الغفلة مذهباً ، ومن الرقاعة مذهباً ، ومن تسفل الشهوات مذهباً ، ومن الجنون مذهباً ، ومن كل شذوذ مذهباً ، ومن غير المذهب مذهباً . . . » هو مسرف فى ذلك ، فليست أوربا وأمريكا من السوء بحيث يظن ، ولو قد بلغتا من السوء هذا الحد ، لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله . ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها فى أوربا وأمريكا ، ليس شيئاً جديداً ، وإنما هو شىء عرفه الإنسان منذ تحضر ، ومنذ فكر . ويسوءنا أن نقول إن الإنسان قد عرف الديانات منذ تحضر ، ومنذ فكر أيضاً ، فما استطاعت الديانات أن تقضى على اختلاف المذاهب ، ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضى على الديانات ، وإنما الإنسان إنسان ، فيه الخير وفيه الشر ، فيه الإيمان وفيه الإلحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الإباحة التى لا حد لها ، وفيه التحرج الشديد .

والأستاذ الرافعى كغيره من أنصار المذهب القديم ، مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر ، أو ينالهما منه ضيم ، ونظن من السخف والإطالة التى لا تجدى ، أن نهون على الأستاذ ، ونهدئ من روعه ، فليس ما يدعو إلى الإشفاق ، ونظن أننا ونحن من أنصار المذهب الجديد ، المتشددين فى نصره ، نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه ، كما يفهمه الأستاذ وأصحابه ويذوقونه . ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ، ولا يصرف الناس عنها ، ولا يغير من أصولها وقواعدها ، وإنما يريد أن تكون اللغة حية نامية ، ومن ذكر الحياة والنمو فقد فقد ذكر التطور ، ومن ذكر التطور وآمن به ، فهو من أنصار المذهب الجديد ، رضى ذلك أو أنكره .

فهرست الموضوعات

رقم الإيداع	١٩٩٣/١١٠٩١
الترقيم الدولى	977-02-4316-7 ISBN

١/٩٣/١٢١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

كتب أخرى للمؤلف

- فى المباحث الإسلامية :
  - مرآة الإسلام
- فى الأدب والنقد :
  - فى الأدب الجاهلى
  - فصول فى الأدب والنقد
  - حديث الأربعاء (٣ أجزاء)
  - تجديد ذكرى أبى العلاء
  - مع المتنبى
  - مع أبى العلاء فى سجنه
  - من حديث الشعر والنثر
  - ألوان — جنة الشوك
- فى أدب التمثيل :
  - من الأدب التمثيلى اليونانى
- فى القصة والرواية :
  - الحب الضائع
  - دعاء الكروان
  - شجرة البؤس
  - صوت باريس
  - المعذبون فى الأرض
  - ما وراء النهر
- فى التراجم والسير :
  - على هامش السيرة (٣ أجزاء)
  - الوعد الحق
  - عثمان
  - على وبنوه
  - الشيخان
  - قادة الفكر
  - الأيام (٣ أجزاء)
  - أديب
- فى الاجتماع :
  - نظام الأثينيين
- فى التربية :
  - مستقبل الثقافة فى مصر
- فى سلسلة اقرأ :
  - أحلام شهر زاد
  - الحب الضائع
  - الوعد الحق
  - رحلة الربيع
  - المعذبون فى الأرض
  - صوت أبى العلاء